الإفتتاحية

يلتئم في عمان «الأردن» من 12 إلى 19 ديسمبر 1992 المؤتمر الثامن عشر للإتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، ويأتي انعقاد هذا اللقاء العربي الذي يضم مثقفي الأمة العربية وضميرها الحي في ظروف عربية مأساوية دامية ودولية مرعبة ومخيفة.... فالواقع العربي، خاصة بعد حرب الخليج قد ازداد انقساما وتشتتا وضعفا... وانقطعت أواصر التضامن العربي في مستوياتها الدّنيا... كما بدأت تبحّ الأصوات وتجف الأقلام التي كانت بالأمس القريب تنبّه إلى المخاطر التي باتت تهدّد الأمة العربية جمعاء وجودا ومصيرا...

أما الواقع الدولي الجديد الذي فاجأ الساسة والمحللين والمثقفين عموما بانحلال ما كان يسمّى الإتحاد السوفياتي، وتراجع التجارب الشيوعية، وتفرّد الولايات المتحدة الأمريكية التي تحاول قيادة العالم والسيطرة على مصير شعوبه، خاصة دول العالم الثالث التي من ضمنها الدول العربية، حيث بدأت تطادر طموحات شعوبها الشرعية في التحرر والانعتاق، والتخلص من قيود التبعية، عواصف رعب مخيفة أصمّت الآذان وأعشت الأبصار والقت في عديد الأنفس والمناطق والجهات بذور القنوط والتشاؤم والاستسلام... مما دفع ببعض المحسوبين على الثقافة أو المثقفين «العرب» الى القاء راية النضال الفكري والتبشير بعصر الهزيمة وعهد الإنضواء، ومن ثمة ضرورة التبعيّة وحتمية التطبيع مع الأعداء العنصريين..!

إنّ التفرد الأمريكي لقيادة العالم والسيطرة على شعوبه هو واقع مرحلي لا يمكنه أبدا البقاء والاستمرار طويلا.. لأنه يتناقض مع قوانين التاريخ وسنن الحياة... كما يخضع لمعادلات سياسية دولية، يتم فيها الصراع والتنافس في الساحات «العلمية التقنية» والمجالات «الاقتصادية العسكرية» بين عديد القوى والمحاور...

ونتيجة أن واقعنا العربي «الحالي» بهزائمه وانكساراته بمراراته وآلامه لا يمكننا الآن أن نكون طرفا في هذا الصراع والتنافس... فإنه يتحتم علينا بدأ وفي هذه الظروف المرعبة... وبكامل الشجاعة والموضوعية أن نعود الى أنفسنا، لنرى ما بواقعنا من خلل ومرض... وما يكتنزه من بذور التحدي وإرادة البقاء... وندفع الى العمل وقبل فوات الأوان، على مد جسور التضامن العربي، وتكتيل كل قوى الخير والتصدي، وإرادة الحياة الكامنة في ضمير أمتنا لنتمكن من الوقوف في وجه التحديات التي تتربص بنا وتحاصرنا...

ضمن هذا الواقع العربي و الدولي الذي أشرنا وفي عجالة الى بعض جوانبه فحسب، تزداد جسامة المسؤولية التاريخية التي يتحملها الأدباء والكتاب والمثقفون العرب عموما في مؤتمرهم الثامن عشر الذي ينعقد تحت شعار: «الادباء والكتاب العرب في مواجهة التحديات الراهنة» ليؤشروا من جانب وبشجاعة على الأمراض المزمنة التي أنهكت الأمة العربية والتي من بينها: «الصراعات أحيانا بين الأنظمة العربية، وانفجار الأحقاد الطائفية والعرقية والدينية التي عاشتها وتعيشها بعض أجزاء الوطن العربي، وتسيّس الحركات الدينية الظلامية التي تمارس القتل والإرهاب وتكفير الفكر وتصر على جرّ حركة التاريخ إلى الوراء... وغياب الديموقراطية والتعددية السياسية وقيم المجتمع المدني والمؤسسات ثم ليرفعوا أصواتهم عالية من جانب آخر ويقفوا وقفة فكرية نيرة واعية وصلبة متماسكة لا تعرف التراجع ولا تؤمن بالهزيمة أمام عديد المؤامرات التي تستهدف الأمة خاصة المخططات العدائية للكيان الصهيوني العنصري الذي انكشفت أغراضه لكل ذي بصيرة...

من ذلك دعوات التطبيع الثقافي التي بدأت تفتح لها مسارب مخفية ومفضوحة لتغرب بكية الإنسان العربي وتنفث في عقله وبادواته وقلبه، لتحوم الهزيمة وايناس والاستسلام... ذلك أن الحقوق الوطنية الشرعية لشعبنا العربي الفلسطيني وأمتنا العربية لا يمكن مطلقا أن تكون محل مساومة أو تنازل... كما أن حق العرب، كل العرب في حياة حرة كريمة ومستقلة بعيدا عن كل اشكال التبعية، والقهر، هو حق مقدس يستمد شرعيته من تاريخهم الحضاري الضارب في أعماق التاريخ ومن القيم الإنسانية التي ساهموا فيها مع غيرهم بعديد القطاعات ومن المواثيق الدولية الخمسة التي لم يدنسها الغش ولم يشوهها التزييف...

إنها لمسؤولية جدّ جسيمة، ورسالة نضالية قومية وإنسانية مشرفة... يتحملها المثقفون العرب رغم ثقلها في هذه المرحلة التاريخية الصعبة...

فعسى أن يوفقوا في أدائها وتحمل أعبائها طبقا لما تمليه عليهم ضمائرهم الحية... انطلاقا من إيماننا بأن إرادة الشعوب ولا تقهر أبدا»...

■ المسار

مرحبا برياح النقد... والإضافات

رئيس التحرير

مجلة «المسار» رغم المكبلات وما تشكوه من «ضعف إداري» في جهاز التسيير والتنظيم (هي مشروع تأسس وتواصل على الجهد التطوعي والنضالي لجمعية محدودة الموارد واسعة الطموحات)، ستواصل صدورها وسعيها بثبات الى مرحلة النضج والانتشار.

فبعد أن برزت الى النور إثر ولادة عسيرة، وبعد أن ضمنت شرعية وجودها وفتحت للكتاب التونسين فضاء متنوعا للنشر والتواصل مع القارىء، تدخل الآن المجلة مرحلة ثالثة نريدها مرحلة الجودة والمستوى على صعيدي المحتوى والاخراج معا، حتى تساهم فعلا في الارتقاء بأدبنا وفكرنا الى مراحل الاضافة النوعية والتجديد والتجاوز وتعبرّ عن حركة الحياة والتأسيس وتطرح اشكاليات المعاصرة والحداثة.

ولأننا لسنا مجلة مؤسسة بيرقراطية أو مصلحة تجارية، سننضل نستمد من طموح منظمتنا ومبادئها ومن سخاء العاملين من أحل رسالة الادب والفكر وجهودهم المخلصة كل الزاد وكل الصبر لتجذير تقاليد العطاء الملتزم والفكر الحر والارادة المجاوزة.

لذلك نذكر بـ «سياسة» «المجلة»، وثوابتها وتوجهاتها المستقبلية، وندعو كل القراء الى رفدها بالنقد والكتابة.

فالمسار، بالاضافة الى دورها الطبيعي في التعريف بالادب التونسي وتوضيح أهم المعالم المجهولة فيه فكرا وابداعا، تسعى الى وضع حركة الادب التونسي في السياقين العربي والانساني عامة، كذلك الى طرح **العديد من القضايا التي هي آنية وساخنة** ومحرجة أحيانا. وهي بذلك تريد

المساهمة في تاسيس ثقافة مغايرة لما هو سائد والتشجيع على المغامرة النقدية والابداعية.

وبناء على هذه الاهداف، حددنا مجموعة من المحاور تخص الادب والفكر النقدي ستكون مشاغل اساسية للاعداد القادمة، بالاضافة الى الابداعات الشعرية والقصصية والاركان القارة. هذه «الملفات الساخنة» نريدها محطات للتفكير الهادىء بعيدا عن ضجيج الدعاية والتعصب، في مواضيع راهنة ومستقبلية، للفهم والتقويم والاستشراف، في صلب حركة العصر والاسئلة المحرقة لثقافتنا وتحديات وجودنا التاريخي. واذ نقدم هذه المحاور، ندعو القراء الى الاسهام فيها والتحاور مع ما ستطرحه من اشكاليات وأسئلة. وقد ضبطنا هذه المحاور في المسائل التالية، وهي بمثابة حوارات فكرية مفتوحة.

1 ـ **الحداثة وما بعد ـ الحداثة في الادب العربي المعاصر** (الاشكالات المفهومية ـ الاسقاطات التاريخية ـ مشروعية النظرية الحداثانية في الابداع العربي...)

2 ـ **تجديد الفكر العربي**: هل من مراجعات في ظل التغيرات العالمية وأطروحات «النظام العالمي الجديد ونهاية التاريخ وتسارعه.؟»

3 ـ **سوسيولوجية المعرفة وسوسيولوجية الثقافة** في الوطن العربي ـ دور الثقافة في التحديث المجتمعي.

4 ـ **المعرفة ـ الثقافة والسلطة**: هوية المثقف العربي، الحرية والفضاء المدني، الاستلاب والاستقطاب.

5 ـ **الفرد العربي وقضايا التسمية.**

6 ـ **المقدس والمسكوت عنه** في الكتابات العربية.

7 ـ **الاجناس الادبية** وتطور الادب العربي في نهايات القرن العشرين المحلية والعالمية.

8 ـ **الادب التونسي والجامعة** :دلالات الحضور والغياب، المناهج التعليمية والنقدية، البحوث الجامعية...

9 ـ **النقد الادبي في تونس** بين أزمة الأدب وأدب الأزمة...

عثمان بن طالب

شعر

كتاب الوداع

سميح القاسم

(وهو ثاني سبعة، أولها «كتاب المنفى»، وثالثها «كتاب البرج الثالث عشر»).

1ـ العتبة

ذهب هذه الكأس
لكن ما ظل من خمرتي لا يليق بها
خمرتي لا تليق بكأسي
أحطمها
وأريق دمي للرمال الجديده
في ظلال النخيل البعيده
خلف نار الذين
يكنزون عذاب الشعوب وحزن العرب
ودم المؤمنين
والذهب
خمرتي لا تليق بكأسي
أحطمها
وبموتي المهين
أسم الكانزين
بمكاوي الغضب
أنذا ناذر جسدي للهب...

أنذا تابع طفلة ثانيه
تحت نخلتها تلد الباديه
تابع لحظة من نعاس
أدركت رجلا ساهرا
شبحا من رخام وماس
أدركته فمات
انذا صيحة من رفات:
بيننا لن يرف جناحا ملاك
فاحتجب... سأراك
واحتجب... سأراك
لمحة من هنا ومضة من هناك
بيننا لن يطول السبات
أنت تبصرني
وأنا الآن لا أبصرك
لن تضاهيني
أنا يا سيدي أقهرك
وأنا أبصرك
واحدا لا أحد
غير ضيف ثقيل يسمى الأبد
وهنا رائع شجر الليل لكنني خائف
خائف أن يعود النهار
لأرى شجرا يابسا عابسا
لا طيور وما من ثمار
والقميص الذي أرتديه
يتباهى علي
ولكنني لست فيه
وهنا، لم تمل لترى أصلها السنبله
رأسها فارغ
وهنا أصلها فارغ
لم يمل رأسها ليرى التربة المهمله
وهنا تتعرى السماء
يشتهيها الجديد القديم
ويصير السديم

مولد الانبياء...
وهنا، خمرتي لا تليق بكأسي
أحطمها
ويسير النبي الرجيم
ظهره للنجوم
وعلى وجهه قمر من رماد الجحيم
ويسير القتيل
خطوة خطوة
ويغيب الرسول
في خبايا الفصول
حاملا سره المستحيل...
وهنا... هنا المفترق
خطوة... للردى
خطوة... للقلق
وهنا أيها الغائبون
تبلغون المدى
وهنا تدركون
انه كان لا مثلما تشتهون
كان
كي لا يكون...

2 ـ السبيل

وداعا !...
أنا ذاهب في إجازه فلا تؤنسوا وحشتي أيها الفقهاء البهائم
لا تقتلوني
بشبه البروق الرعود وشبه الأغاني
المراثي
أنا في إجازه
فلا تقربوني
ولا تلمسوني
أقر كما تشتهون بأن وفاتي مكافأة للضريح
الجميل

ولكنني لا أقر طقوس الجنازه
أنا انتفي
ولا إختفي
ولا أكتفي بالقليل القليل
وأرفض كل الطقوس المجازة
سمعت الفتاوي... وآمين... آمين
فاستمتعوا يا لصوص المآتم
وافرنقعوا
إنني في إجازه...
ولا، ليس لي أن أعيد الحساب القديم
أصابع كفي تخدعني في الحساب
وها هيذي سقطت اصبعا اصبعا في اسيد العذاب
ولا. ليس لي ان اعيد الحساب...
وفي شظف الموت بحبوحة للتمني كلام
كثير يراق على خشبات المنابر،
ماء يصب على أصص الزنبق المعدني.
وحبر مريض يصيب المطابع بالدوخة
المرضية في شظف الموت تأتون بالنذر من
شهقات الانيميا. جياعا موائدكم عامره
بما تشتهي الدول الجائره

وسيدكم صائم في هزال التقاويم. غايته الله.
هل عندكم غاية في وهاد الجحيم.
اظهروا مرة يا عبيد العبيد اظهروا مرة،
واذكروا ان دنياكم الآخره.
وسيدكم (لست منكم. يا ليتني لست
منكم...) سيدنا يرجم الآصره...
البطالة يصفق سيدنا باب منزله الجبلي
ويهبط ادراجه نحو باب الجحيم
يدق وتفتح سيدة في الثلاثين. أرملة من حروب
اليهود، تراه ويغمى عليها.
يتأخم سيدنا موته العبثي المباغت. يهمس
في سره: «قلت يا لعنة الله كل الذي كان

لي أن أقول... وماذا إذن؟ باطل كل ما قلته
وبيارق حزني مهلهلة في الرياح الغريبة
يا لعنة الله آخيتني في رحيلي الطويل الى
شجر غرسته يداي قديما. على جبل كان
لي أنت أغريتني بقطاف الاغاني الجديرة
بالدمع والدم... أغريتني بغد لن يكون»...
يودع سيدنا صوته المتهدج باليأس من ثمر
لن يكون على جبل لن يكون ويقفل
محتقنا بالرماد الى امرأة وسدته تهاليلها
فاستعاد البكاء القديم وأغفى على
ركبتيها... إلى أين يا رجل الثلج والملح يا شبح
الذكريات المكائد؟ لا أنت أنت ولا نحن
نحن إلى أين يا ظل سيدنا؟ خدعتك
الدّروب وخاتلك الأفق يا خاتم الشهداء
وداعا فها انت تخرج منها سجينا لتأتي
حرا اليها

وها أنت تأفل في أبويك وها هي تمضي بلا
أبويها...

وجسمك ليلكة في يديها!
وروحك تفاحة أغدقت ما يشاء الوجود على
شفتيها
لان الخلود صغير عليها
يقولون. سيدنا ليس يصغي وسيدنا
يشتهي ان يموت بكل احتشام الهزائم.
سيدنا ميت في أغاني الإذاعات في خطب
السادة الرؤساء وفي نفجة الأمراء الصدى
ان سيدنا ميت في طلاء الملوك الصغار
وفي خبز اطفاله ميت
ان سيدنا ليس يصغي لغير بكاء الشهيد
على دمه العبثي. لغير النحيب الخفيّ
المخبأ في زور زغرودة الأم حين يزف
الشهيد الى بيتها ثم يمضي المعزون كل

العصافير في طلقات الغزاة السعيده
سيدنا ميت يا كلاب الزمان. وسيدنا ميت
أيهّا الميتون الحثالات. سيدنا ميت لا يموت
وأغنية لا تموت
وسريسة لا تموت
ألا فآسمعوا موته الحي في نبضات القلوب
ألا واشهدوا موته الحي في شرفات البيوت...
شعاع ضئيل يحاور صوانة الليل
بعض المشاهد تودع اسماءها في الشعاع
وتهوي الى القاع. قاع الظلام البهيم
وتزفر احشاءها صيحة في السّديم:
خذوا نضرة الغار من مطلع النبع وانتظروا
الموكب الملكي. اجدلوا للولي أكاليه

يا عصاة الزمان ادخلوا في أساطيركم
واغربوا عن دمي البدوي القديم
ألا واعلموا ان سخطي عليكم مطل صراطكم
المستقيم
ألا واعلموا أنكم ذاهبون هباء وأني المقيم
المقيم
ألا واذكروا نضرة الغار في مطلع النبع
واستذكروا ما غرستم من الورد في شرفات
الجحيم.
نثار من الملح والفلفل الحار في الجرح،
في الجرح نار. وسخط بلا رحمة في شقوق
المنازل رعد قديم علاه الصدأ
وها نحن أيدي سبأ
وما من سبأ...
بعيدا عن العين والقلب. حرا يحل رموز
عبودية لا تحل أواصرها. وبعيدا عن القلب
والعين. يحشو بريش جناحيه بعض
الآرائك للسادة القادمين الى قبر والده كي
يبولوا عذابا وفودكا... ووالده رجل فاضل

من شيوخ البلاد القدامى... مضيف يكرم
زواره القادمين الى موته كي يريحوا
مثاناتهم. رجل طيب وشجاع... ولكنه ميت
من قديم الزمان (أبي. يا أبي. ليتني كنت
قبرك، لأحمي ظهرك.
بعيدا عن العين والقلب. سيدنا يستشفى
ويدفن اشلاءه بين اشلائه ويصلي ويضحك
ثم يصلي ويبكي ويرقص. سيدنا أدرك الآن
ما ليس يدرك!
تكسر ! تهافت ! تناثر !
ألا أيها الألم الصلد. فولاذ دبابة. أنت؟ لا
ورد في أرضك البور. يا أيها الالم الصلد مثل
فمي. أزدريك وأمقت ربك. دعني وشأني
الا أيها الالم الصلد خذ ما تشاء من الدم
واللحم. شايلوك !

الا أيها الألم الصلد تابوت أمي رشوة هذا
التراب القديم. وفي مسك هذا الختام
التعيس. اشتبهت قديما بوقع خطاك
الخرافي في ساحة البيت. حاذرت.
لم يشفع الحذر. احتطت. حاولت. جادلت
حاورت. داورت. لم تجدني فيك من حيلة
ايها الوغد دعني وشأني
ألا أيها الألم الوحش لن تستطيع افتراس
الأغاني
وحسبك أنك منتصر بافتراس المغني
فخذني... ودعني...
كما يشتهي الثلج كانت خطاه على الثلج
أشرقت الشمس ثانية. واستعاد الطريق
القديم خطا العابرين القدامى. كما يشتهي
الثلج ضاعت خطاه. تألم سيدنا واستدار
على عقبيه الى المبتدأ
تألم سيدنا وانطفأ

اذن هـهنا نحن. ساقان في الوحل. عينان
لليل. قلب يدق مع الطبل في جثة دفنت
جثة دفنت جثة دفنت جثة. مقرىء مرهق
قال احشاءه وانكفأ
إذن هـهنا نحن. ما من هنا. نحن لا نحن.
ها نحن ايدي سبأ
وما من سبأ
مزورة في الميادين كل التماثيل. أقنعة لا
وجوه. دموع من النفط. ألسنة من دخان
الحرائق. أيد من القش والخيزران. وأطقم
أسنان موتى. عصي تدب على طرقات
رعب بلا غاية. ونكاح على اليأس والجوع.
صيحات خوف صفوف المدارس. من أين
هذي الطوابير؟ من قال هذا الكلام الرهيب؟
الى أين يرجع عمال وردية الليل؟ كيف
سيخمر هذا العجين؟ ومن أين نستورد الآن
أغذية العلب التالفه؟
ودولتنا خائفه...
وعملتنا زائفه
وساعاتنا واقفه؟

كما يشتهي الثلج كانت خطاه على الثلج.
أشرقت الشمس ثانية فاعتذر
غريبا عن الخلق. حز شرايينه بالوتر
بكى وجعا في حجر
بكى غضبا وانفجر
بكى... وانتحر...

لسيدنا ان يغيب قليلا. له ان ينام ليرتاح
من وسخ اليقظة السافله
له أن يضيق قليلا بضوضاء وردته الذابله
ويفزع للبيد من شره الظل. من عفن
الزحمة القاحله

لسيدنا أن يعيش بلا كفن. ان يموت بلا
وطن. ان يعود على عقبيه الى فجوة البرق
في روحه الذاهله
له ان يجاهر بالكفر باللغة الناصله
لسيدنا ان يكون كما يشتهي عدم النجمة
الافله
له ان يتم رسالته قبل ان تكمل الجملة
الكامله
وان يولج النصل في فاصله
لسيدنا ان يضن بما ظل من جهله الابدي
على الامة الجاهله!

لسيدنا القبر : منفى وزلفى
نقوش لشاهدة القبر. لا يحفل الميتون بما
كتب القاتل
ولا تحفل الريح لو غضب الشجر المائل
نقوش لشاهدة القبر. جغرافيا للواعجنا يوم
يقبل سيدنا الراحل
لمقدمه الصلوات عليه السلام
على شفتيه المعاني التي لم يقلها الكلام
نقوش لشاهدة القبر. كانت «يبوس» ملاذ
اليبوسي حيا وميتا.
قضى نحبه. لا نقوش لشاهدة القبر. لا قبر.
ما من «يبوس»
وداعا تراب التراب وشمس الشموس.
وداعا
وينطفىء الحلم. لا حلم. لا نجم يهدي
المجوس
وما من يبوس
ويرحل سيدنا. حاملا موته. هازئا
بالطقوس
وما من فضاء جديد وما من نبي جديد. وما
من طريق
وما من يبوس...

3 ـ البخار

بخار على النافذة
تزيح ستار الدموع بظاهر كفك
ترسم قلبا وسهما
تخربش فوق البخار فناء صغيرا
وصورة طفلين...
خمسون عاما تطارد سبابة في البخار
وخمسين عاما تأخر موعد طفلين
أجراسك المدرسية صامتة في البخار
بخار على القلب
ترسم وردتك الليلكية
ـ كيف يصير البخار المحايد ليلكة؟
ـ لن يصير
خسرت،
خسرت الرهان الأخير.
وترفع موس الحلاقة ـ ما من مرايا
مراياك ضائعة في البخار
ولا وجه
موس الحلاقة عالقة في فضاء البخار
ووجهك سر البخار
وموس الحلاقة ضائعة في البخار
بخار أصابع كفك
دمعة روحك تمحو بخارا وتمحى بخارا
وتلسع موس الحلاقة وجه البخار
دم وبخار ـ وشاح الحرير
يرف بخارا
يرف يخف يمور يطير
خسرت وشاح الحرير
خسرت،
خسرت الرهان الاخير...
* * *
بخار على السهل

تعطي البيوت مفاتيحها للبخار
وتنسى ملامح سكانها الأقدمين
بخار يغطي سفوح الجبال
ويمحو البساتين من شرفات المنازل
تبكي وتصرخ:
«يا أيهذا البخار اتسع لي ولو لحظة من بخار
لاخطو ما ظل من خطوتي في البخار العقيم
وأدخل وادي الجحيم
صحوت،
فلا عدن لي في البخار
انتبهت الى غفلتي
اكتنفتني جبال الظـلام القديم
وادركت اني خسرت
خسرت الرهان الاخير»
* * *
بخار على ساعة الحائط الاثريه
على المزهريه
على السهرة العائليه
بخار على شاشة التلفزيون
صوت المذيع بخار
ووجه المذيع
ونشرة أنبائه، من بخار البراكين
في اول السخط
«يا أيهذا البخار افترضني كما شئت
واترك تفاصيل روحي لبارئها
أيهذا البخار انتشر وانتشر في بلاد البخار
تخط الجماهير
جاوز ضواحي المدائن
واعبر اقاصي القفار
كلامك انت الكلام الاخير
وصمتك انت القرار!
* * *
عصافير نيسان أبخرة في فضاء الحدائق

شمع البخار يزين مائدتي
والبخار رغيف وصحن وكأس
خيول البخار تحمحم في لوحة الزيت فوق الجدار
وشمس البخار معلقة في اعالي النهار
ووجه يطل من النافذة
بخار على النافذة
على مشهد من بخار
على مشهد من بخار
يخف. يرف. يشف. يطير
خسرت وشاح الحرير
خسرت،
خسرت الرهان الأخير...

سميح القاسم (فلسطين)

قصة

في برج السلطان

عمر بن سالم

اجتمعنا فتاتان وخمسة عزّاب للاحتفال بعيد رأس السنة هذا العام.

استضافنا بالمناسبة زميلنا أحمد، وقد اشتهر بيننا في المعهد باتقانه لفنّ الطبخ على الطريقة الصّينيّة.

لم نكن في البداية نتوقّع، نحن الرّجال على الأقلّ، انّ مضيفّنا قد استدعى معنا أيضا زميلتينا وفاء ونجوى. ترك المفاجأة تعمل عملها فينا عند اللّقاء في بيته.

لّما التأم شمل الجميع في الرّدهة المفروشة، دعانا الى الانتقال الى غرفة الأكل. فتح لنا الباب، ثم أشار الى المائدة المستطيلة، وقال:

ـ اتركوا لي هذا الكرسي المقابل للمطبخ لأكون حرّا في تنقّلاتي، وتصرّفوا في البقية بدون مراسم.

جلست الزّميلتان الواحدة الى جانب الأخرى، وكأنهما أحسّتا فجأة بالخوف.

وظللنا نحن معشر الرّجال متردّدين في اختيار الأماكن. وطالت لحظات التّردّد، ولم يجرؤ واحد على الجلوس قرب هذه أو تلك. والآنستان تنظران الى الأعين المركّزة على الكراسي دون ابداء أي إشارة أو كلمة تشجيع. ظلّتا على الحياد، رغم ما يعتمل في نفسيهما من أحاسيس.

الذي أعرفه في المعهد أن وفاء، استاذة الفلسفة، تستثقل عبد الرّحيم أستاذ الرّياضيات. فهي بالتّأكيد لا ترغب في جلوسه قريبا أو قبالتها.

قالت يوما في معرض التّلويح: «جبـالك الـرّواسي ولا عبـد...» ولم تكمـل جملتها.

والذي لا أشكّ فيه أيضا انّ نجوى أستاذة الفرنسية لا تميل الى مسعـود أستاذ العربية لأنني سمعتها ذات مرّة تقول بعد ان أنشدها قصيـدة لـه في الغزل، وغادر القاعة:

«إنني أكره هذا الصّنف من الشّعراء»

ولّما سألتها عن السّبب، أجابت:

«هكذا لوجه الله!»

وقد زاد مضيّفنا الكريم ليلتها القضية تعقيدا عندما انصرف الى الاهتمام بأطباقه في المطبخ تاركا بين الكرسي الـذي اختـاره لنفسـه وبين الـزميلتين مقعدا شاغرا لأحدنا.

أما حافظ استاذ التربية، الذي ننعته بالدّهداص لخلطه بين الخيط الأبيض والخيط الأسود في رمضـان، فقد خانته الشّجاعـة ليلتهـا فلم يتـدخّل، ولـو باقتراح من اقتراحاته النّزقة في تعديل الوضع أو في الاقدام على فتوى تسمح لأحدنا بالجلوس هنا أو هناك. بل انّه وجد تعلّة مـرذولـة لـلانسحـاب من دائرة العزم المصمّم التي يضع فيها الاشاعـرة عـادة، وسـأل مضيّفنـا عن دور المياه.

ثمّ ما لبث عبد الرّحيم، وربّما فعل ذلك بدافع التّحدي، أن وقع في النّهاية على الكرسيّ المجاور لغريمته وفاء. بينما قرّر مسعود الجلوس قرب نجـوى في شيء من الزّهو والغرور. وهكذا تجاذبت الأقطاب على المائدة رغم تنافرها في الأعماق.

وجدت نفسي أخيرا معزولا بين مسعـود وكـرسيّ أحمـد الشّاغـر. فقلت: «لعلها المنزلة بين المنزلتين»، وعلّلت بأنّ مواجهة الجمال أجدى للتّمتع به من محاذاته.

وقد ازددت اقتناعا بـالأمـر عنـدمـا رمقتني وفـاء خلسـة، وابتسمت لي ابتسامة ذكّرتني «بالجبال الرّواسي»التي حطّت بقربها.

ثمّ بانت لي بعد ذلك سحنة نجوى الشّفافة كالرّقعة الجغرافية التي بدأت تظهر عليها التقلّبات الجويّة بسبب الضّغوط الطّارئة حولها.

رأيتها تدير خاتما، ذا الفصّ الازرق المكوّر، في اصبعهـا بعصبيّة في هـذا الاتجاه وذاك.

وقدم حافظ من دورة المياه، فقال لنا عاتبا:

ـ لم تتركوا لي الاّ هذا الكرسي المجاور للشبّاك، يا ملاعين!

وسمعه أحمد، وهو قادم من المطبخ وبيده بعض الصّحون، فقال:

ـ اجلس مكاني ان كنت تخشى على صحّتك، يا ابن الذّوات.

ـ لا دخل للبدو أمثالك في القضيّة، انّما أقصد هؤلاء الأنانيين، الذين استأثروا بالكراسي الممتازة، وتركوني من وراء وراء.

لوى عبد الرّحيم المنديل بين يديه، وضرب به كفّه، وقال كالشّامت:

ـ من غاب غاب سهمه!

نظرت وفاء الى جارها في حنق، وقالت، تعني نفسها وجارتها:

ـ لسنا أسهما نقسّم بينكم الليلة. نحن ضيفتان مثلكم على مائدة سي أحمد.

وردّ عبد الرحيم معتذرا:

ـ لا تأوّلي كلامي، يا وفاء. أنت أدرى بما أكنه لك ولنجوى من احترام.

ـ سكتت الزميلة على مضض، وأخرجت سيقارة من علبتها، وضعتها بين شفتيها.

وقدح لها عبد الرحيم الولاّعة لاسترضائها، ولكن بعد فوات الأوان.

وبدأت حلقات الدخان تملأ أجواء الغرفة، وغامت الملامح الوضيئة في الضّباب وبدون سابق انذار انطلق الدّهداص في القاء درس عن مضار التّدخين، خاصّة لدى السّيدات. ولكنّ وفاء لم تكن لتنصت لما يقول. فقد انقطعت بينها وبينه الشّعرة، وراحت تقلّب الطّرف في أنحاء الغرفة باحثة عما يشدّ نظرها من معلّقات وتحف...

ولم يصبر مسعود في الاثناء على مناوشة نجوى لإجبارها على قطع الصّمت الذي اعتصمت به منذ جلوسها الى المائدة، فقال:

ـ حظّك اليوم بالسّكوت. ولا أستغرب أن يكون برجك، يا آنسة، بالحوت.

ـ ومن أدراك انّ برجي بالحوت؟

قال الدّهداص حازرا:

ـ برجك بالعذراء، وأراهن على ذلك.

قال أحمد، وهو يضع طبق السلّطة الكبير بيننا فوق المائدة:

ـ لا رهان في بيتي الليلة الاّ على الانسجام.

قلت متدخّلا:

ـ اترك الرّجل يجرّب حظّه. لماذا تحرمنا الليلة من فرصة كهذه؟

ثم قلت للدّهداص:

ـ كم رهانك؟

ـ خمسة دنانير.

ـ قليل.

ـ عشرة؟

قلت له في حزم:

ـ عشرون؟

تردّد قليلا، ثم قال:

ـ عشرون، لكن اذا خسرت أنا، فأنت الضّامن.

قلت مستنكرا:

ـ وما دخلي أنا في الرّهان، يا مقامر؟. إنما بدأت الشوط مع مسعود.

قال مسعود محتجّا:

ـ انما جاء برج الحوت على القافية، ثم أيضا لانتشار رائحة السّمك في البيت. فلا تزجّوا بي في هذا الأتون. ابحثوا لأنفسكم عن ضحيّة غيري.

قالت نجوى:

ـ ستؤدي بك القوافي يوما الى الجنون.

ردّ مسعود فرحا:

ـ وهل حفظ الدّهر شعرا مثل شعر المجانين؟ انّك تمدحينني بهذه الشتيمة.

قلت في نفسي: «ها قد استوى المدح والذم، وصار صاحبنا مستعدّا لابتلاع العقارب.. المهمّ أن تطعمه إيّاها الجارة الحبيبة.

وأحسّت نجوى بالورطة، فقالت مستدركة:

ـ أنا لا أقصد جنون الشعراء العذريين، وإنما جنون الناس العاديين.

قال عبد الرحيم منتصرا لرفيقه في الجولة:

ـ «لكلّ نابغة فنّ من الجنون»، ومسعود من الشّعراء النّوابغ.

قال الدّهداص ضاحكا:

ـ مثل نبوغك أنت في الرياضيات العصرية!

صاح أحمد معترضا:

ـ لا أسمح لأي كان أن يطعن في كفاءة زميله، ولـو بـالمـزاج. أنتم الليلـة تحت سلطتي التي لا تقبل النّقد مهما كان نـوعـه. وليس لكم في بـرنـامـج السّهرة الاّ الاكل والشرب والغناء والاحاديث الفكهة والكنت الطرفية.

ثمّ رفع كأسه ليحث الجميع على الشرب. وعندما قـرع مسعـود كـأسـه بكأس نجوى، ودعاها الى كفته دفعة واحدة، وهو ينشدها:

يا ساكبا نشوتنا في كأسك الصّافي النّقي

ومرشدا أهواءنا وناشدا لنا الرقّي

بلّغ....

قال الدّهداص مقاطعا، وهو يمسح فمه متلظّا:

ـ بلّغ أو بلّع؟

قهقهت نجوى ووفاء، فانقطع بمسعود حبل الوحي، وغصّ ببقية البيت.

وخاف أحمد مغبّة التّدخل من جديد، فنظر الى الدّهـداص، وأشـار عليـه بالصمّت عاتبا، ولم يقل شيئا.

وأراد عبد الرّحيم تغيير مجرى الحديث، فقال لوفاء ملغزا بالفرنسية:

ـ أتدرين، أيتها الزميلة العزيزة، أنك أنت الأصل وأنا الفرع؟

لطمت وفاء خدّها بأصابع كفّها، وقالت:

ـ أي أصل وأي فرع، يا شؤمي؟

ـ أقصد علاقة الفلسفة بالرّياضيات: الأصل والفرع، يا آنستي.

قلت في برود:

ـ إذا ابتعد الفرع عن الأصل، انقطع السّبب.

وردّ عبد الرحيم محتجّا:

ـ بل لم ينقطع السّبب أبدا. ظلّ المنطق يجمع بينهما.

قالت وفاء بالفرنسية كالسّاخرة:

ـ كجمعك للدّيك والحمار في مربض واحد.

أحسّ أحمد بالحرج من جديد، فنهض ليضع شريطا مسجّلا في جهاز الكاسيت، وضغط على الزرّ. انطلقت الموسيقى هادئة أوّل الأمر، ثم ما لبثت ان أصمّت الآذان. ولم يحتمل عبد الرحيم الضجّة، فالتفت نحو الجهاز، وكتم أنفاسه بضربة من سبّابته الغليظة، وقال:

- إذا عجزتم عن إيجاد وسيلة لقضاء السّهرة ، فإنيّ أقترح على حافظ باسمكم جميعا أن ينشدنا بعض المدائح والأذكار.

نهض الدّهداص غاضبا، وهو يقول :

- إذا كانت هذه هي عروض السهرة، فإنّني أنسحب منها حالا.

صاح أحمد في حزم :

- مكانك يا شيخ، ولا تتحرّك. أنت الليلة في سجني. ولن تخرج من هنا إلاّ بعد الاستماع إلى ما قرّرته بشأنك الأفلاك. وقد حرّرت لك ورقة بالتكهّنات الواردة في برجك، وسأقرؤها عليك أمام الجماعة...

- أتتحدّث عن محضر اتهام أم عن مجرّد تكهّنات فلكية؟

- هي كما تريد أن تتأول. المهمّ أن تستمع إليها.

- لماذا اخترتني أنا بالذات من بين الجماعة؟ لماذا لم تختر مسعودا أو عبد الرحيم مثلا؟

- اخترتك لأنني أعرف تاريخ ميلادك أولا، ولأنك ثانيا ضيف الشرّف في بيتي، ولأنك ثالثا قطب السرّور لهذه السهرة.

قلت لحافظ مطمئنا :

- لعلّ برجك بالعذراء، فيكون أحمد قد ضرب عصفورين بحجر. من يدري؟

نظرت إلى نجوى بمؤخرة عينها، وقالت في حنق :

- ومن أطلعكم، يا ناس على برجي؟

قالت وفاء عاتبة :

- قل لي، يا سي المختار يا عاقل، كيف توصّلت إلى معرفة برج نجوى والاطلاع على أسرارها. أمكّنك من ذلك حضرة النّاظر المحترم أم كاتبة المدير الفاضلة؟

قلت متملّصا :

- لا ترجمي بالغيب، يا وفاء، ولا تتهمي أحدا. دار الحديث منذ لحظة عن برج العذراء، فذكرته بالمناسبة لا غير.

قالت نجوى غاضبة :

ـ إنكم تتآمرون علينا. وقد شعرت بذلك منذ البداية . ما كان علينا أن نلبّي الدّعوة أو نحضر معكم هذه السّهرة.

قال أحمد غاضبا :

ـ لا تهوّلي الأمر، يا نجوى. ولا تخلطي بين الاشياء. فالزملاء لا علم لهم باستضافتي لكما الليلة أنت ووفاء. إنها بالنسبة لجميعهم مفاجأة. أسأليهم، حلّفيهم، إن شئت. فلا تآمر ولا نوايا سيئة ولا مبيّتة. رجاء، سكتت نجوى على مضض، ولكنّها ظلّت متحفّزة للردّ كالمطعونة.

قال الدّهداص:

ـ اذا كانت لك تكهّنات بشأني فهاتها، وخلّصنا من الشّبهات. فبرجي بالسّرطان وبينه وبين العذراء أسد باسطا ذراعيه بالوصيد. فلا خوف على الآنسة من الالتباس. ثمّ انّ السّهرةلا بدّ لها من ضحيّة، وقد وطّنت نفسي منذ البداية على الاحتمال.

قال أحمد:

ـ وددت لو قرأت الصّحيفة، وأنت على عتبة العام الجديد عندما تدق السّاعة منتصف الليل.

قال حافظ متعجّلا:

ـ ساعتي دائمة الدقّ. هات ما عندك، واعفني من الانتظار، فأنا لا أحبّ الموت صبرا.

نهض أحمد لاحضار الورقة من غرفة أخرى، فحطّ على المائدة سكون ثقيل، ولم يجرؤ إلاّ عبد الرحيم على تناول كأسه لكفتها في جوفه. واشتدّت الوطأة على مسعود، فقال:

ـ توحّدوا الله، يا جماعة! انتم لستم في قاعة محكمة.

وتحرّجت نجوى من التعليق، فعادت الى التلاعب بفصّ خاتمها المكوّر. وأشعلت وفاء سيقارة أخرى تعبيرا منها عن القلق، بينما عمدت أنا الى ملء الكؤوس الفارغة من الزجاجة التي كانت أمامي كالمنارة الحمراء.

حسا مسعود كأسه بسرعة، ثم سألني فجأة:

ـ ماهو برجك يا مختار؟

ـ برجي بالحمل كما تتوقع!

علّق عبد الرحيم ضاحكا:

ـ حمل ووديع أيضا.

وأضاف مسعود:

ـ جدًا جدًا!

قلت متعجبا:

ـ وهل لكما اعتراض على الوالدة؟

قال عبد الرحيم، وهو يقهقه:

أبدا أبدا....

لمّا عاد احمد الى الغرفة التي كنّا فيها، وبيده الورقة، وقف مسعود كالحاجب، وضرب المائدة بجمعه، وصاح:

ـ محكمة!

نهضنا جميعا للتمّثيل، ثم جلسنا، عدا حافظ، فقد ظلّ منتصبا أمام كرسيّه كالمتلبس بدوره. وعندما ناداه أحمد كما ينادى على متّهم:

ـ حافظ بن عليّة الخرّوجي الدّهداس!

ـ نعم سيّدي، حاضر!

ـ أنت يا أستاذ الآن في المرحلة الرّابعة من عمرك، وهي المرحلة التي تسيطر فيها الشّمس على حياتك. وقد دخلتها في سنّ الخامسة والعشرين. امّا برجك فبالسّرطان. وهو من الابراج الحارّة.

فأنت ابن الرّمضاء. وكان ميلادك يوم الاثنين الرّابع والعشرين من شهر حزيران 1909، المقابل لليوم الثّاني والعشرين من الشهر القمري ذي الحجّة الحرام من سنة 1378. وكانت لحظة وضعك: الحادية عشر و 37 دقيقة و 50 ثانية ليلا.

ـ نعم سيّدي، نعم. كلّ ذلك صحيح.

ـ وكان اذ ذاك عطارد في الطّالع والزهرة والمشتري في التراجع، وكوكب زحل متوقّفا في عتبة الحمل. فبرجك اذن غير نظيف من الشّوائب.

قال عبد الرحيم ضاحكا:

ـ وعرضه كذلك!

نهر مسعود الزميل المتدخّل، ثم أشار الى أحمد بالمواصلة فقال:

ـ والشّوائب التي توجد في بـرجك هي في الحقيقـة زائلـة بسبب وقـوف عطارد، وهو كوكب الذّكاء، الى جانبك. ولهذا فنجاحك في الدراسة وفي الحياة ثابت. فان تأخر زواجك الى حدّ الآن فذلك بسبب تراجـع كـوكب الـزّهـرة، وهو كوكب العواطف، عن لحظة الميلاد.

قال حافظ:

ـ الآن فهمت لماذا ظلّ حظّي سيّئا على الدّوام مع الـزميـلات الكـريـمات

صاح مسعود ناهرا:

ـ بدون تعليق من فضلك.

قال أحمد:

ـ ولمواليد هذا البرج جوانب لابدّ من تنبيهكم اليهـا كي تتمكّنـوا من فهم تصرّفات حافظ المحيّرة على الأقل.

قال عبد الرحيم مقاطعا:

ـ هات، يا أحمد، هات أرجوك.

لم يعترض الدّهداص على الملاحظة، وظلّ واقفـا كـالتّمثـال المنحـوت، لا يبدي حراكا.

قال أحمد مواصلا ما كان فيه:

ـ ومن هذه الجوانب تعلّق هذا الرهط باللذّة، مهما كان نـوعهـا. فهم من أولئك الذين حبّب الله اليهم الطيب والنّساء، وأعطاهم شاهية قويّة، قد تبلـغ حدّ النّهم أحيانا. وفي مقابل هذا التهافت الغـريـزي على المـلـذّات، فـانهّم من الميّالين الى الخمول والانزواء. وأحبّ شيء لديهم النوم وقت القيلولة.

قال الدّهداص:

ـ اللهمّ أنعمت فزد!

قال أحمد مستأنفا:

ـ الاّ انه يخشى عليك، يا أستاذ حافظ، من تأثيرات زحـل. وهـو كـوكب النّحس، كما تعلم. وقد كان مترصدًا لك في برج الحمـل سـاعـة الـوضـع. وتأثيرات هذا الطّالع ستكون أشدّ عليك في السنوات الكبيسة، وربّما أفقدتك وظيفتك لفترة قد تطول وقد تقصر بسبب تراجع كوكب المشتري، الذي هـو كوكب العمل عن برجك.

ـ يا ساتر استر. بدأت المصاعب، يا جماعة.

ولم يعترض مسعود على المقاطعة، وانشغل مثل بقية الحاضرين بهذه التكهّنات السيئة لزميلهم، فكأنها تترصّدهم جميعا.

وأحسّ أحمد بخطورة ما قدّم، فقال مستدركا:

- على ان كلّ هذه النّحوس ستزول بمجرّد تخطّي صديقنا للمرحلة الشّمسية الحارّة التي تنتهي بالنّسبة اليه في سنّ الرابعة والثّلاثين بحول الله.

قال الدّهداص في تشاؤم:

- استنّ يا علي بعشاك...

قال أحمد:

- ومن المعروف عن مواليد برج السّرطان انهّم من ذوي الاهواء المتقلّبة و العواطف الجيّاشة. ولا يمكن التّعامل معهم الاّ بحذر وعن معرفة بامزجتهم وميولهم. ثمّ انّ لأصحاب هذا الطالع افراط في التّعلّق بماضيهم وذكرياتهم وهم على العموم من المحافظين المتشبثّين بموروثهم المبهورين بأمجادهم. واشتغالهم بالسياسة وارد، اذا كانت هذه السّياسة تخدم ميلهم الغريزي الى التّجذّر في أصلابهم والى التقوقع في...

قالت نجوى بالفرنسية مقاطعة:

- ايّاك، يا أحمد من الانزلاق في الخطاب التعتيمي، فكأنّي بك تحاول الصاق تهمة التّعصّب بالاستاذ حافظ.

قال الدّهداص كمن فرّج كربه:

- لله درّك، يا نجوى اكشفي للجميع عن نوايا هذا العميل المنافق.

لم يهتّم أحمد بالتّعليق، وأشار على الزملاء بالترّيّث، ثم قال:

- ولتغيّر الفصول تأثير كبير على أمزجة مواليد هذا البرج. والربيع هو أحسن الفصول بالنّسبة لتفتّق أهوائهم. ففيه تزدهر حياتهم العاطفية وفيه أيضا تتفتّح نفوسهم على الكون. وسيكون للربّيع القادم تأثير على حياة زميلنا حافظ، اذ سيتمكّن خلاله من ربط علاقة غرامية وطيدة مع فتاة من مواليد برج العقرب يبدأ اسمها بالحاء أو بالعين. ولكن هذه العلاقة ستتطوّر في فصل الصّيف الموالي في اتجاه معاكس لرغبات صاحبنا بسبب الضّغوط العائلية من هذا الجانب أو ذاك...

صاح حافظ في أحمد كالناقم:

ـ عكس الله ريحك، يا مخاتل! ما ان تقف بي على عتبة النعمة حتّى تقلبها عليّ نقمة.

ضحك أحمد ثم واصل:

ـ ومن المتوقّع أن يمرّ مواليد هذا البرج خلال الأشهر الحارة من هذا العام بمحن تقضّ مضاجعهم، وتهدّد استقرارهم الى حين، ثم تعود المياه الى مجاريها مع انطفاء الجمرة.

وأهم التواريخ التي ستكون بمثابة المحطات المعلّمة في حياتهم بالنسبة لقابل، فهي على التوالي: 9 يناير، 21 فبراير، 14 نيسان، 17 أغسطس، 10 تشرين الثّاني. مع التنبيه الى خطورة التواريخ الفردية الوارد ذكرها في القائمة.

نصيحة أخيرة لاصحاب هذا البرج ولصديقنا حافظ بالذّات:

احذر التعرّض للحوادث أيام الآحاد، وتجنّب غشيان المساجد والسّاحات العامّة يوم الجمعة من كلّ أسبوع وصبيحة عيد الفطر.

والله يكلؤك، ياصديقي، بالحفظ والسّتر!

قال الدّهداص، وهو يمزق الورقة التي انتزعها من يد أحمد في عزم:

ـ كذب المنجّمون ولو صدقوا...

قالت نجوى في حماس:

ـ احرقها، ياسي حافظ، احرقها، فإنّ النار تقضي على الطلاسم والاجفار.

قال مسعود مازجا:

ـ وهل تخافين، يا آنسة على هذا الصّنف من البشر. أنهّم من أكابر المردة وقد عمّد ابليس كلّ شعرة من لحاهم بسؤره.

قال الدّهداص، وهو يمسح لحيته الجميلة بكفّه:

ـ أيكون انتماؤك الحزبي قد أفسد عليك مزاجك، فأصبحت تلعن كلّ اللّحى يا أملط؟

قالت وفاء معترضة:

ـ أرجوكم يا جماعة. لا تزجّوا بنا في أتون الانتماءات الايديولوجيّة العبيطة من عاد منكم الى أحاديث السّياسة غرّمناه.

سكت مسعود، وسكت معه حافظ، ولكّن عبد الرّحيم أعاد الطّرح بطريقته الخاصّة قال كالمعلن عن خبر هام:

ـ جارنا حمّودة المخرج لبرنامج «مفارقات» بالتّلفزة، قد حلق لحيته هـذه الايّام. ولمّا سألناه عن السّبب، أجابنا وهو يقهقه:

«أوامر ستّ الملك!»

قلت معقّبا:

ـ جزّ الشعور ولا خراب الدّور!

قال أحمد في حزم:

ـ أنت، يا مختار، مدعوّ الى غسل الأواني والصحون بعد السّهـرة، وليس لك على ذلك اعتراض.

قلت محتجّا:

ـ عبد الرّحيم هو الذي جرّني الى التّعليق.

قال أحمد:

ـ سيشاركك هو أيضا في غسلها.

وأضاف حافظ:

ـ وعلى مسعود مسح الصّحون والكؤوس والأواني وترتيبها بعد ذلك في الخزائن.

قالت نجوى متشفّية:

ـ أنتم الثّلاثة محكوم عليكم بقضاء بقيّة السّهرة في المطبخ...

الحقيقة انّنا لم نقض بقيّة السّهرة ليلتها لا في غرفة الاكل ولا في المطبخ.

اذ إن أتمّت نجوى جملتها حتّى طرق علينا باب الدّار طرقا عنيفا مرعبا.

ولمّا خرج مضيفنا لاستجلاء الأمر ومعرفة سبب الازعاج، داهمته مجموعة من الاعوان السرّيين، وانتشروا في البيت كمردة الجان، فتشوا كلّ الغرف ثمّ أحاطوا بنا ودفعونا الى الخارج، حيث زجّوا بنا في سيّارة كانت معدّة لنقلنا الى المركز. وهناك أجروا معنا التّحقيق واحدا واحدا في هويّاتنا وفي انتماءاتنا الايديولوجية وفي الاسباب التي دعتنا الى عقد مثل ذلك الاجتماع المشبوه. ولم يتمّوا معنا إجراءات البحث وتحرير المحاضر الاّ بعد انتهاء تلك الليلة واليوم الموالي، وبعد ان أنسونا طعم الاكل والشرّب ومعنى الفكاهة والظرف ومفهوم الكرامة والانتماء الى الجنس البشري.

عمر بن سالم

دراسة

الأدب التونسي : واقعه وآفاقه
أو : الأدب التونسي ومشاكل تلقّيه

جلول عزونة

I) تقديم : ما الأدب ؟

1 ـ ونحن نحاول، في هذه الدراسة التعرّض لواقع الأدب التونسي ولآفاقه لا بدّ لنا من تعريف الأدب عامّة وان كان هذا التعريف يتطلّب في الحقيقة دراسة مستقلّة مستفيضة. اذ ليس من السهل تعريف الأدب لأنّ الإجابة عن سؤال مثل: ما الأدب؟ تبدو غاية في الصعوبة مثل ما يرى ذلك Paul Bénichou.

أ ـ لقد ذهب الجاحظ الى انّ الأدب هو الأخذ من كل شيء من طرف (1)

ب ـ أمّا سارتر فإنه ينظر للأدب على أنّه كشف للإنسان وللعالم (2) ففي كتابه: **ما الأدب؟** يسأل ثلاثة أسئلة ويجعل منها عناوين لأجزاء كتابه:

أ ـ أما الكتابة؟

ب ـ لماذا الكتابة؟

ج ـ لمن نكتب؟

ويضيف قسما رابعا يخصه «لوضع الكتاب في سنة 1947» بفرنسا. يؤكّد سارتر في القسم الأول على **خصوصية الأدب** مقارنة مع الفنون الأخرى لأنّ الأدب، خلافا لها يقدّم مادّة لغوية لها دلالتها في ذاتها. فالأدب مسؤول عن المعاني التي يحملها وبالتّالي فإنّ الأديب لا يمكنه التفصّي من مسؤولية ما يكتب.

لذلك يجب ان يكون الكاتب مسؤولا تماما عن أدوات كتابته وعن الهدف من الكتابة.

وهنا يبرز السؤال الثاني: لماذا الكتابة؟ ويجيب عنه: يكتب الكاتب قبل

قبل كل شيء ليقرأ. والكاتب اذن وسيلة من وسائل الإتّصال. فالكتابة تحملنا اذن الى القراءة: «إنّ الكتابة هي كشف للعالم وفي الآن نفسه دعوة لحرية القارىء لتعمل عملها في هذا العالم.»(3)

وهنا يبرز السّؤال الثالث: **لمن نكتب؟** وهنا يلح سارتر على التناقضات بين طموحات الكاتب نحو العالمية وبين انتمائه الطبقي وبين قرّائه الفعليين من البرجوازيين وبين ما يصبو اليه وممن يتحدّث عنهم أي المقموعين والمستغلّين.

وفي القسم الرّبع يؤكّد سارتر على ضرورة ان يتّجه الأدب الى كل الإنسانية وأن يحمل الأدب هموم كلّ انسان وأن يعبرّ الأدب عن المجتمع ككلّ أي عن تناقضاته وتعقيداته وطموحاته وأن يحمل الأدب كلّ أوزار الوجود البشري.

وواضح أن سارتر ينادي بالأدب الملتزم، وهو يرى أنّ الأدب ـ مثله مثل الفلسفة ـ يمثل مهمة أساسية قوامها حرّية التعبير لدى الكاتب عن العلاقات بالكون وبالناس.

لذالك نرى أنّ سارتر حين يدرس كاتبا ما أو يحلّل نصّا من النّصوص. وحين يبحث عن كشف صنعه الكاتب او عن تقنياته انّما هو يبحث عمّا وراء ذلك ، عن نظرته للعالم، وهو عمل ضمني في كلّ خلق أدبي(4).

ج ـ أمّ الشّكلانيون الروس (مطلع القرن العشرين) فحصرون الأدب في: لغة **الإستعمال** الذاتي أي في اللّغة كقيمة مستقلّة بحدّ ذاتها مقابل الإستعمال النفعي للغة عدة الإتصال العلمي اليومي. وهنا يبرز الأدب في موقع متقدّم مقارنة باللّغة اليومية العادية. (5)

أما تزفيتان تودوروف (6) فيرى أن الأدب يرتبط بعلاقة وشيجة مع الوجود الإنساني، فهو خطاب نحو الحقيقة والأخلاق «**ولن يكون الأدب شيئا ما لم يتح لنا أن نفهم الحياة بشكل أفضل**» وإن لم يكن له اي امتياز يؤمّن له بلوغ الحقيقة، فهو لا يتوقف أبدا عن البحث عنها... إنّه ليس بحثا عن الحقيقة وحسب ولكنه هذه الحقيقة ايضا. «(ص 150)(7).

2 ـ ويمكن ان نتمادى الى ما لا نهاية له في استعراضنا لآراء الكتاب والنقاد القدماء منهم والمحدثين ـ العرب منهم ولأجانب، ولكنّ المهمّ في كل ذلك هو إجماع هؤلاء جميعا على قيمة الأدب لدى الكاتب أوّلا ولدى القارىء ثانيا وعلى أثر الأدب في المجتمع وعلى دور الأدب في نحت مستقبل البشرية لأنه يساهم حاضرا، كما ساهم في الماضي، في سبر أغوار النفس البشرية وفي الكشف عن ملابساتها وغموضها واذن في فهم الكون وما فيه.

II)ما الأدب التونسي ؟

1ـ لسائل أن يسأل: ما المقصود بالأدب التّونسي؟

والإجابة سهلة عن بعضهم: **هو الأدب المكتوب والشفوي المنتج في البلاد التونسية.**

ولكن هذه الإجابة العامّة تثير عديد الأسئلة:

- مدى ارتباط هذا الأدب بالدّولة التونسية؟
- متى ظهر؟ بهذه التسمية؟
- ما هي حدوده الجغرافية واللّغوية؟

وليس هدفنا الإجابة عن كلّ هذه الأسئلة الجوهريّة وما يمكن أن تثيره من أسئلة ثانوية وإنّما قصدنا **إثارة هذه الأسئلة بأكبر قدر ممكن من الوضوح** حتى نتمكّن من محاولة مقاربة الإشكاليات الأساسيّة التي تطرحها الحياة علينا بإلحاح في هذه المرحلة من حياة بلادنا وضرورة التسلّح بأكبر ما يمكن من العقلانية حتى نستطيع مواصلة الإنتاج وفرض الذات وما الأدب الاّ إحدى واجهات الحياة ولعله من أهم الواجهات بصفته مرآة يمكن لنا أن نرى فيها وجوهنا ونحكم بها على مدى صحّتنا وحيويتنا وطرافة ما ننتج.

2 ـ ما المقصود بلفظ التونسي؟

أ ـ «التونسي» نسبة الى تونس والى البلاد التونسية أي حاليًا الى **الجمهورية التونسية**، والى الدولة التي ننتمي اليها، ذات العلم المعلوم وذات الحدود الدولية المعترف بها.

فالأدب التونسي هو كلّ أدب يكتب وينشر وينتج في هذه البلاد.

وتونس كانت مملكة وكانت ايالة تابعة للدولة العثمانية في وقت من الأوقات وكانت قبل ذلك كل سلطنة حفصيّة تمتدّ حدودها الى ما ابعد من الحدود الحالية شرقا الى طرابلس وغربا الى ما بعد عنّابة.

ونحن نعلم أنّ الحفصيين هم أوّل من اتخّذ مدينة تونس عاصمة لهم واذن فالمفروض أنّنا سنجد لفظ الأدب التونسي يظهر مع الحفصيين وليس قبلهم اذ كانت بلادنا تسمّى افريقيّة وكانت عاصمتها القيروان ثمّ المهديّة.

ب ـ ولكن كلمة أو نسبة «التونسي» لا نجدها الاّ في بعض الكتب المتأخّرة نسبيًا مثل:

- **المؤنس في أخبار إفريقيّة وتونس** لابن أبي الدينار المتوفّ سنة 1691(8) أي آخر أيام الدولة المرادية.
- **الحلل السّندسية في الأخبار التونسية** للوزير السراج المتوفّ سنة

1736 أوائل الدولة الحسينية(9).

- الجواهر السنية في شعراء الدّيار التونسيّة لبيرم الرّابع المتوفّ سنة 1861 (10).

- مجمع الدواوين التونسية: لمحمد السنوسي المتوفّ سنة 1900(11) وهذا لا يعني عدم وجود نسبة «التونسي» في غير ما ذكرنا ولكنّها عيّنات فقط، والا همّ أنّ شعور الإنتماء الى وطن يسمّى تونس ونسبة الأدب اليه إنّما هو مفهوم حديث نسبيا اذا كان الشعور الطاغي هو الإنتساب للأمة الإسلامية وتونس إحدى ديارها. ولعلّ الإنتساب لتونس كقطر برز أكثر عند الإحتكاك مع الغرب صاحب نظرية الوطن (La nation) وبالخصوص بعد الإستعمار فظهر بتونس سنة *1918* كتاب المرحوم حسن حسني عبد الوهاب: ***المنتخب المدرسي من الأدب التونسي***(12).

وعلى كل فالأدب التونسي بقي مهمّشا، لا يهتمّ به الاّ قلّة قليلة من المهوسين بالأدب والفنون اذا ما قارنّاه باختصاصات أخرى مثل الميادين الدينية واللّغوية التي كانت لها الأولويّة المطلقة في التدريس بجامع الزيتونة. ولعلّ أوّل من درّس وحفظ مختارات من الأدب التونسي هي المدارس القرآنية أوائل هذا القرن، يقول حسن حسني عبد الوهاب ص5 من كتابه المذكور: «ولم تشأ إدارة الحماية الفرنسية وقتئذ قبول (كتابي: **المنتخب المدرسي من الأدب التونسي**) ضمن الكتب العربية التي تقرأ بالمدارس الحكومية، لكن اصحاب المكاتب القرآنية الحرّة احتضنوه وأقبلوا على تلقين قطع مختارة منه لمن كان لنظرهم من صغارنا حيث راق منهاجه، فشاع رواجه.»

فالأدب التونسي لم يدخل المختارات الرّسمية الآمنذ حوالي ربع قرن فقط. وكان عدد المشائخ الأدباء بجامع الزيتونة ممّن يلقّنون الأدب التونسي قلّة قليلة ينظر اليهم كشواذ ولعلّ أشهرهم: معاوية التميمي المتوفّ سنة 1944 ومحمد العربي الكبادي المتوفّ سنة 1961(13).

وكان لا بد من استقلال تونس حتى نرى الأدب التونسي يدرّس رسميا ويأخذ حيّزا مهماً ضمن ما يخصّص من ساعات للأدب العربي.

ج - فلفظ «التونسي» له مفهوم دقيق يرتبط أوّلا باتخّاذ مدينة تونس عاصمة سياسية للبلاد، ثمّ هو يتدقّق أكثر منذ بروز دول مستقلة عن الخلافة العثمانية ويزداد هذا اللّفظ وضوحا منذ عهد الإستعمار وبدء محاولة التونسيين فرض الذات واظهار ما لهم وكانت احدى مظاهر ذلك التعريف بالأدب التونسي وتدريسه.

د - ولكن لفظ التونسي منطقيّا لا يمكن ان نقصره على هذه الفترات

التاريخية بالذات ولا بدّ ـ ان كان المقصود بـه هـذه الأرض وهـذه التربـة المباركة ـ أن نمدّ في مفهومه التاريخي والزماني الى اقصى الحـدود، اي الى ظهور اول حركة فكرية وأدبية في هذه البلاد منذ البربر وقرطاج (وإن كانت آثارهم الادبية ـ والتي وجدت لا محالة لم يصلنا منها أي شيء) وعلى كلّ لا بدّ من توسيع مفهوم «التـونسي» الى العهد الروماني على أقلّ تقـديـر والى الإنتاج الادبي لتلك الفترة ـ وهو انتاج مهم كما و كيفا، لا يزال يـدرس الى اليوم ويترجم (14) .

وهذه اشكالية كبرى لا بدّ من طرحها هنا ولا بدّ من التداول فيها ولا بدّ من ايجاد حلّ لها، لانّها تمثّل، حسب رأيي عقدة كبيرة تحـول دون تطـوّر نفسيتنا ودون تألق انتاجنـا، وهي دعـوة لتجـاوز المـدلـول الضيق لكلمـة «التونسي» والرجوع به طبعا الى ما قبل بروز الدولة الحفصيـة أي الى عهـد الفتح الإسلامي والى عصوره الزاهرة الأولى بالقيروان، **لأنّ أدبنا التونسي ادب عربيّ اللسان قبل كلّ شيء.**

ولكن وبعد التأكيد على هذه الحقيقة الاولى، لا بدّ لنا من توسيع مفهـوم الادب التونسي واطلاق هذه الصفة على ما يمكن أن نسمّيـه الادب الجـاهلي التونسي وان كان هذا الادب ـ خلافا للادب الجاهلي العربي ـ مكتوبـا بلغـة غير العربية، ونحن حين نقوم هذا المقام وندعو لهذه الفكرة فتماشيا مع مـا قامت به أجزاء أخرى من وطننـا العـربي الكبير (14 مكرّر) والتي تبنّت آداب شعوبها التي برزت قبل التعريب وقبل الفتـح الاسـلامي وكمثـال على ذلك العراق الشقيق الذي تبنّى الآداب السومرية والاشورية والبـابليـة وعـربهـا وحلّلها ودرسها واستفاد منها ولعلّ أبـرز مثـال على ذلك **ملحمة قلقامش الخالدة.**

ولنكن واضحين جدّا فدعوتنا هـذه لا عـلاقـة لهـا البتّة بتلك الـدعـوات المشبوهة ضدّ الاسلام وضدّ العروبة، فهي ليست دعوة «قرطـاجنيـة»، ولا دعوة «فرعونية»، ولا دعوة انعزالية قطرية، مثل دعوة «اللبننة» التي يـدعـو اليها سعيد عقل وأشباهه وهي كـذلك ليست دعـوة «بـربـريـة»، فكلّ تلك الدعوات تهدف فيما تهدف اليه الى الانغلاق والى ضرب معطيات حضارتنـا العربية الاسلامية التي تبقى هي الاساس وهي الجوهر. ولكنّها دعـوة ذات بعدين اثنين:

ـ **مصالحة مع الذات ومع التاريـخ**، وتجاوزا لعقد آن الاوان للتخلص منها وقد مرّ عهد الاستعمار المباشر الذي كان يدعو كذلك لامور مشبوهـة، وكـان من الطبيعي التصـدّي اليـه وكشف خلفيـاتـه والتشبّث بهــويتنـــا الاسلامية العربية.

ـ وثانيا: تماشيا مـع **مقتضيات عالمية الادب** والتفتّح على كلّ الثقافات والحضارات واللغات كضرورة حياتيـة لا بـدّ منهـا، ومن ذلك **التفتّح على مـاضينـا وهضمـه ودراستـه وتـرجمـة آثـاره والاستفـادة منهـا** ـ والحضارات الغربية كلّها قامت وتقـوم بـذلك ـ مـع الحـذر ومـع ضرورة تجاوز كلّ الدعوات المشبوهة خصـوصـا ونحن أمـام تحـدّ كبير يتمثـل في الاستعمار الجديد أو الامبريالية واحـدى مميّزاتهـا هي الهيمنـة العـالميـة بدعوى هضم وتمثل كـل الحضـارات البشريـة السـابقـة. ولا بـدّ اذن من مزاحمة الكبار في هذه النقطة بالذات وفي هضم آدابنا القديمة بأنفسنا (15).

هـ ـ هناك إشكالية أخرى تخص لفظ «التونسي» اذ يجب منطقيا مـدّه الى ما يكتب حاليا بغير اللغة العربية وبالاساس باللغة الفرنسية.

ونحن وان كنّا في اتحّاد الكتّاب التـونسيين، لا نشترط الكتـابـة بـاللغـة العربية للانضواء ضمن الاتحّاد، فانّه يجب التاكيد هنا أنّ اعتبار ما يكتبـه التونسيون بغير اللغة العربية، أدبا تـونسيـا، يجب أن لا ينسينـا أنّ الادب الاهمّ ـ فعلا وكماً وكيفا ـ هو ما يكتب باللغة العربية وأنّ «تسامحنا» مـع مايكتب بغير اللغة العربية انّما يدخل ضمن نظرتنا الواسعة للادب وللأدب التـونسي خـاصـّة وأنّه ليس بتـاتـا من بـاب ازدواجيـة اللغـة والانتـمـاء والتفكير.لأنّه من الاهمية بمكان أن نؤكّد مجدّدا أنّ **أدبنا التونسي هو مـا يكتب بالعربية** ومـا يكتب منـذ الفتـح الاسـلامي ولكن **لا بـدّ لنـا من توسيع هذا المفهوم زمنيا ولغويًا في محاولة منّا لتبنّي طاقات كلّ أبناء تونس قديما وحديثا** وذلك تماشيا مع النظرة الجديـدة في الآداب ألا وهي نظرية عالميّة الادب والتي بدونها لا يمكن لأي أدب أن يتطور أو يؤثّر. (هنا تمطيط التسمية كذلك للأدب الشعبي).

III) الادب التونسي وعقدة الشرق:

1 ـ ونحن نتحدّث عن واقع الادب التونسي، لا بدّ لنـا من التـوقّف ولـو بسرعة عند هذه العقدة الاخرى والتي تعرقل مسيرتنا الادبية وتجعل نقّادنا وحتّى منتجينا ينظرون لانفسهم وللآخرين من هذه الزاوية بالـذّات أي من خـلال نظـرة الشرقيين العـرب اليهم ومن خــلال حكمهم عليهم وتقييمهم لاعمالهم.

وهذا «الواقع» ليس حديثا، فقد تعـرّض اليـه القـدامى من أفـارقـة ومن أندلسيين (16) يقول ابن بسّام في هذا الصدد (17).

«وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري، وتتبّع محاسن أهـل

بلدي وعصري، **غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة**، وتصبح بحاره ثمادا مضمحلّة، مع كثرة أدبائه، ووفور علمائه، وقديما ضيعوا العلم وأهله. ويارب محسن مات احسانه قبله، **وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان، وخصّ أهل المشرق بالاحسان؟»**

2 ـ ونحن لا نزال اليوم نعيش هذا الواقع، قبل الشابي وبعده. وان كانت هناك بعض الدعوات لتجاوز هذه العقد سواء من طرف المشارقة أو المغاربة. فاهتمام المشارقة عموما بالادب المغاربي بقي دون المأمول سواء قراءة أو نقدا وان كانت هناك استثناءات ولكنّها قليلة (18).

فالشكوى من الشرق من طرف الادباء التونسيين قديمة متواصلة رغم بعض الفصول التي كتبت عن انتاجهم ورغم بعض الاسماء التي اهتمّت بالادب التونسي.

ولكن النظرة الشرقية تبقى دائما في أغلبها متعالية متجاهلة. وعلى سبيل المثال نذكر بأهمّ ما جاء في استجواب الشاعر العراقي حميد سعيد (قبل أن يصبح أمينا عامًا لاتحّاد الكتّاب العرب) من طرف أبو زيّان السعدي والتي قال فيها: «السياب جوهر.... و أدونيس حالة عارضة... والشعر التونسي رافد مهمّ.» (19)

وهذا الموقف يدلّ بوضوح عن مدى تنازل أشقّائنا العرب، فهم رغم اعترافهم بأهمّية انتاجنا يبقوننا في مرحلة دنيا، في مرحلة تابعة.

صحيح انّه «ليس من السهل أن يزحزح أديب تونسي الساحة العربية ويدفع بها بأكملها الى التصفيق له والاعجاب به.» (20) ولكن الموقف الشرقي لا يزال في معظمه موقف اللامبالاة أو موقف المشكّك في قيمة ما تنتجه ساحتنا.

ونحن في تونس، تجاوزنا عمليا ـ لا نفسيًا ـ الشابي وانتاجه ولنا اليوم أسماء يمكن أن نفخر بها وهناك «مشاريع شعراء» قد يتجاوزن الشابي وعبقريته.

3 ـ فنحن أدبيا وشعريا بالخصوص بصدد تجاوز عقدة الشابي وعقدة الشرق لاقبال شعرائنا على رصد الساحة الشعرية لا العربية فحسب وانّما كذلك العالمية وبصورة مباشرة أغلب الاحيان. وهذا من شأنه أن يبلور مدرسة مغاربية وتونسية تجدّد الادب العربي برمّته.

ولكن هذا يتطلّب لا محالة مواصلة المجهودات المضنية من «أجل أدب رفيع يقنع الآخرين ويجعلهم يغيّرون نظرتهم نهائيا» (21)

وهذا يتطلب قراءة أدبنا ونقده والتعريف به وتحبيبه ونشره ورصد الجوائز المهمة الى كتّابه وذلك بصورة منتظمة حتى نتجاوز عقدة احتقار

الذات والتي تنقص من قيمة كل ما ننتج بل يذهب بعض أصحابها حتى الى انكار وجود «أدب تونسي» اطلاقا.
وما تعرّضنا هنا لعقدة الشرق الاّ استقصاء لواقع الادب التونسي الذي لا يراه بعضهم ـ هنا في تونس الاّ ـ من خلال نظرة الآخرين اليه وبالخصوص نظرة اخواننا المشارقة اليه وتقييمهم له وشهادتهم فيه ـ فلايستحسنون الاّ ما استحسنوا ولاينوّهون الاّ بما يحمل شهادة استحسان شرقية وكأنهّم لبسوا نظارات شرقية لا يستطيعون بغيرها حكما ولا يريدون لها بديلا.

IV) الادب التونسي والترجمة:

1 ـ كثيرا ما نضطرّ عند محاولة تقييمنا لادبنا التونسي، الى اللجوء الى صورة أدبنا في أعين الآخرين. وبعد استطلاع رأي اخواننا المشارقة فينا، نلجأ الى رصد صورة أدبنا لدى الامم الاخرى والغربيّة منها بالخصوص.
لقد جاء في مداخلة عبد الوهاب الدخلي في الندوة الدولية المنعقدة في الحمامات تحت عنوان: **الترجمة وحوار الثقافات** أنّه أعدّ **دليلا بيبليوغرافيا** لما ترجم من الادب التونسي بتكليف من المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات ـ **بيت الحكمة** وهذا الدليل هو رصد واقع الترجمة للنصوص الابداعية التونسية وقد احتوى الدليل على «معلومات بيبليوغرافية تتعلق ب 137 كاتبا تونسيا نقلت أعمالهم عن الاصل العربي أو الفرنسي الى اللغة العربية أو احدى اللغات الاجنبية ونشرت على حدة في شكل مؤلّف مستقل أو ضمن انطولوجيا أو في احدى المجلاّت المتخصّصة أو حتّى المجلاّت الجامعية أو الجرائد أحيانا.
وقد أمكننا احصاء **645** نصّا تتراوح بين النّص النثري أو الشعري القصير الذي قد لا يتجاوز أحيانا الفقرة أو الصفحة الواحدة وبين المجموعة الشعرية الكاملة أو الكتاب المفرد «ومن بين الـ 645 نصّا، لا نجد الاّ 17 كتابا مفردافقط.
ونجد نصوصا تونسية ضمن 37 انطولوجيا، قد لا تحتوي بعضها الاّ نصّا تونسيا واحد، في حين تجاهل العالم الانكلوسكسوني وجود الادب التونسي ـ ونصف هذه النصوص المترجمة هي الى الفرنسية وأغلب النصف الثاني الى لغات البلاد الاشتراكية الشرقية.
2 ـ وهذا العدد من المترجمات ـ وان كان مهماً نسبيا لانّه تمّ خلال الـ 20 سنة الماضية ـ يجب أن لا يغرينا ويغرّنا، فهو شيء قليل يدلّ بكلّ

وضوح أنّ أدبنا التونسي يكاد يكون مجهولا تماما على الساحة العالمية **مقارنة بأدب** بعض بلدان الشرق كمصر وفلسطين بالخصوص ومقارنة بأدب أوروبا الشرقية وأمريكا اللاّتينية وأدب اليابان والهند والأدب الافريقي المكتوب بالانكليزية والفرنسية.

فالادب التونسي الحديث مجهول تماما في بلد مثل جارتنا ايطاليا بشهادة المترجمة ايزابلاّ دافليتو التي في ندوة الحمّامات المذكورة وكذلك في ألمانيا الغربية بالخصوص (20) **فادبنا التونسي الحديث يشكو حاليا من غربتين، غربته في دياره** من قلّة الاقبال عليه شراء ومطالعة ومن موقف بعضهم **الذي لا يقيم لـه أي وزن ومن غربته خارج تونس سواء في المشرق العربي** أو في بلدان العالم.

V) آفاق الادب التونسي:

إنّ هذه الصورة القاتمة لصورة الادب التونسي داخل تونس وخارجها ليس الهدف منها «تحطيم العزائم» كما يقال بل هو وصف دقيق للواقع بدون مجاملة وبدون مبالغة وبلا رتوش. لأنّ الوصف الدقيق لحالة ما شرط ضروريّ لبناء تصوّر سليم للمرحلة القادمة.

لقد كان الادب التونسي غريبا في جامع الزيتونة منذ نصف قرن، وغريبا في بلادنا زمن الاستعمار الفرنسي المباشر، ولقد بذلت جهود مشكورة لتدريس هذا الادب في تعليمنا بمراحله الثلاث وألفت الكتب الشيقة لذلك لتحبيب الادب وجعله ضرورة حضارية ترقّي الذوق والفكر معا (21).

ولقد بذلت الجامعة التونسية وقسم العربية بكلية الآداب بتونس مجهودا في هذا الباب قوامه الايمان بالادب التونسي وبدوره الحضاري وذلك من خلال ما يخصّص لهذا الادب من دروس في مراحل التعليم العالي كلّها وبالأخصّ في اشراف أساتذة هذا القسم على بحوث جامعية بمستويات مختلفة.(22)

وخارج الجامعة لا بدّ من الاشارة بدور بعض المجلاّت والجرائد والمؤسسات في خدمة الادب التونسي ونذكر من ذلك مجلاّت **المفكر** و IBLA **والحياة الثقافية وقصص** وغيرها... مثل **الإتحاف والمسار**.

2 ـ ولكن كل هذه المجهودات تبقى غير كافية اذ لا بدّ أوّلا من مواصلتها ودعمها والاكثار من مثيلاتها ولا بدّ من طول النفس لهذا الادب «الناشىء» رغم جذوره التاريخية العميقة والتي بقيت بدون تأثير كبير على ما ينتج حاليا وذلك لعدم **تواصل أمر الادب والفكر في بلادنا في أحقابه المتلاحقة**.

ولعلّ تقييم Jean Fontaine† للانتاج الادبي التونسي في عهد الاستقلال

يؤكد ما ذهبنا اليه، يقول: (23) (ص 179).

« من الملاحظ أن الانتاج الادبي كان من حيث الحجم في درجة الصفر سنة 1959 (ثمّ) تحرّك النشر... انّ التوّجه الليبرالي في السبعينات... لم يصاحبه انفتاح في مجال الانتاج الادبي. لقد بقي الانتاج يدور حول 20 مؤلفا في السنة وبدأ الاعياء يدّب الى التيار القصصي الواقعي وبدا الشعر متثاقلا... في حين كان البلد يعيش ساعات عصيبة، يبدو الاديب كمن أفلتت من يده الامور أو كمن يهرب لينجو بنفسه من هذا الواقع المرّ. هل في هذا تفسير لاهتمامات مدرسة الشعر في القيروان وهي مدرسة تميل الى النصوص الصوفية، ولطريقة كتاب القّصة الجدد السلفية؟»

أمّا هشام جعيّط فيشكّ في امكانيات نبوغ العرب في الميادين الابداعية والادبية، يقول (24) (ص 48).

«الشعر والفكر هما سمات الثقافة العربية وليس الابداع الادبي الخيالي – ليست الثقافة العربية القديمة – سوى في المستوى الشعبي المكبوت – ثقافة خيالية، بل هي ثقافة جامعية وعقلية.

«وبما أن التقليد الثقافي يسيطر على مناهج الابداع فلا أرى أنّ عرب اليوم سينبغون في الميدان المسرحي أو في الميدان الروائي أو في ميدان الفن الكلاسيكي، بل في ميدانهم المعهود الذي كانوا يسمّونه علما وحكمة ونسمّيه اليوم: علوم انسانية – علوم اجتماعية، تفكير شمولي يتّسم بالعمق...»

وهذا الرأي أقّل ما يقال فيه أنه فيه نظر.

VI) الخاتمة:

1 – نعم، لانّ واقع أدبنا التونسي اليوم وان كنّا في أغلب مظاهره نستشفّ الجوانب السلبية فانّ به جوانب مضيئة قد يزداد اشعاعها، فهناك أسماء نفخر بها في تونس وخارج تونس على الساحة العربية على أقلّ تقدير:

أ – ففي **المسرح** يمكن أن نذكر عزّ الدين المدني وجماعة المسرح الجدد والحبيب بولعراس.

ب – وفي **القصة الروائية** يمكن أن نذكر المسعدي وعز الدين المدني وحسن نصر ومصطفى الفارسي وفرج لحوار ومحمد العريبي وعلي الدوعاجي والبشير خريف والنالوتي وقيقة (25).

ج – **وفي الشعر:** منور صمادح وعلي اللواتي ومحمد الصغير أولاد أحمد – بجانب الشابيّ طبعا، ومنصف الوهايبي ومحمد احمد القابسي في قصيدة النثر.

د ـ وفي المقالة: الطّاهر الحدّاد ـ عثمان الكعّاك ـ علي البلهوان ـ محمد الفاضل بن عاشور ـ هشام جعيط. الخ...

2 ـ وكل هذه الاسماء أعطت للادب التونسي نكهته الخاصة التي عمادها الالتصاق بالواقع الشعبي المعاش في الارضية العربية الاسلامية كاطار حضاري ولكن بأشكال فنية متقدمة تستلهم تراثنا الفكري والادبي وفي الآن نفسه تنحو منحى الاساليب والاجناس الادبية الغربية التي عاشرها كتّابنا وعرفوها من الداخل وفي لغاتها، فاعطوا تجاربهم عمق الصدق وقمة الابداع الفني شكلا وتركيبا. وهذا الجانب لم يدرس حسب رأينا بما فيه الكفاية ولعلنا نجد فيه ما يميّزنا عن تجارب اخواننا المشارقة الذين كثيرا ما يطلعون على تجارب الغرب الادبية عن طريق الترجمة المتسرّعة.

فلأدبنا التونسي مذاق وذوق متفرّد ـ رغم كمية انتاجنا المحدودة ـ ولعلّ لاحتكاكنا بالغرب ولدور الاستعمار دور في ذلك.

3 ـ ويبقى مع هذا للأدب التونسي وللمثقف التونسي دور مهمّ وكبير لرفع التحدّيات الكثيرة التي أشرنا اليها آنفا حتى يواصل المشوار الادبي رغم كثرة العراقيل وتنوّعها وذلك من أجل فرض الذات وفرض الادب التونسي خارج بلادنا وداخلها بدون مركّبات وبلا عقد (لا غرور ولا احتقار للذات).

ولعلّ أهمّ تلك التحديات تمكن في فرض حرية الكلمة وحرية النشر في بلادنا (26) وهذا يتطلّب نضالا متواصلا من أجل فرض مكانة حقيقية للكاتب في تونس تقيه الحاجة المادية أوّلا وتجنّبه الاحتياج للالتصاق بظلّ السلطة ثانيا وتمكّنه من حرّية الكتابة والنشر والنقد ثالثا ـ وتلك هي الشروط الاساسية الضرورية والتي بدونها لن يكون لنا الادب الذي نطمح اليه فاعلا في الداخل، مشعًا في الخارج ومساهما في الحضارة الانسانية.

جلول عزونة

الهوامش:

1) نجد هذا المعنى بالذات ولكن على مستوى آخر في القرن السابع عشر المسيحي وفي فرنسا: فالـ †honnête-homme، اجتماعيا، هو المثقف العام والذي هو على علم بكلّ ما يجدّ في المجتمع، وفي المجالس والذي باستطاعته التحدث ولو بكشل عام في كل المواضيع.

2) ـ J.P. Sartre: Quest-ce que la littérature? Dans Situations II - paru en 1948 - Le texte de Sartre a été publié la première fois en 1947 dans Les Temps Modernes; Sartre y étudie la place, le rôle et le statut de la littérature dans la société.

3) ـ "Ecrire c'est à la fois dévoiler le monde et le proposer comme une

tâche à la liberté du lecteur.

4) - "Toute technique renvoie à une métaphysique

انظر مقال: Situation† ضمن كتاب:

Dictionnaire des œuvres contemporaines - 1967 - p. 669 à 671.

يقول سارتر:

"Ecriture et lecture sont les 2 faces d'un même fait d'histoire, et la liberté à laquelle l'écrivain nous convie, ce n'est pas une pure conscience abstraite d'être libre. Elle n'est pas, à proprement parler, elle se conquiert dans une situation historique; chaque livre propose une libération concrète à partir d'une aliénation particuliere".

(Folio - Essais - N°19).

5) جاكو بسون يلّح مثل الشكلانيين الروس على الوظيفة الشعرية للغة.

6) انظر كتابه: **نقد النقد** - ترجمة د. سامي سويدان - مركز الانماء القومي - بيروت. انظر عرضا عنه بمجلة: **آفاق عربية** - ع 6 - حزيران - 1978 ص 156 و 157 .

7) انّ موقف تودوروف قريب من موقف سارتر وكذلك من موقف † kunderaالذي يذهب الى انّ الادب ليس الأمحاولة للاماطة عن «جانب مجهول من الوجود الانساني».

8) طبع لأوّل مرّة سنة 1869 (304 ص) وكانت طبعته الثالثة بتونس تحقيق محمد شمّام - 1967 (المكتبة العتيقة - 374) وترجمه بالفرنسية كل من Pelissier و Remusat تحت عنوان: Histoire de l'Afrique et de Tunis - Paris 1845 (XIX- 517 p.)

9) طبع الدار التونسية للنشر بتحقيق محمد الحبيب الهيلة - سنة 1970 في اربعة اجزاء. وطبع مرة ثانية بدار الغرب الاسلامي في 3 اجزاء سنة 1985.

10) تحقيق الدكتور محمد الهادي الغزي - المكتبة العتيقة - 1973 - 484 صفحة.

11) لا يزال مخطوطا «بالخلدونية» عدد 3261 - وهو جزءان. كتبه صاحبه سنة 1978 وبه تراجم 80 شاعرا مع أبيات مختارة لكلّ واحد منهم.

12) طبع ثانية بالمطبعة الأميريّة بالقاهرة باذن من طه حسين سنة 1944 وطبع بالمنار بتونس - طبعة ثالثة تحت عنوان: **مجمل تاريخ الادب التونسي** (1968) - 360 صفحة.

13) انظر: **العمل الادبي** - 87/7/30 - ص 7: «**انطولوجيا الشعر التونسي: كيف ولماذا؟**».

وانظر كذلك كتاب: محمد الحبيب: **قطع مختارة من الادب العربي** (مقرّر السنة الابتدائية بالفروع الزيتونية العامرة) - الطبعة العاشرة - 1370 ه 1951 م - مطبعة الشريف - تونس - حوالي 115 صفحة - ونجد به قطعا مختارة لبعض الادباء التونسيين نذكر منهم: الشاذلي خزندار - ابو الحسن بن شعبان - مصطفى آغة - الباجي المسعودي - محمود قبادو - الطاهر بن عاشور (المتوفى سنة 1284 ه) - حمّودة بن عبد العزيز - محمد الورغي - علي الغراب - الشهاب بن مخلوف - ابن سعيد المغربي - ابن أبي الحسين (توفي سنة 671 ه) تميم بن المعزّ الصنهاجي - ابن رشيق - أبو الحسن القابسي - ابن شرف - ومحرز بن خلف....

14) انظر مقالنا: **في بدايات القصة التونسية: المسوخ لا بيلوس أوّل رواية في العالم. الايام** (جريدة) الخميس 2 و 9 جويلية 1987 - ص 16.

(14 مكرّر) انظر كتاب: 43**الادب العربي، تعبيره عن الوحدة والتنوع** الصادر أخيرا عن مركز دراسات الوحدة العربية.

15) انظر المقال المهمّ جدّا حول ظهور فكرة عالمية الادب بقلم د. فوزي بوبية وهو بعنوان:

الادب العالمي واشكالية الغيرية †(altruité? alteritat)مجلة الثقافة العالمية (الكويت) عدد 35 ـ يولية 1987 من ص 144 الى ص 173 وهو حول مفهوم جوته للعالمية في الادب (كتب المقال أصلا بالالمانية سنة 1985 ـ

15) ـ لعلّ هذا ما دفع ابن بسّام لتأليف موسوعته : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ـ 3أجزاء ـ تحقيق د. احسان عبّاس ـ الدار العربية للكتاب. 1975 ـ

17) الجزء الاول ـ ص 12، توفيّ ابن بسّام سنة 542 هـ ـ

18) انظر حول هذه النقطة ما جاء بمجلة الدوحة القطرية: **من أجل تفاعل بلا عقد بين المشرق والمغرب** ـ مارس 1986 من ص 6 الى ص 9 ـ بقلم د. محمّد جابر الانصاري. (وفي المقال يشكو اهمال المشارقة لادب دول الخليج) وكذلك وبنفس العدد مقال فهمي هويدي: **عريضة اتهّام مغربية ضد المشارقة من ص 10 الى ص 13**

انظر حول نفس الموضوع ما جاء في **الفكر** س 23 ـ ع 8 ـ ماي 1978 ص 131 وفيه حديث عن جمعه شيخه واهتمامه بمؤتمرات أدباء العرب ويبدو أنّه اعتمد فقط على المجلاّت الشّرقية «فوقع في الفخّ الذي نصبوه لأمثاله ولم يطّلع على الرّدود التي كتبت بتونس مواجهة لتجنّي بعض اخواننا في المشرق».

وانظر كذلك افتتاحية البشير بن سلامة لمجلة **الفكر** بعنوان: **لا أستاذ سهيل** (ص 25 ـ ع 6 ـ مارس 1980).

وانظر كذلك مقال محمد الحبيب السلاّمي بجريدة **الصباح** ـ **المشارقة لا يعرفون المغاربة**، حول مفهوم الاجتهاد وشروطه وعدم اطّلاعهم على رأي الطاهر بن عاشور.

19) انظر المقابلة بجريدة **الصباح** ـ **25 أفريل 1981** ص 13 ـ

20) من مقال لمحمد بن رجب، ظهر أخيرا بالصباح تحت عنوان: **الادب التونسي والشكوى من الشرق** (ص 9ـ 1987).

21) نفس المصدر السابق ـ وانظر كذلك كتاب حنّا الفاخوري الذي شعر لا محالة بطمس دور المغرب العربي في تاريخه للادب العربي فألّف كتابا خاصّا بمنطقتنا سمّاه: **تاريخ الادب العربي في المغرب** ـ المكتبة البوليسية ـ لبنان ـ ط 1 ـ 1982 ـ 606 صفحة

22) انظر ما جاء عن هذه الندوة **بالعمل الادبي** ـ بتاريخ 30 جويلية 1987 صفحتي 4 و 5 وبالخصوص المقتطفات المأخوذة من مداخلة عبد الوهاب الدخلي والتي كانت بعنوان: **الادب التونسي الحديث والمعاصر المترجم الى اللغات الاجنبية ـ الواقع والآفاق.**

23) انظر الحوار الذي أجرته أحلام الساحلي مع المترجم المستشرق هرتمورت فاندريس ـ **العمل الادبي 1987/7/30** ص 5.

24) نذكر من هذه الكتب ما يلي كنماذج وليس للحصر:

أ) نصوص ادبية (السنة الخامسة) ـ منشورات الديوان التربوي ـ 1963

ب) **نصوص تكميلية في الادب التونسي** (السنة الرابعة) لتوفيق عاشور 1970 ـ (148ص)

ج) **القطوف الدانية** لمحمد فرج الشاذلي وغيره ـ (السنة السادسة) (332ص)

د) **الممتع الادب**: لاحمد خالد وأحمد الشابي ـ (السنة الخامسة) الجزء الاول مخصص للادب التونسي ـ 1973. (574 ص)

25) انظر: **دليل الرسائل والاطروحات التي نوقشت بكلية الآداب والعلوم الانسانية بتونس الى حدود سنة 1985.** (جزءان). وبعد احصاء سريع نرى أنّه خصّصت عشرات الدراسات لتونس ولمظاهر عديدة من الحياة الفكرية والادبية والاقتصادية والسياسية لبلادنا فهناك حوالي 100 شهادة كفاءة في البحث وحوالي 10 أطروحات مرحلة ثالثة (شهادة التعمّق في البحث) وأطروحتان دولة (2) وتسع أطروحات دولة بصدد الاعداد وكلّها تبرز دور بلادنا الفكري والادبي.

26) جان فونتان: **فهرس تاريخي للمؤلفات التونسية** ـ أعد النص العربي حمّادي صمّود. نشر بيت الحكمة ـ 1986 ـ 291 صفحة ـ (انظر سلسلة مقالات أبو القاسم كرّو في **العمل الادبي** حول الاستدراكات الضرورية على هذا الكتاب ـ بداية سنة 1987)

27) مقال: **الانتاج الفكري العربي منذ عشرين سنة** ـ مجلة **فكر وفن** (ألمانيا) عدد 42 ـ سنة 1985 من ص 42 الى ص 49.

28) انظر محاضرتنا التي قمنا بها ضمن الايام القصصة التي نظمها اتحّاد الكتاب التونسيين في شهر مارس 1987 تحت عنوان: **تطّور الفن القصصي في تونس**. (20 صفحة مع بيبليوغرافيا مستفيضة).

29) ظاهرة جديدة برزت في (1987) ببلادنا وتتمثل في منع نشر الكتب ـ فقد بلغ عدد الكتب الممنوعة والمحجوزة حوالي 7 كتب ـ كما منع بيع حوالي 7 كتب في معرض الكتاب (شهر ماي 1987) ـ وهي ظاهرة خطيرة لا بدّ من التصدّي اليها ـ انظر مداخلتنا في اللقاء السوفياتي التونسي ـ موسكو ـ سبتمبر 1986 ـ **الحرية في الادب القصصي التونسي** ـ (نشرت في مجلة قصص).

وأدبنا يبقى ينتظره مستقبل زاهرا لا محالة وقد عرف أسماء لامعة من قبل كابيلوس والقديس أغسطينوس وعلي الحصري الذي يعد شعره «آية من آيات الفن البشري لا العربي فحسب» (الشاذلي بويحي) وابن خلدون ـ وابن رشيق وابن الخلوف والشابي وغيرهم.

شعر

حروف الجرّ تعوي ثلاثا

محمد فوزي الغزي

... جسدي الآن
غيم ينتسج في حفيف يديك
يحبل بالمطر من رأسي
وينحل بين أصابعك
محنة من ايات السكن واللباس
تشاغب عند تخومك
ليل الحراس
تغري بالعشب
رمل ادانيك
ثمّ تنفذ منك الى اقصاك...
الآن اضرم فيك آخر الغامي
املا من اسماك الفضة
اشواقي النحاسية
واعود الى عرشي
بين الماء الممكن ويديك
الهة من بيض وسحر معمى...

* * *

أنا طوق العوسج الفاتن
ومراس الخيال الذي
لا يعشب الآخر في حجري
ورمال البوح الذي
لا تعرف روحك الا اذا

صارت ناقة لازدهاري
متى انقدحت فيك اشجار الغفران
من عسس العرش
حتّى اعتى الشياطين
واسترخى نبض الأرض في جسدينا
نهرا يصعد بين ضفاف اللقيا
ثم يؤول الى عقده من مد وجزر
في طرفي الافعى...
هناك،، يجلو حشاءه بين تلك المرايا
ويزكى
قبل ان تترشفه
جبة ملح ولهى
ثم تجلسه في مرمى انكساري
بين مذاق الشمس
واخلاق السهر والحمى

* * *

هذي ساعة بسطي
سفائن من فضة وبهار
فلا تجعلني مغلولة في الكلام
«وتقعد كالمحسورة»...
لنا الليل...
ذاكرة ذئب بيضاء
تكن خراف المصباح...
فانزع عناد صفات النهار وأوزارها
هذا الجسد الحلم
ترنيمه من خرير الروح
متى غزلتها خيوط الصباح
تلبست الكلمات بها
فكان صداها غزالة رمل وريح
ترميها بنبال المعنى
فلا اشواق الكنانة تفني
ولا كلمها يدمي...

محمد فوزي الغزي

شعر

عَلَى خَبَب

عزيز الوسلاتي

احتمال

لَوْ عَلَى شَفَتي جَفَّت الكَلمَاتْ
كَيْفَ للماءِ أنْ يُضْرِمَ الجَمَرَاتْ؟

لَوْ عَلَى شَفَتي جَفَّت الكَلمَاتْ
كَيْفَ للجمْرِ أنْ يُطفِىءَ القَطَرَاتْ ؟

خُذْ إذَنْ جَسَدي يَا لهَيبَ اللُّغَاتْ
وَتعَالَ نَغُصْ فِي ميَاه الدَّواةْ !

قوس قزح

قَوْسٌ سَألَ :
أنّى لَكَ يَا قُزَحِي هَذي الألْوَانْ ؟
قُزَحٌ قَالَ :

سَلْ نَبْلَكَ مَغْرُوسًا فِــي قلب الدُنْيَا
سَلْ يَا قَوْسِي دَمْعَ الأَزْمَانْ !

الورقة وَقطرة النّدى :

اهْطلِي مَدَدًا في الفُؤاد الوجيفْ
امْلأِي مُهْجَتِي بالصَّيَاحِ الرَّهيفْ
أَسْكُنيني هَوًى يَا هَوَايَ الأليفْ
وَإِذَا مَا الزَّمَانُ تَرَاءَى شفيفْ
رَاقصيني عَلَـى وَتَرٍ مَنْ هَفيفْ
قَبْلَ أَنْ تَبْتَدِي قـدَمٌ للخَرِيفْ

عزيز الوسلاتي



قصة قصيرة

القفص

علي العباسي

«مغازة البركة»...

يعترضك هذا الإسم وأنت تنعطف قبالة جامع الباشا لتنحدر عبر «الأسواق» نحو باب النّصر ـ يعترضك، ورغم عجلتك، لا تَمُرّ دون أن تجيل بصرك في حروفه الكبيرة العريضة المكتوبة بلون أحمر قانٍ يزداد حمرة كلما اشتعل النور الكهربائي وراء البلور المحيط به.

إنّها أجمل المغازات تقريبا في المدينة العتيقة، يؤمّها السائح العربي والغربي والتونسي النازل في العاصمة إذا كان من العارفين. وصاحبها من أثرياء «البلاد العربي»، وقيل أنّه أثراهم على الإطلاق، وهو الشيخ الورع المعروف كالعلم، حامد الباشطبجي الذي حَجّ بيت الله الحرام سبع مرّات، ثمّ اعتزل في ضاحية مرناق وتنازل عن جلّ أملاكه لولديه. لذلك كتب اسم المغازة بهذه الصيغة. مغازة البركة للأخوين السّعيد وحامد الصغير.

× × ×

خرج حامد الصغير من الدار كعادته ومشى بتُؤدة وهو يُفَكِّرُ. فالسعيد لم يرجع إلى البيت الليلة المنقضية، وقد يستحيل اليوم فتح «مغازة البركة» والحانوت الصغير في آخر رواق «القرانة» معا. ودون أن تدري وجد نفسه يحاذي جامع الباشا ثمّ يقف مشدوها أمام المغازة، يحملق في الستار الحديدي وقد بدا بدون أقفاله الخارجية. أحس بدقات قلبه تتسارع وتوجّس شرّا: هل أستهدف المتجر إلى السرّقة؟

إنهمك في رفع الستار وهو يردّد وجلا: «يا ساتر، يا ساتر، اَللّهمّ سترك، اَللّهمّ سترك». ولما دفع الباب البلّوري الدّاخلي صاح كمن شجّ جبينه أو كمن مشى حافيا على الجمر، وجثا يخبط الأرض خبطا ويلطم وجهه بكفّيه.

تجمهر المارّة وبعض من التُّجّار الاجوار ووقفوا كأنما تسمّرت أرجلهم على البلاط. يحققون في المشهد:
المغازة كعهدها، يخالها النّاظر جنّة صغيرة، فالزّرابي التركية والقيروانية تكسو حيطانها وشرفاتها، والطنافس الزاهية تهدي أشكالها وزخرف ألوانها في تنافس عجيب، والاقفاص البيضاء مترّبة أو معلّقة هنا وهناك فتضفي على المكان هيبة الأشياء الكبيرة والطريفة، والثريات العتيقة منها والعصرية تتدلّى من السقف وقد أضاء بعضها الأمتعة المعروضة، فزادها رونقا يوحي بعوالم ألف ليلة وليلة. أما في الوسط، فقد تدلى جسم السّعيد ملفوفا بلحاف أحمر.
لم يمر يوم حتى عرفت الحكاية وتندّر بها التاجر وجاره والنادل وحريفه وحتى إمام جامع الباشا وبعض المصلين.

× × ×

كان السّعيد مثالا للتاجر العربي الأنيق. سواد لحيته وشاربيه ينعكس خلاّبا على بياض قلنسوته وجُبّته. هيئته ومشيته وجلسته وتحيّته... كلّ شيء فيه يبوح بالأصالة والورع والطبع الجميل. ولده الشيخ حامد الباشطبجي فأسعد بولادته، وربّاه فأحسن تربيته وجعله خلفا له، لا تكاد تُفرّق بينهما إلاّ بالسّن. وكان الولد كالوالد. لا يعرف لنفسه طريقا إلاّ طريق المتجر، ولا مزارًا إلا المسجد ولا خلاّنا إلاّ أخاه حامدًا الصغير وزمرة من الشّبان الخاشعين الحامدين، الذين لا يكدّرهم شيء إلاّ دمعة المتسوّل أو تهوّر الفاسق.
وكان أهل الصّنعة في رواق «القرانة» يحبون السعيد ولا يؤاخذونه إلاّ على أستقطاب جل الحرفاء خاصّة من السّياح الاجانب فهو يحذق أكثر من لغة وبساطة كلامه وظرفه تجعل المارّ يدخل الدّكان ويصافح اليد الممدودة، ويشتري أو لا يشتري، ثم يودّع، واعدا بالرّجوع، وكأنّه تعرّف على صديق.
هكذا كان السّعيد سعيدا حقّا بعمله وبجاه عائلته، ومما رزقه الله يأكل.
وقد خطر بباله أكثر من مرّة أنّه غنم الدنيا وعسى أن يغنم الأخرى لأنه «إن شاء الله من الطّاهرين الذين لم يفسدوا في الأرض والذين لم ينظروا إلى أمّة إلا نظرة ظاهرة زكيّة، والذين لا يختانون أنفسهم في أنتظار أن يسكنوا إلى ما حلّل لهم من النّساء».
وقد تُربكه في بعض الأحيان همسة أو ضحكة لا تعنيه، وقد تقع عينه مرّة دون إرادته على زند أنثوي عار أو شعر أشقر تعبث به نسمة الدّهليز الطويل بين جامع الباشا وباب النّصر، أو ما شابه هذا وذاك، فيذكر أنه بشر ويعذر نفسه الأمارة متعللا بأن الله قد يبتلي الصّابرين ولا يخزيهم إذا

استغفروه في ذنب صغير لم يقصدوه أو مكروه يأتونه دون إضمار.

وإذا صادف أن أحسّ بهذا الذنب الصغير أو ذلك المكروه، كلّما أسترجع ذكرى يومه الذي مرّ، وهذه عادته كلّ مساء بعد صلاة المغرب، فإنه يتلو القرآن بين السّرّ والجهر، فيهدأ ما ألمّ به من وخز الضمير. ثمّ أنّه يعمد، هاربا من بعض هواجسه، إلى مساءلة حامد الصغير وممازحته خاصة إذا رآه مهتما بالتلفزيون. ثمّ إن بقي بعض الوسواس ينخر إحساسه المرهف، فالسّعيد يجد في حلقة سيدي الشيخ حالم، بعد صلاة العشاء في مسجد الباشا، ما يثلج صدره. لأن دروس الشيخ حالم كلها وعظ وموعظة تنير عقل الفتى فتطيب له نفسه ويذهب عنها ما استبد بها من الشك. ويعود السعيد إلى المنزل مردّدا بعض مقولات الشيخ التي يحفظها لطرافتها، أو بعض كلماته الساخرة التي تستهدف شخصيات رسمية، أو حتى تلك الأسماء التي يحشرها سيدي حالم في كلامه فتلونه أو تليّنه:

«الفارابي مثلا... ولا تقولوا لبعض شبابنا الطائش: الفأر أبي...»، الجاحظ يا إخوتي في الدين، وسمّي كذلك لجحوظ عينيه... إبن خلدون الذي يسخر من العاربة، لم يخلّد في هذه الدنيا لا هو ولا أبوه رغم الإسم...»

ويبتسم السعيد وهو يستعيد هذه التعاليق أو تلك الإيحاءات التي تقطع في استطراد دائم الحكم والاحكام الدينية في دروس الشيخ حالم، فيزداد تقديره له ويعظم توقه لملاقاته من جديد. وعندما ينام فإنّه لا يعرف الأرق، فعقله نيرّ أكثر من الأمس الدّابر، ونفسه أطيب وأمله أعظم. لذلك كان يحلو له أن يقول مازحا لأخيه حامد الصغير، وهو دونه سنّا وتحمّسا للحلقات الدينية:

ـ ماذا تفضّل يا حامد، اليوم الذي فات أم اليوم الذي هو آت؟ فيجيب حامد، كأنّه جاد وكأنه مداعب:

ـ طبعا البارحة خير من اليوم. أنا نادمٌ مثلاً على عدم إتمام زواجي العام الماضي. ويردّ السعيد بما ينمّ عن وثوقه وتعاليه:

ـ لا، بل إن فضل هذا اليوم كثيرٌ وإنّ غدا لأفضل إن شاء الله. نم يا أخي لا تنس الشّهادة... أو فاسهر مع أغنية: «يا نهار البارح يا نهار اليوم» فلعلّك تجد الجواب الشافي.

وعندما يحكّ حامد الصغير أعلى رأسه كعادته كلّما أحرجه أحدهم، يقهقه السعيد ملء جنبيه ثمّ ينام توّا وقد قرّت عينه.

× × ×

ذات يوم من شهر فيفري وهو شهر كسدت فيه تجارة الأسواق لندرة السّيّاح، كان السّعيد واقفا في باب مغازة البركة يرحب بالمارّة محاولا

استدراجهم إلى الدّاخل. ولمّا أعياه الأمر وضاق من ضياع الساعات دون مبيع يذكر، جلس على كرسيّ وجعل يفرك لحيته رافعا بصره بين الحين والحين نحو من يجود بهم دهليز «القرانة» الخالي. ومن داخل الدكّان المجاور تبادر إلى سمعه صوت من جهاز راديو: «قل للمليحة في الخمار الأسود»... إبتسم السعيد ـ إبتسم ابتسامة اشمئزاز من هذا الفنّ الهابط، وابتسامة إشفاق على الجهلة يقادون إلى النّار من أنوفهم. ورغم الإشمئزاز والإشفاق، لم يملك نفسه عن الإستماع.. وعندما وصل المغنّي إلى: «فسلبت منه دينه ويقينه...» تململ السّعيد في مكانه وتمتم، لعلّه يلعن الشعر والشعراء ومن تبعهم من الغاوين. ثم أطرق إطراقا فيه إقرار وسؤال، فيه رفض وتسليم، فيه ما فيه من صراع الرّوح والجسد أو صراع الملائكة والشياطين، ذلك الصرّاع المرير الخالد في الإنسان.

وأمضى المسكين بقية يومه كدرًا رغم استقرار الحقائق في خافقيه، ورغم ثقته المطلقة في نفسه المطمئنة الراضية. حدثه حامد عن العمل فلم يفهم وسأله عن العشاء فلم يجب، ولاحظ سيدي الشيخ إطراقه أثناء الدّرس فلاطفه وداعبه بأسلوبه الذّكي المعهود حتى باح له بشيء من أسباب كدره:

ـ يا سيدي الشيخ هل يزوغ المؤمن رغم قوّة إيمانه؟

ـ وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله يا ولدي.

ـ صدق الله العظيم، ولكن يا سيدي الشيخ، هل يُحَصِّنُنِي كلام الله من متاع الدّنيا، إن أنا علمته كلّه؟

ـ العلم تحصين ولكنّه يحتاج إلى إنكار العجز وإصرار على الطهر. أعقلها واتكل على الله يا أخي.

ـ وإذا ضعفت نفسي رغم نفسي يا سيدي؟

ـ إنّ باب المكن واسعٌ وسعته لا حدّ لها إذا نسيت من لا تأخذه سنة ولا يأخذه نوم. هيّا يا سعيد اقرأ لنا سورة الفاتحة وسيفتح لك ولنا إن شاء الله باب الفرج.

وبات السعيد ليلته ضجرا بعض الشيء. فهذا الوسواس موسمي في حياته رغم ما يبديه محيّاه من الهدوء الدّائم. وقد كان في ما مضى من الأيام والشهور يتخلّص من براثنه بسرعة، أما هذه المرّة، وقد بلغ من الأعوام العشرين، فقد أحسّ بضغط أقوى، فما إن يبتعد عنه هاجس حتى ينتابه آخر. ومع ترديده طلب اللطف والغفران، قلّ حديثه وتعكر مزاجه وتضاعف تقلّبه في فراشه وقيامه وقعوده أثناء الليل إلى أن ظنّ به أخوه الظنون. وتلظّى على تلك النار أياما حتّى حدث ما سلب السّعيد دينه ويقينه.

كان في متجره يتحادث مع رجل لم يفهم من لهجته ما يريد، وإذا

بسائحين يطّلان عليه. رجل بدين يحمل آلة تصوير وامرأة فارعة القوام، شقراء، قد أخفت وجهها البلوري وراء نظارات سوداء كبيرة. سلّما ودلفا إلى الدّاخل، وفي مشيتهما تيه وارتياح ودلال. ورغم أن السّعيد لم يتعود مصافحة النساء فإنّه لم يستنكف أن يمدّ يده إلى السائحة الجميلة وهي التي بادرته بالتحية ضاحكة مرحة. وأحسّ بتلك اليد مرتخية متريّثة في راحته، فطفح الدّم في وجهه، وكاد ينسى ما حفظه من الألمانية التجارية. ولّما طلب منه صاحب الكاميرا الإذن له بالتصوير، إنْحلّت عقدة لسانه ولبّى الطلب مبتسما، ثم أقتادهما بين أركان المغازة مشيرا هنا ومرحّبا هناك. وظل يسترق النظر رغما عنه إلى مفاتن المرأة حتى شعرت باهتمامه وارتباكه، فنزعت نظاراتها وأرسلت خصلات شعرها إلى الوراء بغنج ولا مبالاة مدروسة. وعندما التقت عيناه بعينيها لم يكن في وسعه أن يهرب كما كان يفعل، ولم ينس نار الغريزة وهي تشبّ في دمه. ولم يتوار وراء عرض سلعه كما كان يفعل مع غيرها من السائحات الجريئات. كان كيانه يجذب جذبا وجوارحه تنصبّ صبّا في ذلك الوجه وتلك المقلتين، فجمد في مكانه كبيقماليون في أوج وجده أمام تمثاله الحي.

وأنتهت الزيارة بعد أن اشترى السائحان قفصا كبيرا وعدا بالرجوع إليه قبل السفر.

وفي اليوم الموالي عادت المرأة لوحدها، وغادرت مغازة البركة بعد ساعة، دون أن تحمل البضاعة. ثم عادت كل يوم والقفص قابع دوما في مكانه، يلازمه السعيد الساعات الطوال حالما منتظرا زائرته، حتى كانت الليلة التي لم يعد فيها إلى المنزل. فقد اختلى ليلتها بنفسه في المغازة وراح يفكر بصوت عال ويحادث أشباحا كثيرة. ولما أذن لصلاة الفجر، كان السّعيد قد تعب من الهذيان والدّوران حول القفص. وفي حركة هيستيرية إنقضّ عليه يكسّره ويصفعه ويركله ويقضم ألواحه حتى دميت رجلاه ويداه وشفتاه. ثمّ توقف برهة يستردّ أنفاسه قبل أن يجلب الكرسيّ واللحاف الأحمر، وقبل أن ينظر إلى السقف كما يفعل عندما يريد أن يعلّق شيئا وكما يفعل عندما يضرع إلى ربه داعيًا مسترحمًا...

× × ×

وبعد أيام الحزن والأسى، حلّ حامد الصغير محلّ أخيه وأجّر الدّكان الصغير. وقيل أنّه أجّل زواجه سنة أخرى كاملة. ربما كان على مضض وربّما كان يعدّ لحياة أسعد من حياة السّعيد.

السبّالة، 15 جوان 1992

دراسة

«مراتيج»: بين الانفتاح والانغلاق

ـ قراءة تحليلية ـ

منية قارة بيبان

مراتيج عنوان رواية لعروسية النالوتي نشرتها دار سراس للنشر في سلسلة إبداع سنة 1985 وهي تقع في 81 صفحة.

عنوان الرواية لا يخلو من إثارة إذ تتملك القارىء حيرة إزاء هذا الانغلاق الذي يوحي به ـ فالمرتاج هو ما يغلق به الباب.

واستنطاق العنوان يدفعنا الى عدة تساؤلات: عن الفاعل في عملية الغلق والقصد منه، عن الباب الذي أحكم رتاجه ودلالاته، عن الانفتاح وإمكانيته... كلمة مراتيج تحيلنا إذن الى ثنائية هامة: الانفتاح/ الانغلاق، قد تكون مفتاحا أو مدخلا إلى دراسة الرواية وفهم بنيتها ودلالاتها.

مراتيج تنتهي بما سمته الكاتبة «ملحقا خاصا»، أو هي رسالة حاولت من خلالها توضيح ما قد انغلق على القارىء من المعاني ـ فقد احتوت هذه الرسالة على «مفاتيح الحلم» وكان لها وظيفتان:

ـ وظيفة تفسيرية: باعتبارها تلخيصا لأهم أحداث الرواية وتوضيح لأهم مقاطعها وذلك بالتركيز على مراحل التحوّل فيها وتبيين دلالاتها الفكرية.

ـ وظيفة روائية: باعتبار الرسالة خاتمة الرواية وجزءا منها يوحي بنهاية الصراع مع الاستار والاقفال.

فالرواية تبدأ بمراتيج (العنوان) لتقدم في نهايتها (الرسالة) المفاتيح ـ فهي إذن جدلية الانفتاح والانغلاق قد تجلت على عدة مستويات: الزمان ـ المكان ـ السرد ـ الأشخاص ـ الدلالة.

الزمان:

تتوزع أحداث الرواية بين زمنين رئيسيين:

1) الحاضر:

ومنطلقه ما تعلنه الساعة الحائطية بـالبيت الجـامعي في حي «أنتـوني»: وهو منتصف الليل. لحظة فاصلة بين ليل مضى وصبح جـديـد. ويتحـرك الزمن بعد ذلك فلا يتجاوز يوما آخر بعد هذه الليلة. إنه الزمن الذي تتطور فيـه الاحـداث ببـطء كبير (لقـاء المختـار بجـودة ـ الاجتــماع في المقهى ـ الاجتماع في بهو الجامعة ـ لقاء آخر بجودة).

هذه الاحداث ترتبط بأخرى قريبـة منهـا زمنيـا في مـاض قـريب يلتقي بالحاضر في أنّه يكـوّن معـه نسيجـا واحـدا ونمطـا واحـدا من الحيـاة (في باريس).

هذا الحاضر حدثت فيه شروخ عديدة وتغيرات هامـة (شخصيـة البطـل ومواقفه) لكنّه يتميّز بخصائص ثابتة:

فهـو من الصحـو (ص 53) وزمن زعزعـة الثـوابت. هـو أيضـا «زمن معضل يعيينا اللهاث وراء الامساك بتلابيبه» (ص 46).

ويبقى في الجملة نقيض الماضي «كانت أيامنـا جميلـة فـلا تفسـد المـاضي بالحاضر».

2) الماضي:

هو ماض يتراوح مع الحاضر على مستوى السرد لكنّه:

ـ زمن الذكريات مع الجدة وحديثها ـ مع يوسف شعبان.

قد تكون هذه الذكريات مؤلمة (فشل البطل في تغيير واقعـه) ص 9 لكنها ذكرى سريعا ما يتجاوزها البطل ليرى في الماضي.

ـ الملجأ والملاذ (طفولة المختار في الجزيرة).

ـ وقد يتحول الماضي الى رموز: الشيخ الأخضر ـ الشيخ المرقان ـ قصـة رجب. هذه الرموز توفّر للبطل شعورا بالأمان والانطلاق، فتتحول صـورة الماضي بذلك الى نقيض الحاضر (كانت أيامنا جميلـة) ويصبـح المـاضي زمن القناعات والثوابت، زمن الاستقرار وفي نفس الوقت زمن الأحلام.

إلاّ اننا نلاحظ ان لكلّ زمن في الرواية وجهين:

(أ) ـ فالماضي فيه «أبواب موحدة بمزاليج من الداخـل» ص 9 وقد هرب منها البطل حين أشرف على اليأس من تغيير واقعه.

ـ لكن هذا الزمن نفسه يصبح له وجه مغاير في ذهن المختار بعد سفـره الى باريس وخاصة بعد الأحداث التي جدّت في وطنه (ص 31)

(ب) ـ كذلك كان الحاضر بـالنسبـة للبطـل سعيـا الى الانتصـار وكسب الانصار (ص 27) عانق فيه الحلم مدة عشر سنوات توهّم فيها القدرة على امتلاك الحقيقة وتحقيق الذات (ص 53).

هذا الحاضر يتحول في بداية الرواية وعلى مدى تطوّر الأحداث فيها الى زمن الشك والحيرة وافتقاد الامن واليقين، فيفقد فيه التوازن وتنغلق الحقائق من جديد.

ويمكن تلخيص هذه التحوّلات على مستوى الزمن في الجدول التالي:

الماضي: انغلاق / انفتاح

الحاضر: انفتاح / انغلاق

ويحيلنا هذا الجدول الى بنية منغلقة في الرواية يلّخصها العنوان إن بدايتها أقفال ومراتيج ونهايتها عودة الى الماضي ـ لكن هذه العودة لا تمثل النهاية الحقيقية فهي ليست الا الجزر بعد المدّ، والبحث عن الهواء بعد الاختناق. (ص 80).

أو هي إعادة بناء للجسور بين الحاضر والماضي وتجاوز للقطيعة التي رسخها الاطار المكاني.

المكان:

تتوزع الأطر المكانية في الرواية الى نوعين:

1) ـ باريس: الغرب ـ وأهمّ ملامحها تنحصر في المبيت الجامعي بهو الجامعة ـ دهاليز المترو، والمدينة الجامعية.

مميّزات هذا الاطار: غرف ضيّقة (ص 11)، وجدران تكاد تلاصق الأشخاص ـ وقليلا ما نجد وصفا للأطر الخارجية فهي تمثل ركح الأحداث ولا تكادتؤثر فيها (الشوارع) ـ فجل الأحداث تقع في المقهى وفي قاعة فسيحة بالجامعة وهو اطار منغلق رغم اتساعه.

بل كثيرا ما نرى البطل يفلت من قضبانه عن طريق الذكرى أو الحلم لينقلنا الى عالم آخر مناقض.

2) ـ الجزيرة: عالم سحري غريب ـ عالم براءة وطفولة وانطلاق.

فالجزيرة توحي بالاتساع والامتداد، يحيط بها البحر الواسع تنطلق فيها الطيور في الجوّ بعد ذبحها (ص 8) ـ فيها حقول فيحاء وفضاءات واسعة، هضاب وسهول وأحلام كثيرة.

هذه الأطر المكانية هي أيضا تحمل مفارقة قد تكون متولّدة عن التطوّر في الزمن والأحداث.

فالرحيل الى باريس كان للبحث عن «مفاتيح الإعجاز التي تفتح أبواب الأذهان الموصدة بمزاليج من الداخل» ص 9.

أصبحت باريس/ الغرب إذن رمزا للانفتاح الفكري الاجتماعي والحضاري ـ هناك سيجد البطل مفاتيح الحضارة وربما حتى مفاتيح الذات حتى يصبح للوجود معنى.

كذلك لم يكن سفر جودة الى باريس الاّ تمرّدا على ضغوطات المجتمع الأبوي (الوطن)، مجتمع العصا والقمع والمراتيج (الأبواب المغلقة)..

لقد أصبحت باريس / الغرب إذن في ذهن الأشخاص الذين يحلمون ويطمحون ويتوقون (المختار - الهادي - جودة...) إطارا تنكسر فيها الحواجز وتتجاوز الممنوعات والمحرّمات وتنفتح فيه الذات على العالم الحقيقة سواء كانت معرفية او حضارية او وجودية.

لكن القارىء يصطدم بصورة اخرى مخالفة عن هذا المكان - أهم خصائصها الضيق والاختناق الذي يشعر به خاصة البطل ويوهمنا به السارد أيضا. حتى دور الحضانة أصبحت «أقفاصا خضراء خارج المدينة» - بل هو عالم الذعر والخوف يتملك البطل فيشعر انه يعيش الحصار (الشرطة تطارده - تتثبت من أوراقه)ص 48.

الحل	الواقع
باريس: انطلاق	باريس: اختناق

- نفس المفارقة نلاحظها في الإطار المكاني الثاني وهو مرتبط أساسا بالحلم أو الذكرى في الوطن تراود البطل - يتفرّغ هذا المكان الى قسمين مختلفين : فهو قبل سفر البطل الى باريس يكاد ينحصر في مقاهي العاصمة (في بداية الرواية) حيث تنجلي مشاغل خاصة هي لعب الورق والامبالاة بمشاكل الشعوب والمجتمع.

يبدو هذا الاطار مرتبطا بقصر النظر وضيق الآفاق وسيطرة الأنسانية والمادية (ص 9) هو مكان يرتبط بممنوعات عديدة من بينها «التجوّل والتحول ورفع العقيرة بالنداء» ص 46. 47 صورة الوطن إذن تحيلنا الى عالم الاقنعة والحجب والضغوطات التي وجد فيها البطل وغيره من الاشخاص دافعا للهرب والرحيل لكن هذا الوطن يستحيل الى عالم آخر جديد في رؤى البطل فإذا به عالم انطلاق وانفتاح، عالم رحلات سندبادية، حيث الجدّة توزّع الاطمئنان وتمسح الذعر، حيث الحكمة يتعلمها يوسف شعبان القروي دون ان يفتح كتابا، حيث البركة. ويمكن بالتالي ان نرسم شكل المكان كما يلي.

الواقع	الحل
الوطن: انغلاق	الوطن: انفتاح

لاحظنا اذن على مستوى مكانيين مختلفين (الوطن/ فرنسا) مفارقة أساسية ـ قد تؤكد هذه المفارقة ان الانسان في رواية مراتيج يعيش دائما حلمه بعيدا عن الواقع ممّا يجعله في حالة غربة دائمة، فهو لا يكتشف الزيف الا بعد صدام عنيف مع واقعه وتكون بذلك جدلية الحلم / والواقع مدعمّة لجدلية الانفتاح والانغلاق.

كما قد ترتبط بتطور الوعي لدى البطل فتكون بذلك نتيجة لتحولات حقيقية في الزمان (مرور عشر سنوات) أو في الاحداث (تطور المجتمع التونسي وما نتج عن ذلك من تحرّكات شعبية في اواخر السبعينات (78) : وما نتج عنه الاضراب العام، فقد كان هذا التحرك الشعبي مؤشرا لتغيّر في العقليات ساهم في خلخلة وعي البطل وكشف زيفه ص 9.

فاذا ما اعتبرت ان للزمن دورا في خلق ثنائية الانفتاح/ الانغلاق وتجليها في اطار التوزّع القضائي فإنّ ثنائية اخرى ظهرت كذلك على مستوى السرّد.

السرد والسارد:

يقوم بعملية السرد في الرواية ساردان:

1) السارد الاوّل: هو السارد التقليدي يفتتح الرواية وينهيها. وظيفته تصوير الاحداث وتحليلها، بل يتجاوز ذلك ليقدّم أحيانا مواقفه الخاصة منها. فموقف السارد من كتب التوراة واضح، وهو يتميّز بالسخرية والإدانة: «تساقطت كتب التوراة على الأرض مشدوهة، منفرجة الأوراك، لا تملك القدرة على تغطية عورتها». ص 6ـ 7. أو في وصفه رأس البطل «كالسطل الفارغ لا شيء فيه سوى بضعة جرذان مذعورة» ـ إنها إدانة واضحة لثقافة الكتب وايديولوجيا الثورة التي تبقى تنظّر وتحلّل وتخطّط دون ممارسة حقيقية للواقع.

يتجلى دور السارد الاوّل في الصفحات الاولى من الرواية الى ص 39 ـ ثم من ص 73 الى ص 77 (آخر الرواية).

وقد يتدخل من حين لآخر بين الصفحات 40 ، 73.

يمكن اذن حصر وظيفته في التصوير والمراقبة والتأويل، لكنه يتخلى عن

مهمة السرد في بعض مواضع الرواية حيث يسندها الى البطل فيصبح بذلك ساردا ثانيا. (33 صفحة تقريبا).

2) السارد الثاني:

نراه يقوم بوظيفة السرد في حالات أهمّها:

حالة الانفلات من الحاضر وتصوير الماضي

ـ حالة التمزّق والصراع والضياع (تصوير باطن الذات)

ـ حالة العجز عن التواصل مع بقية الشخصيات في مستوى الواقع فيتحول السرد بذلك الى مخاطب محدّد (جودة يوسف شعبان) في اطار وهمي (الخيال).

يحقق هذا السارد الثاني مراوحة بين الحوار والسردية تصل الى حدّ التماهي (ص 60ـ 71: مخاطبة جودة منصور ـ ثم الام)، (ص 48: مخاطبة النفس).

فالسارد الثاني إذن له وظيفتان: الفعل باعتباره شخصية فاعلة والتصوير باعتباره شخصية ساردة.

ولئن كان السارد الاول يتجه الى قارىء مجرّد، فان السارد الثاني يتجه الى قارىء محدّد (يوسف شعبان ـ الهادي جودة ـ الام) فعملية السرد الاولى تتصف بالانفتاح لأنّ السارد فيها حرّ في تنقلاته، يختار المواضيع التي يصفها بكلّ حرية، ولا يتردّد في تصوير المواقع والأحداث بل يؤوّل ويفسر ويبدي مواقفه بكل صراحة دون عقد أو كبت.

بينما نرى السارد الثاني (البطل) يتجه غالبا الى آخر يكون قد عجز عن التواصل معه بحرية وانطلاق في مستوى الواقع فلا يستطيع تجاوز الحدود وفكّ القيود الا عبر خطاب وهمي يتجه به الى متقبل محدّد ويكشف بذلك عن خفايا ذاته ونفسه، ويبقى التواصل مستحيلا لأن الرسالة لا تصل، فسرده ليس الا محاولة محبطة لتجاوز المراتيج ذلك أنّها التواصل يبقى حلما لا يتحقق.

فيمكن إذن تلخيص عمليتي السرد في الشكل التالي:

السارد الأوّل	السارد الثاني
قارىء مجرّد (انفتاح)	قارىء محدّد (انغلاق)

الشخصيات:

انطلاقا من ثنائية الانفتاح/ الانغلاق تتوزّع الشخصيات كما يلي:

1 ـ فئة أولى: رمز الانغلاق والتحجّر في علاقتها مع الواقع/ الماضي.

* أهمّ من يمثلها **الجدة:** دروها حفظ الامانة، ورواية التاريخ «حتى تتواصل الأعراف ولا يفكرّ أحد من الصغار ان يخرقها ويتحدّاها» حسب تفسير يوسف شعبان ص 66. وهي «ديوان الجزيرة»، «تسلح الماضي لترمم جراح الحاضر» ـ وبذلك توفر الامن والطمأنينة.

* شخصية أخرى **«الشيخ الساطوري»** يمكن أن تنتمي الى نفس الفئة والاسم نفسه يوحي باللغة والعقاب ينتظران كل متحدّ للقوانين الاجتماعية والعادات وكل مقترف للمحرّمات (مراتيج المجتمع) ص 64. وما أسطورة الاصنام الا تأكيد لذلك.

* وقد تكون صورة الأب (أب جودة منصور) ص 23 النموذج الحيّ الذي يكرّس عقلية الانغلاق والتحجّر (صورة الأب يرفع عصاه لتأديب ابنته) فترسخ الشعور بالاثم والخوف وتؤكد ظاهرة المجتمع الأبوي، الأب/ السلطة.

2 ـ فئة ثانية: ترفض الحدود والقيود سواء كانت مكانية او زمانية أو معرفية فكرية. هي شخصيات تنتمي الى عالم المطلق او عالم منفتح، فتبحر خارج الحدود وتتجاوز المتعارف عليه.

* يمثلها **يوسف شعبان:** ذلك المغامر الباحث «عن خيالات القائلة» صاحب الحكمة والخبرة وكأنّه يستقيها من الجن لا من الكتب ص 41 ذلك القروي الذي لم يغادر الجزيرة، والذي «لا يقرّ له قرار»، مثل كلماته بالنسبة للمختار «خيولا غازية تفتح في مملكة السماء عرشا أو ثعابين....» ص 40.

تفسيره للواقع يناقض رؤية الجدّة. فالاصنام التي رأت الجدّة في وجودها حكمة تذكّر الناس بساطور العادات، رأى فيها يوسف شعبان استفزازا للمشاعر ودعوة الى تذوق الشجرة المحرمة (ص 65). بل كانت مواقفه تنم عن استخفاف باللعنات والاعراف والتقاليد (ص 66).

والسارد يقيم مقارنة بين يوسف شعبان والشيخ الأخضر تفضي الى إقرار أوجه تشابه بينهما.

* **الشيخ الأخضر:** رمز البركة والسحر وما يوحيان به من قدرات ومعجزات. كذلك هو رمز الانفتاح على الغيب والمعرفة الصوفية رحالة هو «لايستقرّ له قرار» قادر على فتح «مغاليق الرأس ليفعل بها ما يريد» ص 41.

* **الشيخ المرقان:** اسم آخر ورمز آخر ـ «يختلي نهارا ويجوب الجزيرة ليلا ـ يحرس الارواح والارزاق فينام الأهالي ملء جفونهم تحرسهم

رعايته». ص 42، يشبه البطل بالبحر والشمس، ويشهد اسمه على قدرة عجيبة على التجاوز والمروق «عبر المواقيت»ص 43 حتى بعد موته (زوال البناء حول قبره ماعدا الاعمدة).

كل القرائن تدلّ على ان هذا الشيخ هو الماضي والذاكرة المنفتحة دائما، تعبر الجدران وتحرس العشيرة فتبعث الامن والطمأنينة في النفوس ويمكن ان نعتبر متخصية رجب مكملة لهذا العالم المنفتح.

* رجب: شخصية أخرس ترسم ملامحها ذا كرة المختار. ينتمي الى عالم ماض لكنه ذاكرة المختار لم تستطع الانفلات منه.

انطلاق رجب لم يكن برا كالشيخ المرقان بل كان بحرا. عالمه ايضا لا يخلو من سحر وغموض ـ فبحره فيه ساحرة فضية تموت عشقا لرجبها ص 55. هي معلمته واسطوله واميرته التي تقهر رجولته ورجب هو العاشق المغامر المسافر دائما نحوها ـ هل هو التوحّد مع المطلق ام التوق الى المجهول؟ هل هي اسطورة اخرى واوهام البّحار؟ لم يكن رجب وحده البّحار هنا، بل كان الرجال في الجزيرة يبحرون معه بخيالهم «خارج حدود المعتاد». وحتى بعد غياب رجب الطويل داخل البحر، دون عودة، بقي أصدقاؤه يحلمون ببقية القصة(العرس داخل الماء) ص 58 ـ هل يكون هذا هو حلم المجموعة؟ (أهل الجزيرة): مغامرة وانطلاق خارج الحدود؟

عالم الجزيرة إذن عالم ثنائي التركيبة، ثنائي الشخصيات: فيه شخصيات واقعية (الجدّة ـ يوسف شعبان) وأخرى خيالية أو هي تجاوزت الواقع المادي لتتحول الى مجرد رموز (الشيخ الساطوري الشيخ الأخضر ـ المرقان..)

فيه شخصيات تجاوزت المألوف والسائد وخرقته، امتلكت الحكمة والمعرفة فتعاملت مع المطلق بعد ان التهبت شوقا اليه، واخرى لم تملك من المعرفة او الحقيقة الا صورها الخارجية وأعراضها، فقدّست الطقوس وعبدت الماضي وانغلقت على نفسها واحكمت المراتيج.

رغم هذا التناقض فقد كانت مواقف هذه الشخصيات في الجملة واضحة صريحة، لا يخالجها لبس ولا اضطراب. كانت شخصيات ثابتة مستقرة رغم الحركة الظاهرية.

وفي نفس هذا العالم برزت شخصيات ثالثة او هي تنتمي الى فئة ثالثة تعيش المفارقة حتى النخاع، يتجاذبها قطبان ـ تأثرت بهذا الواقع لكنها عاشت التمزق بين الانغلاق عليه والرضى به، والثورة عليه فتجاوزه.

3 ـ فئة ثالثة:

أ ـ المختار جمعية:

بطل الرواية ومغامرها، بدأت رحلته تمردا على واقع البلد، تمردا على الذات، على الشعور بالاختناق، محاولة لفتح كل المراتيج وسعيا الى الاكتمال او بحثا عن المعنى وتوقا الى التحرّر والعراء (ص 33) كان البحث في عالم جديد لا يحوي مزاليج ولا مراتيج (ص 49) : «جئت تبحث عن الهواء لتطلق العنان لصيحاتك، جئت لكي تكبر».

دامت الرحلة عشر سنوات، كان الفكر فيها سلاحا (ص 48) والهدف هو امتلاك الحقيقة وحمايتها (ص 52) يستمدّها من الكتب ودواوين الثورة، يصوغ منها «مواقف جاهزة أمام كل وضع من أوضاع الشعوب المتردية». لم يكن المختار بذلك سوى صورة للمثقف الباحث عن حقيقته وكيانه بين الكتب، معتقدا انه وحده يمتلك الحقيقة دون ممارسة للحياة ولا تأمل حقيقي في مشاكل الواقع وخصائصه.

فإذا شعور بالتضخم ينشأ وعشق الذات يحتد: «إنهّم أقزام. لن يكبروا ولو تناولوا أدوية العالم كلّها». ص 26.

لكنّ الوهم لم يدم، وكانت الرواية عملية كشف للأوهام والأقنعة بل هي نسف لمراتيج جديدة احكم المختار صنعها. فالايديولوجيا عوضت مراتيج البلد والواقع - والنظريات والتحليل المحنّطة كانت البديل لمراتيج المجتمع. أصبحت الكلمة (الأوراق، الملفات.. الكتب) قيدا جديدا او جدارا يفصل بينه وبين الرؤية السليمة وقد خلقت معها سلاسل اخرى وأقفال. (ص 61) فإذا بأسطورة الاصنام تمتد في ذاكرة البطل وتخترق الماضي عابرة الحواجز، ويمتد معها القلق الذي عاشه في طفولته، وتعود الشجرة المحرمة الى الظهور من جديد. «هذه الأنثى كانت كارثة سقطت على رأسي منذ البدء. أفقت على رائحتها المغرية، المخيفة، ولم تكن عندئذ سوى صنم حجري قابع على حافة الغابة القريبة من منازلنا.» ص 61.

كانت غربة البطل مزدوجة: غربة عن الواقع (الوطن) والانسان (المرأة) فأرهصت بغربة نفسية وتجربة قلق وحيرة وشك.

أحداث الرواية لا تكاد تتجاوز اليوم عاش فيها البطل ساعات مخاض واستفاقة، ولحظات ضياع وانهيار. عالم يتقوض وآخر ينبعث - ثوابت ومسلمات في نفس البطل تتزعزع، تسقطها رياح نازحة من الصحراء (ص 6) فهل رياح الذكرى ام رياح البعث؟

ب - الهادي:

لم يكن المختار وحده من وقع في أخطبوط المراتيج، بل ان الهادي، رفيق كفاحه، يحمل في باطنه أقنعة وحواجز تفصل بينه وبين الآخرين - او تجعل الآخرين لا يرون منه الا ما يريد هو كشفه لهم.

تحوّلت صورته الى رسم كاريكاتوري مضخّم للطالب المثقف الذي يحمل هموم العالم على كاهله، ويتكشف لديه الوعي والشعور بالمسؤولية الى درجة يصبح معها شخصية نموذجية ورمزا للانغلاق الايديولوجي والانفصال عن واقع البشر وهمومهم، ليخلق لنفسه بطولات وهمية.

«نحن لا يخيفنا الرشاش، إنه يخفي ضعفا... ونحن في أوج القوة والبطولة».

ص 47. فالتمرّد على الواقع كان قاسما مشتركا بين الهادي وجودة منصور والمختار. «كل شيء سيبدأ من هنا وانطلاقا من الآن». ص 49.

لكن الحلم كان على حساب الانسان. والحقيقة التي بحث عنها الهادي واصحابه لم تساو الواقع. «كان دوما ضنينا علي بأسرار نفسه مستفيضا في شرح شروخ الآخرين ومطباتهم». ص 70.

كان يمارس على نفسه والهادي محظورات ويتهرب من عقده. «الأكيد ان بينه وبين النساء الشرقيات عقدة». لذلك ترى فيه جودة منصور «دربا من الدروب الممنوعة ببناياتها المهملة ونوافذها المشدوهة»، تثير فيها القلق والخوف. بل إنه يصبح بذلك صورة ثانية للاب وما يحمله من رموز في ظل مجتمع أبوي.

ج ـ جودة منصور:

ثائرة هي على مراتيج واقعها ـ كانت الثورة نتيجة خوف استمر طويلا في داخلها، فتحول الى شعور متواصل بالاثم ـ وكأنها تحمل اثم حواء معها عصا الاب تهدّد ـ والرحيل الى باريس للتعلم كان سبيلا الى التجاوز والتحدّي لكن التجاوز لم يكن حقيقيا. فقد نحتت هي ايضا الحواجز في داخلها وتلبست بها الى حد العجز عن الافصاح. (ص 15) ـ بل اصبح وجهها «جاحزا بينها وبين محبة الآخرين لها.

كان وجها مقلقا، لا أثر فيه للآدمية، تتكسر على صفحته عواطف أقرب الناس اليها». ص 15. فيلح الراوي على صلابة الوجه وما حمله من تناقض بين اشارة الفضول من جهة، وفرض الاحترام والتزام الحدود من جهة أخرى ص 16.

قد يبدو هذا التناقض غير منطقي في البداية إذ هي تبدو أحيانا شخصية منغلقة على ذاتها «أوصدت على أفراحها وأتراحها داخل صدرها ولبست وجها لا يعرف الانفراج ولا العبوس» ثم إنها أحيانا أخرى تبدو قادرة على التعبير عن مواقفها وأفكارها في حضرة الجماعة.

هذا التناقض هو خاصية الشخصيات في مراتيج، إذا نراها متحرّرة الفكر، متناحرة من أجل إثبات وجودها، مواجهة لواقعها، عازمة على

الصمود (المختار ـ جودة ـ الهادي) لكنها تعيش في داخلها حياة اخرس مليئة بالفزع والخوف، عاجزة عن مواجهة ذاتها والكشف عن اقنعتها. (خوف جودة من الهادي والاب. ثم خوف المختار ص 48. خوف الهادي ص 20).

د ـ الطلبة:

هم أيضا يحملون الثنائية ذاتها التي تحكمت في بقية الشخصيات لذلك انقسموا الى فئتين:

ـ فئة واعية، يتمثل دورها الاساسي في محاولة بث الحماس وايقاظ المشاعر ونشر الوعي وذلك عن طريق تحليل قضايا الشعوب وتحويلها الى نظريات ومواقف تتجلى في العرائض والاجتماعات فهي فئة ترى نفسها حاملة للواء الثورة، مؤسسة لعالم المستقبل، يدفعها الطموح والحلم.

ـ فئة ثانية: سلبية في علاقتها بوطنها، إذا انفصلت عنه حسا وفكرا، وأقبلت على ملاهي باريس وجامعاتها تغذّي الحسّ والفكر، دون أن تشارك فعليا في اتخاذ مواقف عملية مما يحدث في وطنها «صدور طالما انطبقت على نفسها» ص 29 ومع ذلك فقد تتحرك أحيانا عند تأزم الاحداث فتطالب بمواقف عملية لانظرية أو وجدانية لكنّها لاتساهم حقا في انتاجها.

مراتيج الايديولوجيا والواقع.

1) مراتيج الواقع: (الانغلاق).

ـ كانت صورة الوطن في بداية الرواية متلبسة بإشارات وصفات وجهت شخصياتها فجعلت البعض يعجز عن التخلص من قيود هذا الواقع ومتاريسه ـ لذا اتسمت صورة اهل الوطن (البلد) بالسلبية (ص 9)، وكانت القيود متنوعة: سياسة افضت الى حالة الطوارىء، اجتماعية ص 10، أخلاقية دينية، هذا الواقع تميز بعمليات التضليل والاختفاء وراء الاقنعة، واتقان فنّ الامر والنهي، واحتكار المشاعر والاحلام ص 15 ص 29. وهو ما جد ببعض شخصيات الرواية الى محاولة التجاوز والتحدي، والصراع في واجهة اخرى: هي واقع جديد (فرنسا).

ـ إلاّ ان هذا الواقع الجديد لم يكن رحبا كما تخيله المختار او جودة منصور وغيرهما من الساعين نحو التحرر. كان الرحيل مغامرة وجودية وتوقا الى تحقيق الذات فإذا الوهم ينكشف عن ضيق هذا العالم الذي سافروا اليه، فهو ايضا له ابوابه وحدوده الضيقة وإذا العجز ينكشف قبحا لايمكن تجاهله.

فالعنصرية في فرنسا تتجلى في سلوك صاحب المقهى الذي يكره الغرباء (ص 49 ـ 50) وعقدة الاجنبي تلاحق العربي وتدعوه الى الاعتذار دائما،

والتعلثم، والشعور بالخوف امام الاجنبي ص 19 ـ وحضارة الغرب تخلق مزلاجا آخر للذات وتخنقها في حدود غربتها وخوفها فلا تستطيع التجاوز ولا الانبعاث ص 48.

الملاحقة، ومطارق أسئلة الشرطة تعري الضعف والكبت.

ـ ليس الواقع الموضوعي وحده هو المولّد للشعور بالاختناق بل واقع الذات ومراتيج الجسد هي قيد آخر وحبل خانق ص 61 فإذا الشعور بالقماءة يكبر والحلم يستحيل ص 72. هذا الحلم هو وحده القادر احيانا على كسر الجدران والانطلاق في عالم أرحب.

2 ـ الانفتاح عبر الايديولوجيا:

يفسر شكري عزيز الماضي الايديولوجيا على انها «مجموعة التصورات التي تعبر عن مواقف محدّدة تجاه علاقة الانسان بالانسان وعلاقته بالعالم الطبيعي والاجتماعي».

وهي في نظر السيد ولد أباه (الحياة الثقافية عدد 54 سنة 1989) تتمثل في أطروحتين مختلفتين باعتبارها:

ـ وعيا زائفا

ـ أو أداة التحام وإدماج بالواقع.

فما وظيفة الايديولوجيا في مراتيج؟ وما علاقتها بالواقع؟تبدو الايديولوجيا مجسدة في شخصية الطالب المثقف الساعي وراء الحقيقة لامتلاكها، معتبرا ان التصورات والمفاهيم التي وصل اليها «ستنظم الجماهير وتنشئ الأرضية التي يتحرك عليها البشر ويكسبون وعيا بوضعهم النضالي».

لقد أدرك المختار وأصحابه دور الكلمة وأتقنوا فن الاقناع والانفعال فتجلت الايديولوجيا في شكلها النظري (الكتب ـ دواوين الثورة...) او العلمي (المناشير ـ المعلقات ـ الشعارات ـ الملفات ـ الاجتماعات) عبر قنوات سمعية بصرية معتمدة أساسا التواصل اللغوي. وحدّد الهدف «البلاد تحلم به (الهادي) وتنتظر الفتح على يديه» ص 31 فكانت الغاية مواجهة وضع البلد المتأزم وذلك «بالاطلاع على الاخبار والمعلومات غير الرسمية وتحليلها وتحويلها الى مواقف جاهزة توضع امام كل وضع من اوضاع الشعوب المتردّية». أصبح التفكير سلاحا وحيدا ومنبعا للآمال ودليل الوجود ـ بل السبيل الى تحقيق الذات،به يواجه الواقع.

لكنّ المواجهة لم تكن متكافئة (ص 48) والايديولوجيا لم تنبثق من هذا الواقع ولم تكن ملائمة له. فكانت القطيعة والزيف. بل تحوّلت من «أداة التحام بالواقع وإدماج» الى «وعي زائف».

3 ـ الايديولوجيا مرتاج آخر:

لئن كان منطلق التصورات الايديولوجية هو الواقع، والسبيل اليها هو المعرفة الصحيحة، فيبدو أن هذه المعرفة في «مراتيج» قد تحكمت فيها معايير اخرى حرفتها وحادت بها عن الواقع ـ فلقد اعترف السارد ص 16 ان جودة منصوصة كانت «تحمل على عاتقها جملة من التصورات تجبرك على احترامها رغم ما فيها من **تهويل و تضخيم و قسوة على الواقع**. والهادي كذلك يحمل هموم الامم والشعوب على كاهله وتوحي هيئته القاتمة باقتراب نهاية العالم وانقراض الجنس البشري». حتى ان من يستمع اليه يعتقد فعلا ان الحياة توقفت. لكنه يفاجأ بعد ذلك «بأن الحياة جميلة، والهواء صحي... والجنس البشري مازال قائما».

لقد طغت المبالغات والتضخيم على الخطاب الايديولوجي فشوهت الواقع واصبح الهدف مدينة فاضلة «أسطورية». بل أصبح الحلم خواء ص 54 ـ وبدأ صراع الذات مع تصوراتها، وتجسد ذلك في عاصفة ألمّت بالمختار في اول الرواية «أسقطت كتب التوراة على الأرض مشدوهة، منفرجة الأوراك، لا تملك القدرة على تغطية عورتها، فإذا هي رماد».

سقطت اوهام الايديولوجيا بعد ان انكشف وعيا زائفا إنفضح الوهم حتى لدى بقية الطلبة، فاذا بهم يرفضون «النظريات» ويطالبون بالحلول السريعة العملية (58).

هكذا أصبحت الايديولوجيا «أعتباطية عقلانية» فلم تنشىء «سوى حركات فردية وأنواعا من الجدل» (غرامش).

كانت البطولة فردية زائفة ـ وكان التأرجح بين السماء والارض بين مراتيج الواقع واوهام التحرر عبر الايديولوجي.

لذا كان لابد من عودة جديدة الى هذا الواقع، إلا انه واقع جديد او هو البديل للايديولوجي، والحل لمواجهة الغربة والهزيمة.

4 ـ الانفتاح الجديد:

لئن كانت الرواية تأرجحا بين واقعين وعالمين، وترددا بين الشك واليقين،وصراعا بين الشرق والغرب، بين الذات والآخرين، فإنها قامت أيضا بتعرية الذات ونزع الأقنعة، وكشف الممنوعات والمحرّمات.

طال الوهم (عشر سنوات) وكان «الكشف» عاصفة مفاجئة تكاد تذكر بكشوفات الصوفيين وانوارهم، فإذا بعوالم جديدة تنكشف للانسان في ذاته مولدة يقينا جديدا: الحقيقة داخل الانسان لافي الكتب (علاقة المختار بيوسف شعبان) ولابد من العودة الى المنبع للنهل منه (منبع الحكمة يوسف شعبان).

وينشأ صراع آخر، هو مزيج من حقد وصداقة، من ارتباط ورغبة في الانفصال ص 41. بل هو الحنين الى الجذور نؤكد الاحلام (الحلم بالبلد.. بالجزيرة وطيورها... ص 33 ـ 35).

«أين أنت الآن، كم انا أحتاجك لتنقذني من خيالات نفسي التي ستوقع بي في سرداب لا نهاية له».

يوسف شعبان يدعو الى اكل الشجرة المحرمة، والاحلام المعربدة، وإذا كان لم ينجح في الماضي في اقناع المختار، فلأن الجدّة ورواياتها كانت قد استقرت وامتدت في عروقه.

كسر المراتيج ممكن إذن لو أعدنا النظر في موروثاننا (الجدة وكلامها) ولئن كان هذا التراث يحوي رموزا توحي بالانغلاق والتحجّر (الشيخ الساطوري) فانه يمكن ان يكون مؤشرا لمعرفة اخرى ممكنة (الشيخ الاخضر) كما يحوي رموزا تدعو الى التجاوز ورفض الحدود:

(الشيخ المرقان) فتتحقق بذلك الطمانينة والرضى (ص 42). ويوسف شعبان (مثل الشيخ الاخضر) تأكيد على ضرورة الحركة ورفض السكينة والاطمئنان الى الموجود والمألوف.

هي إيديولوجيا الفرد ثانية وانفتاح آخر تدعو اليه الرواية منطلقة من ذات الفرد الواعي، المكسّر لقيود الوهم والعادة، ذلك الذي سيعيد النظر في المكتسبات دون قطع الصلة بالجذور لان في ذلك الهلاك والموت (النبتة التي أهداها المختار الى إيديث).

فالانفتاح تدعو اليه الرواية لا يكون عبر الغرب وايديولوجياته، او عبر تصورات بعيدة عن الواقع تفرض عليه فتشوهه وتحرفه بل بالعودة الى هذا الواقع دون الاستسلام له، ودون الهروب منه تراجع البحر الذي تشير اليه رسالة المختار في آخر الرواية، وإعادة بناء الجسور هي الطريقة التي بها نبدع واقعا جديدا... فليس المدّ الا حركة تحتاج الى نقيضها كي لا يتحول الى طوفان يغرق البلاد والعباد.

انفتاح وانغلاق، مدّ وجزر، تلك هي الحركة المميزة للرواية، صورة عن الحياة في مدّها وجزرها، تنكشف من خلالها معالم وتختفي صور، تنقرض بها عوالم وتنشأ أخرى...

منية قارة بيبان

قصة

الملكة تخلع عرشها
(او الملكة والصعلوك)

الى: ن - ر

جمال يونس (فلسطين)

للعقلاء:

كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان ملكة في غاية الحسن والجمال... يقع في طريقها صعلوك... الصعلوك يقتاد الملكة الى ما كانت تنتظره من آلاف السّنين... قرّرت الملكة التنازل عن عرشها... لم تذكر الحكاية أنّ الصعلوك أجبر الملكة على ترك مملكتها... ولم تذكر أيضا كيف التقيا عند نقطة الموت والحياة... وحده الرّاوي حاول تفسير الموقف ولم ينجح... وقتها التّفكير الأسطوري كان هو السّائد...

قفزة غير حائرة:

لما سألتها عبر الهاتف عن الفرق بين السّفر معك أو السّفر فيك لمعت عيناها وأحسست بداخلك بنار لا تاريخ لها... في اللّحظة كانت تقرأ نارك... وبحركة أنثويّة ألقت السّاق على السّاق فاشتعل فستانها الورديّ فأحرق ما تبقّى في فمك من لعاب فلم تقو على الوقوف....

في دائرة العقلاء:

السيارة الفخمة تشقّ طريقها بصعوبة في زحام المدينة العربيّة الكبيرة... قلت له على استحياء: «لو سمحت هل يعمل مكيّف السيارة؟» وابتسمت.. أصابع السّائق تلامس بعض المفاتيح الصّغيرة ويأتيك هواء بارد يعزلك للحظات عن حرارة العالم الخارجي ولكنّك لم تشعر إلاّ بجهنّم في رأسك وأركان جسدك... كنت في طريقك الى الملكة وفي داخل رأسك الصّغير تحاول

رسم الجمل لاقتحام أسوار مملكتها العصيّة... لما تمتمت ضحك السّائق. نظرة قصيرة وعاد يعطي تركيزه للطريق وقال: «عمّتنا»: مدّ الله في عمرها. قلت: واضح أنّها ملكة طيّبة. التفت السّائق... فأعدت صوتك واضحا: «إنسانة طيبة»....

أول لقاء:

تقف السّيارة عند سور شاهق... يتركك السّائق عند السّور ويفتح بابا يسمح بدخول سيّارة كبيرة.. تدخل السّيارة وتقف بجانب أخواتها... «أنظر الى هذه السّيارة!» السائق. تدور دورات حول السيارات الفارهة وفجأة يفتح لك باب وعاملة هادئة الملامح تقول بهدوء جمّ: «تفضل من هنا»... تغوص في المقعد الوثير وكفّك اليمنى تتحسّس علبة سجائرك.. وفي الأثناء تدخل امرأة تحصد كلّ الماء العامل فيك، تمدّ كفا ناعمة تلقي بكفك وتلجم جنونك للمرة الأولى ولم تطبع قبلة خفية على كفّها... وكم تمنّيت أن تقف من جديد لتريك كيف يرسم فستانها الأخضر الطويّل لوحة أنثوية تنتهي بقدم يرسمها حذاء أخضر فجّر أركان شهوتك فتعطّلت أسلاك ذاكرتك..

الهاتف:

ترميك السيارة لدى سور المجمّع السّكنيّ... تدخل شقّتك المتواضعة وتخلع ملابسك وتدور حول نفسك وقطعة قماش هي سروال قصير يحاصر قسما من جسدك السفليّ... نار تشتعل في أركان جسدك الملتهب... عيناك على الهاتف: أيها الداعر لم لا تأتيني بصوتها؟»... تغزوك جمل ومواقف من خلال السّاعتين في حضرتها... يمضي الليّل محترقا ببطء على لهيب كراسة رسمك.. لم تدر كيف غفرت لدقائق ولكنّك تمعّنت صباحا باحمرار في عينيك ولم تسمع صوت الهاتف.

نداء صريح رقم1:

همست: «هل توقّعت اتصالي؟»: ـ «تمنيته أكثر من أن أنتظره» وبلغت ريقك وفجأة أطلقت ضحكة طفوليّة مجنونة متواصلة الإيقاع وكرّرتها ثلاث مرات في مكالمة واحدة نسيت بعدها حدود الزمان والمكان وكل ما تذكرته أنّك بعد كل ضحكة لم تستطع لفظ كلمة واحدة... في المكالمة ذاتها سألتها عن فستان أحمر دخلت به غرفة المكتب ويسبقها عطرها... وقفت

وطبعت قبلة خفيفة على كفها أورثت كفّك رائحة عطرها ليومين... المسافة بين الفستانين الأحمر والأخضر كانت صعلكتك.. تنظر فيك واليك مشدودة كل جوارحها وأيقنت أنها أفضل ملكة تصادفها تتقن فنّ السّماع... قلت لها: «في حياة كلّ رجل امرأة مؤجلة وأنت...» فطلبت منك أن تعيد جملتك وأعدتها... كنت تسوق كلماتك بصعوبة وهي تسمع... وكنت تعيش شعور القائد المنتصر مع كل سؤال ترميه شفتاها الجائعتان... في زمان ما في مكان ما يأتيك صدرها يحمل نهدين كلّ واحد منها كرأس قط برّي وسواد يعتقل نصف النهدين وتخرج معادلة تتعارك في عالك بين البياض والسّواد... وقفت وأطفأت ما تبقّى من نور المكتب.. نهضت مشتعلا ترددت قليلا وتقدّمت منها انحنيت وأمسكت بقدمها المشتعلة ونزعت منها الحذاء وتحسّست بأصابعك الدافئة المرتعشة صدرها وخدّيها الملتهبين، أشعلت النّور وعدت تجلس قبالتها تنظر إليك مشدوهة وخفقان في صدرها... الملكة تتحوّل إلى أفعى مضطربة... حيرة ودهشة لم تأت من حركتك المجنونة فقط فالمسافة بين الفساتين الثلاثة كانت تحمل حوارا مكثفا جعلها تشعر أنّها تعيش الحياة لأول مرّة... نظرت في شفتيها واللهب يخرج منها فسمحت لك أن تقرأ: أنت صعلوك ومجنون... وتذكرت سؤالها: «إذا دخلت عالمك كيف أخرج منه»؟ قلت لها:«ولماذا الخروج؟» اطلقت ضحكتها وهمست:«أنت يا أستاذ...» قلت لها انتظري وطبعت قبلة عبر الهاتف... «أسمعت؟» «لا» اسمعي وأرسلتها واضحة .. صرخت هامسة:؟ «ما هذا يا أستاذ؟» لم تجب للحظات ثم قلت: «السّؤال لا يعجبني» وقبل انتهاء المكالمة كنتما تتفقان على بدء رحلة عبر دائرة الاختراق...

المطار:

«أتسافر حقّا وتتركني؟» «قف!» وتصمت... تقترب من المرآة وحيدة في غرفتها في الدّور الثّاني لقصرها تخلع قميصها الأسود... كفها اليمنى - وبحركة تلقائية - تمسك نهدها الأيسر.. ولم تكترث وهي تدوس حمّالة النّهدين حافية... تنظر في عري القدمين وتنفجر ضاحكة في داخلها: «لماذا يسألني مرارا: هل أنت حافية القدمين؟» دقات قلبها تستعر وما زالت تمسك بنهدها الأيسر.. تمعن النظر في المرآة أكثر وتكاد تسقط على الأرض... تقترب من سريرها وترمي جسدها وتنظر في سقف الغرفة تبدأ ذكرى مشوار لقائها... يوم أن قرّرت دخول عالمه كانت تعرف أنّها تدخل عالما

غريبا لم تر أشياءه أو تسمع جمله.. ولم يخطر ببالها أنها تتوّرط في عالمه المجنون... وتذكّرت أيامها الأولى مع مصطلحاته الغريبة والمقلوبة:

ـ «قلت لك ستتعودين على جملي وألفاظي»

ـ «كل هذا لأنك لا ترغب عالم العقلاء؟»

لم يجب... اكتفى الإبحار في عينيها اللامعتين... كان يلذّ له السّفر في عينيها وملامح جسدها المتحفز... وعندما قال لها:«هل استطاع أحد قراءة عالمك؟» قالت له:«اتؤمن بأن المرأة قارّة وأنّني قارّة بكر؟!... لم تكتشف؟!. هزّ رأسه وحاول بلع ريقه...

الجرس:

قبل أن يفتح الباب... نظر في العين السحريّة... كانت تقف بجوار الباب واثقة ورائحة عطرها تتوغل مع نسمات أوائل اللّيل الصحراويّ وتقتحم عاله من خلال الثقوب المتفرقة عند باب شقّته... عندما دخلت ألقت بحقيبتها على طاولة مكتبه وأخذت تتصفّح بعض الكتب التي تقبع على المكتب بغير انتظام...

ـ «أنت فوضويّ». وترميه بغمزة مدروسة... وتخلع عباءتها.. كان يجلس على طرف المقعد الطويل. خطواتها كانت بطيئة إليه... ألقت جسدها على مقعده.. رأسها على فخذه.. بعد دقيقة وجهنّم تأكل عاله الدّاخلي نظر في عينيها فصاحت:

ـ أنت غريب.. وتابعت بتقطّع ـ دّو ـ خ ـ تني وحلّت الزرّ الأول لقميصها الأسود عند النّهدين.

ـ دقيقة لو سمحت.. رفع رأسها بهدوء وألقاه على المقعد...

الاختراق:

«لم أعرف أنّك مجنون إلى هذا الحدّ... توقعت أنّك تقوم لإحضار كتاب نتناقش فيه كعادتنا.. ولما رأيتك تحمل كوب الماء وفيه بضع ثلجات صغيرة فرحت وقلت: لعلّني سحقتك... رحت ترفع رأسي ببطء وتضع الكوب على الطاولة القريبة بهدوء وتبتسم أيها اللعين... ولم أفهم.. عدت تنظر في عيني فأحرقت شفتي... قمت وأحضرت شالتي السوداء وابتسمت ثانية.. لم أكترث لأنّني لم أفهم... ولما رفعت رأسي وأخذت تعصب عينيّ كانت نار تبدأ من أخمص قدميّ وتستولي على كل أركان الجسد... ففكت أزرار قميصي

جميعها وأنا أسافر في عالم مجهول ولذيذ... نقطة ماء مثلوجة تقع على نهدي الأيمن كدت أقفز من لحظة الجنون... تلوى جسدى كأفعى خائفة فنقلت نقطة ثلج أخرى على حلمة نهدي الأيسر... وضعت ثلجتك بين النّهدين وسافرت معك... ولأول مرّة أغيب لساعات عن الوعي... ولأول مرّة أيضا أكتشف طقوسيّة تجعلني فرحة بآلام جسدي...

إشارة من عالم العقلاء:

جرس الهاتف وصوت مسموع:

- «مدام؟»
- «نعم يا»
- «اختك على الهاتف»
- «قولي لها أنا سأتّصل بها»
- «ألو فلانة؟»
- «نعم مدام»
- «ما اليوم؟»
- «الخميس مدام»
- «الخميس؟ والتاريخ؟... شكرا..شكرا..لاتلتزمي مع أحد في هذين اليومين ومن يسأل عني فأنا مسافرة ـ أتفهمين؟»
- «حاضر مدام»

العاملة:

تزم شفتيها وترتسم على وجهها علامة استغراب كبيرة.

قرار:

تقف أمام المرآة... تتحسّس معالم جسد كانت تنساه... تتصارع الأفكار سريعا في ذاكرتها... تتذكر رسالته العربية... تسرع إلى خزانتها وتلتقط مغلّفا ((قلم خشبي غريب. إصبع علكة أخضر اللون، قصيدة جديدة لنزار بعنوان التلميذ..ورقة صغيرة مكتوبة في وسطها (متى) وعلامة استفهام كبيرة...)) تفرد مكوّنات الرّسالة أمامها وبعد ربع ساعة كانت تنزع جميع ملابسها وتدخل الحمام وتصيح من داخله:

- «عطري المفضل يا ـ »
- «حاضر»

ـ «أنا مسافرة»، وتضحك ضحكة متواصلة النغمات يرتجّ لها الحمام
ـ «إلى أين يا سيّدتي» ـ العاملة بجوار باب الحمام
ـ «إليه» وتستمر في إطلاق الضحكات.
ـ «إلى من يا سيّدتي؟»
ـ «ربما تعرفين ذات يوم»

لقاء أبدي:

عندما التقيا سألها وهو يحملها بين ذراعيه: أين أنت من آلاف السّنين؟ صاحت هامسة: «في زمان ما، في مكان ما!» ورفعت رأسها وغابا في قبلة ولما فتحت عينيها قرأت سؤاله من عينيه.. ابتسمت «تريد أن تسال؟» حاول أن يتكلم فوضعت كفها على فمه... رمته بغمزة مسعورة وهمست: «أحضرت كيس الفواكه ومن كلّ الأصناف » وأطلقت لضحكتها المعهودة العنان...

صحافة:

ضجّة كبيرة صاحبت غياب الملكة عن قصرها... الصحف الكبيرة والصغيرة المحليّة والأجنبية مشغولة بالخبر...لفت انتباه رؤساء التّحرير اجماع الصحفيين على عنوانين: «الملكة تخلع عرشها»... «الملكة والصعلوك.»

تاكيد:

في زمان جديد...في مكان جديد كتبت الملكة المخلوعة للصّعلوك جملة صغيرة على ورقة وضعتها على مكتبه: «عزيزي الصّعلوك» : «لو حاولت إخراجي من عالمك المجنون فسوف أ ـ قْ ـ تُ ـ لُ ـ كَ.»

تونس الاحد 19 ـ 7 ـ 1992
جمال يونس (فلسطين)

شعر

قصائد

خديجة الصادق

خيبة

عند الباب الموصد
بلا جناية
أستنكرتُ احتفاء أمي بالغريب
المدعى
إني لست ابنتها
توسدتُ الليل المثقوب
وانكسرتُ خيبة

مضاجعه

أمي ضاجعت الشيطان
وأنتَ
لحظة ولادتي
أيها الحقير
كم أشتاقك

خواء

وأنت أيهٌا الثوب الخواء
تحتشد
في فناء الفجر
فتعتذر الشمس
لصغار مرسومين على النوافذ

وتمضى
لا كفٌ ندية تلوح لها
لا شيء يلهمها البقاء

إمرأة لكل الاحتمالات

إمرأة من الكريستال
حين صافحتها بحرارة
تناثرت أشلاء

* *

وقفت لله تتوسل
ان يرسل للكون نبيه
تبيح لهذا الجسد عشقه
وتفك رباط الزوجية

* *

خشية الجحيم والآخره
لونت ثوبها القاني
بلون الوقار
لكن ذات الساق
ما زال مارقا
وشهوة الجسد
تصطاد عشاق النار

* *

غابة

غابة أنا
خارجي اللحظة
كل شيء
اشجار عتيقه تفر
ترى...
من أخبرهم
إنني غابه

خديجة الصادق
ليبيا

حدائق مبددة

فرج العربي

* تعبٌ عالق بوجه عابر

كنا صغارا
مر كما لو أنه جنيٌ
خرج للتو من جبة الصياد العجوز
كما لو أنه يهندس الحقول
ويضع القمر في إناء أنيق
مر
وما كنا نعرفه
رأينا قطيعا من التعب
يركض صوب وجه عابر

* البياض

بصدر رحب
يستقبل كل الألوان ويعكسها في إتجاهنا
فضاء
نشكل فيه خربشة نسميها أحلامنا
البياض ملاذنا حين نتعب
وسادتنا حين يغالبنا النعاس

البياض نحن
حين نكون عاريين تماما
ونشرب الهدوء برفق

* يوم يفكر في الانتحار

أحدهم
منحني مرآةً وغاب
وددت أن أرى وجهي
سقطت المرآة مني
تبدد وجهي شظايا
أنتبهي يا خديجة
يوماً يشحذ سكين إنتحاره
وأولئك نحن
نعود مبتهلين من رجفة
ونسقط عاريين في الصّخب

* فخذ ريان

نسيتُ رأسي
على فخذك البض الريان
تركتني اشربُ منك
وما أرتويت
أرعفتُ فيك
ملأت إناءك حتى سال
وأكثرتُ من الحبر في قلمي

* سماء من لهاث لذيذ

ـ طق... طق
ـ من الطارق ؟
ـ أنا

ـ أنت... حتى أنت !
التفُ بك محموما
تلتفين بَي
يدك على مفتاح النور
يهطل الحب غزَيرا في الغرفة
وجسدانا منارة مشعثة الضوء
تحت سماء
من لهاث لذيذ

* نافذة

من النافذة
يحدق في فضاء ملء به
ترتجف النافذة
لهول ما رأى

* عجوز أسيانه

في الصباح
ينسل الليل مذعورا
من مخدع إمرأة
ويقفز من النافذة
وفي الصباح
أمام الدار
نبتة تتسلق عجوزا أسيانه
تنظرُ في العمر البعيد

* دار كما الوديان

أشرع عينيّ
على مساء يـبصر أمسه بصعوبة
الدار التي أرتأينا

هربت من ذاكرتها
وراحت تسرح كما الوديان

* أنصتوا جيّدًا

انصتوا لما تقول إمرأتي :
الصيد ألاّ تقتل
البياض أن تسبح عاريا في السواد
الحب أن ينطلق من حنجرتك
عصفور الكلام
مغرّدا في كل صوب
حرًا تلبس اللغة وتلبسك
أنت تنظر مستبشرا إلى مشنقة الأبجدية
تتدلى من دفتر قديم
أنت حر
وليس على الحرّ حرج

* فخ الخديعة

ها هي حدائق أفكارنا مبددة
ونحن نسير معلنين :
خراب الحواس
نهاية أسماء الاشارة
بداية إبتكار الفعل
الشعر ورطتنا
نلامسه ولا نقبض عليه
وهذا وحده
الذي يوقعنا في فخ الخديعة.

فرج العربي ـ بنغازي

قصائد

فرج العشه

النادر بالنظر إلى نفسه

(1)

في أيامه الأخيرة
إذا ما جلس بجواره الماء
يتساءل :
ما السر في السر ؟
ماذا عن ذلك اللامع
كذهب الزمان ؟
النادر بالنظر الى نفسه
يبدد غبطته
كطفل مستاء
من أقواله :
لو أن العالم لعبة فك وتركيب !

(2)

لا تقل شيئًا
ادخل بهدوء
الوقت معد للتفكه باتساع
كأن تحتسي المدى بملعقة
كمن يلوح لمسافرين

يودعون أنفسهم
وقت ليّ ولك
العزلة ذاتهاَ
سيادة مطلقة
تلتقط اللذائذ بالشوكة والسكين

(3)

هناك،
يجثو بحزنه الفائض القيمة
منكباً على أساريره
بغية فحص مكونات غاية في الصغر
حتى انها عدم

الدليل

وفاءً لتاريخ الخونة
طعنتُ دليلي في ظهره
نظر إليَّ بامتنان
محتضرًا على ساعدي.
عدتُ الى مكمني
مغمورًا بالظلمات والهلوسة
أنصتُ إلى وقع خطى الفاسد
تصعد سلم الخدم.

بعد الرقص

قليل ما تبقى
قليل الملح في روحنا
وتلك الساعات التي وقّتت إيقاعها
على وقع نبضنا
ترتد متكسرة على تروسها

كأن الذي انقضى
ديك مذبوح
يستعيد الحياة
بعد الرقص

قيد التكوين

بجسد عربيد
مثقل بانكسارات
صاغتها تجارب خرقاء
بصحبة كائنات قيد التكوين
في ليونة الطل
وشراسة ذئب جريح
أتقدم حيثما هنالك طريق
مرصوف بمعرفة الآخرين
اتشبث بالدعة
أمسد فروها
منصتًا الى شخيرها المتعاقب.
كأنفاس مصدور
على مقربة من نار
تأكل الأمنيات

إلى ف

تجيئين،
لأني أردتك
كأعنف ما يكون
تطردين الدم وتسرين
حيث تقيمين،
أكتم سرك
مخافة أن يقتحمك العامة.

إلى ف

شكرًا لك
لو لم تكوني أنت
لكان شيئًا آخر
لا شيء مثلاً.

إلى فلاديمير مولان

«النبيذ الجيد لا يحتاج الى إعلان والفن أيضًا».
تذكرتكَ على جسر مهجور
حتى ان الفولاذ أنّ
من قسوة حضوركَ

إلى ف

أنصتُ إلى صمتك
جلبة مياه وعبيد محررين
أحرس روحك
أعكف عليك
كميكانيكي مبتدئ

شعر

رجل بأسره يمشي وحيدا

مفتاح العماري

وحيدا مكتفيا بالذي أنا
بالذي جسدي في الثياب البسيطة
أركض كما لو أن البروق أحذيتي
وحيدا أعوي
: أيتها الذئبة
خذيني من فمي
بعيداً عن صدرك
يغدو كل شيء في غاية الفساد والأبهة
العصافير ترتدي خوفها الغامض
والشرفات تهذي بشموس منقرضة

وحيدا
كل ليلة
بأذنين خائفتين
أترقّب سقوط بيتي
خذيني من فمي
أيتها الذئبة/بدأت أتعب
من زوجتي

حين ترتبني يداها بخيال واثق
قم يا عزيزي طلع الصباحُ/بدأتُ
أتعبْ
من أطفالي وهم يكبرون
دون ألعاب وحلوى
من مؤامرة المياه
في أحيائنا الرثة
مالحة وتهرب/بدأتُ أتعبْ
من البدو وهم يقتحمون الشوارع
بسراويل الجينز
كل شيء في غاية الفساد والأبهة
لا الطمأنينة سقف
ولا النساء هنّ النساء
وحيدا وكفى
باطل كل حلم لا يفضي الي
وكل احتفال بموتي هراء
الحبر مملكتي
دائما لي خبر أسميه
الون مدينة اطفالها
لا يعطشون
وأرسم امرأة أخرى
وربما ألعب بالنار التي
ليست معي
ثم وحيدا أعوي
: أيتها الذئبة
خذيني من فمي

ثلاثون صيفا
حافيا يأتي المساء

كأن لي جسد هنا
ويدان
وكانت نافذتي معي
: قمر يسكب شكله على أمي
وأنا لست أفهم
لماذا كان الحب سريا للحدِّ الذي
صرت فيه لست أفهم

دلّيني يا أمي عليّ
قالتْ : مرضعتي الريح فاتئد
لا حليب في القدح
لكي تشربْ
قلتُ :
سأكتفي بخيالي الأوحد
وليكن كل شيء
في غاية الفساد والأبهة
فنحن هادئون
هادئون جدا
دائما نركب الحافلة
نعبر الى اليوم الذي يلي
حيث الوجوه تنظر حائرة الى
ظـلي وتفكر
: رجل بأسره
يمشي وحيدا
يعوي
أيتها الذئبة
خذيني من فمي

مفتاح العماري (ليبيا)
ربيع 1991

شخصية العدد



الشاعر طاهر البكري

مبدعون سفراء

ولد الشاعر طاهر البكري بالجنوب التونسي سنة 1951.

زاول دراسته إلى الإجازة في تونس وعاش عن قرب التحولات والأزمات التي عرفها تاريخ تونس المعاصر. قرر مضطرا بعد تجربة السجن سنة 1976 أن يحمل الوطن في قلبه ويغترب... إندمل الجرح بعد التغيير وبقي الوطن في نبض القلب وفضاء الروح... وتحول «المنفى» إلى نافذة على العالم تثري العطاء والإبداع وتحمل هموم الكتابة المتجذرة في الذات والثقافة العربية إلى مجال الإبداع العالمي الرحب...

مكنته الغربة من تطوير تجربته الشعرية... وأعد أطروحة دكتوراه في باريس سنة 1981 نشرت في كتاب يحمل عنوان : «من أجل شعرية الأدب المغاربي الناطق باللغة الفرنسية : بحوث حول الآثار القصصية للكاتب مالك حدّاد»، وهو كاتب مثله عاش المعاناة من العنف التاريخي والقضية اللغوية، يدرّس الآن الأدب والنقد بجامعة ننتار بباريس.

يكتب البكري وينشر بالعربية والفرنسية وله اهتمامات عديدة بالتظاهرات الفنية والأدبية، والخط العربي والحفر والصور الفوتوغرافية والليتوغراف...

وهو بحق أحد سفراء الإبداع التونسي بباريس يحمل همومه وقضاياه ويبلغ إضافاته إلى الفضاءات العديدة التي ينشط فيها ومن خلال الدراسات التي ينشرها في المجلات العربية والفرنسية والاسبانية والانقليزية والاسكندنافية...

كنت، قبل أن ألتقي به، أقرأ له وعنه الكثير. أتذكر ما كتبه عنه أحد الصحفيين «إنه يتحاشى الصراخ والارتجال في تعامله مع المحيط والأحداث... فهو ذلك اللطيف المسكون بالطيبة والميل الى التفهم وكأنه أحد أبناء المحيط الهادي لا أحد أبناء المتوسط المنفعل... لهجته تخلو من كل ذم للغير أو خدش في سمعة الآخرين...»... وكانت تلك الصورة هي فعلا التي وجدتها في البكري عند أول لقاء به في جانفي 1992 في «محطة الشرق» بباريس. كنت أريد أن أسمع منه آراءه في القضايا التي تشغل بالنا : الديمقراطية والتحولات الفكرية الراهنة... أزمة الفكر العربي... الأدب التونسي في المهجر... طموح اتحاد الكتاب التونسيين ومكبلاته... الخ... قبل أن يصافحني بلطفه وابتساماته المعروفة، لا أدري لماذا كنت أستحضر ما صرح به يوما في إحدى المجلات : «إننا في تونس نخطىء خطأ فادحا حين لا ننظر إلى المبدعين كسفراء حقيقيين... نعم نحن غير قادرين على غزو العالم الا بالشعر والثقافة... شاعر واحد بالخارج يمكنه أن يجلب الاحترام للوطن ويثير الرغبة في زيارته... انه آن الأوان لنغير النظرة إلى مبدعينا في الخارج وبشكل جاد»...

كانت الذاكرة تتحدث عنه وله قبل أن نشرب القهوة ويتيه بنا الكلام إلى ضفاف الأسئلة المحرقة... تحدث بعمق ووضوح عن «قصيدة الانتفاضة الذاتية» وضرورة خروجها من الصراخ والارتجال... تحدث عن جرح المنفى وإعادة صياغة مفهوم «الهجرة» لتصبح فرصة «لحضارتنا لكي تدخل في حداثة هذا الكون»... تحدث عن الأدب التونسي في المهجر وشرعية انتمائه الحضاري الى الثقافة العربية وتطلعه إلى الأدب العالمي... تحدث عن حرية المبدع ومسؤوليته التاريخية لإعادة قراءة التراث وتحديث الثقافة والسلطة... تحدثنا عن مؤسساتنا الثقافية ومفهوم الوطنية بين البيروقراطية والحيوية التاريخية... كان يتحدث بهدوء بعيد عن التشنج ولكن أحيانا بمرارة أحسست فيها التزامه العميق بقضايا إبداعه وثقافته العربية وصدق وطنيته...

وسألته : «واتحاد الكتاب؟ ألم يحن الوقت لمبدعينا وكتابنا الكبار لكي يلتحقوا بهذه الجمعية التي تناضل من أجل أن يكون بيتهم وفضاءهم الشرعي للعمل والخلق والتواصل والنضال الجماعي الملتزم؟».

فكـر قليـلا في أهميـة السؤال وأجـاب : «أنـا ضـد التهميش والانـزواء والفردية العقيمة والنرجسية ... ما يحدث في الاتحاد مؤشر إيجابي يجعلني أتفاءل بقدرته على تجاوز مكبلاته... تطوير الاتحاد وإشعاعه هو مسؤوليتنا جميعا... وأنا مستعد للانضمام إلى الكتاب المناضلين الصادقين لتحقيق هذه الطموحات، بعيدا عن كل حسابات ومركبات... علينا أن نتجـاوز القضـايـا الهامشية وندخل في حركة التاريخ لأن التاريخ لا يرحم... فأنا، مثلا، أحاول من خلال نشـاطي في بـاريس، سـواء في الجـامعـة أو في صلب الجمعيـات الثقافية أو في معهد العالم العربي، أن أُعرِّف بالأدب التونسي وندعو الشعراء للندوات والأمسيات الشعرية... وهـذا العمـل يتكـامـل مـع مجهـوداتكم في تونس وعلينا مزيد التنسيق والتعاون من أجل هذه الأهداف».

تلك بعض محطات هذا اللقاء والملف الذي نقدمـه للقـارىء حـول هـذه الشخصية الأدبية التونسية يسلـط مـزيـد من الضـوء على أحـد مبـدعينـا وناقدينا، ومن خلاله، نطرح عدة قضايا مركزية تتعلق بالكتابـة والثقـافـة العربية : اللغة، التراث والحداثة، «المنفى»، الحرية...

عثمان بن طالب

مصادر الملف :

- «المسار المغربي» . مارس
- «النصر» . الجزائر . سبتمبر
- «الجالية التونسية» . أفريل 1991.
- «الفرسان» . عدد 645 . 1990 .
- «المغرب» . جوان 1989 . عدد 155.
- «منبر أكتوبر» عدد 20 . 1990 .
- «المجاهد» . عدد 1534.
- «فلسطين الثورة» عدد 44 .
- «المساء» الجزائر . جانفي 1990.
- «الاربعاء» عدد 48 .
- «اليوم السابع» جانفي 1991.
- هادية خضار . **انتولوجية الأدب المغاربي** . تونس .

حوار مع طاهر البكري*

الحوار مع طاهر البكري هو حوار مع شاعر ومفكر ومنظر واكاديمي ولذلك بقدر ما كان الاستمتاع مسيطرا علي وانا احاوره بقدر ما كنت متحفزا لكل كلمة او معنى قد تفتح للحديث بوابات واستطرادات جديدة وستلاحظون أن الحديث آخذ برقاب بعضه البعض وقد اخترنا فيه البداية من نقطة ما لنصل إلى نقطة محددة ارادتها استراتيجية السؤال ومنهجية الجواب.

سمير بن علي
«المسار»

□ س :

شيء هام أصبح متواترا في الساحة الإبداعية العربية هو اضطلاع الشعراء بدور تقعيدي أي أن المبدع صار يبدع وينظر وينقد ما يبدع وأنت من الممارسين لهذه الأنواع الثلاثة من الكتابة هل تعزو ذلك إلى إحساس الشعراء بغياب القادر على ملاحقة نصوصهم أم ترده إلى اللحظة المعرفية الهامة التي صار فيها المبدع يعبر عما يريد في لحظات لا واعية (الإبداع الشعري) ولحظات واعية (الإبداع النقدي والتقعيدي)؟

□ ج :

إن الشعراء يساهمون اليوم في بعث حداثة عربية جديدة تنطلق من مفهوم الشاعرية والشعر ذاته فالبحث عن حداثة عربية لا يعني أن الشاعر لا يهتم بأنماط أخرى من الكتابة وأنا إن كنت لا أحبذ التنظير لأنه من خصائص الفكر الفلسفي فإني أرى أن المبدع عليه الاطلاع على النظريات

---

* حوار أجرته «المسار» مع طاهر البكري بمناسبة مشاركته في ندوة «حرية الإبداع في الوطن العربي» . (تونس 25 ـ 26 و27 سبتمبر 1992).

الكلاسيكية والمساهمة في بعث إبداع جديد وربما كان تاريخ الإبداع العربي حافلا بهذا فهناك مبدعون عرب بحثوا في هذا مثل الشابي وفي الغرب تتكرر التجربة وأذكر لك ميشال دوغي مثالا فالشعراء يكتبون الشعر كما يساهمون في بلورة الوعي بالاشكال داخل النص وخارجه حتى يكون العمل الابداعي ذا قيمة جديدة.

□ س :

هذه المسالة تقودنا إلى احد أهم المعوقات التي تعترض النص الإبداعي العربي وهو الاستباق التنظيري حيث تعد النظريات بما ينوء بحمله النص؟

□ ج :

المبدع الحقيقي هو الذي لا يختل إبداعا وتفكيرا فنحن نعلم أن الشعراء حتى وان نظروا تبقى كتاباتهم حية وديناميكية وهذه الديناميكية تعطي جمالية خاصة بالمبدع فالمهم بالنسبة له الا يصبح النص عملا ميتا وما يزعجني حقا هو أن ننظر إلى النصوص الابداعية كأجساد ميتة في حين أن الأدب هو الحياة.

فالمبدع الحقيقي هو الذي يعطي التفكير النظري هموما جديدة وأبعاد إنسانية تحاول التقدم في الفكر الانساني والمثال بسيط في الأدب الغربي في القرن 19 بودلير الذي أبدع في شعره ويعتبر واضع الحداثة الغربية.

□ س :

على ذكر الحداثة هذه الكلمة صارت أشبه ما يكون بالتميمة السحرية أو إكتشاف العصر ولكنها قيدت زمانيا في حين أنها حضرت في التاريخ الإبداعي في أكثر من مناسبة فبشار كان محدثا في عمود الشعر العصري وأبو تمام اتهم بخروجه عليه أما أبو نواس فأحدث في القصيدة ما أحدث ولكن منذ نصف قرن تقريبا والكثير منّا يردد كلاما عن قيام حداثتنا ويحتج بكسر عمود الشعر فما هو موقفك من هذه المسالة؟

□ ج :

أنا من موافقي الرأي الذي يرى أن التاريخ الإبداعي يشتمل أكثر من

حداثة بل أن لكل شعب وحضارة حداثة والصراع بين القديم والحديث دائم ونحن نجحف في أمر من جددوا سابقا إذا اعتبرنا الحداثة العربية تبدأ من الخمسينات فقد تكون أقرب إلى المعاصرة منها إلى الحداثة فالمهم بالنسبة لي ألا تكون الحداثة تقليدا. وكم من قديم أحدث من جديد معاصر يبدو لي أن العودة لقراءة التراث من زاوية محاولة إيجاد فكر جديد اشترك فيها مع بعض الشعراء والكتاب اليوم ويبدو لي أن البعض اخطأ في فهم الحداثة حتى اعتبرها مثلا أعلى وملكا للغير فحداثتنا يمكن أن تنبع منا لا بالانزواء والانغلاق والإنبتات بل بالتجذر وإيصال البعد الإنساني للإبداع فلا يمكن أن نتصور مبدعا خائفا من الآخر إذ أن الخوف دليل على الضعف والموقف الإبداعي مصدر قوة جمالية فهو واصل إلى الآخر والاهتمامات الابداعية العالمية تبحث دائما عن أصوات ذات قيمة في كيفية صياغتها الجمالية.

ويطول الحديث عن الحداثة العربية وربما وجب التريث والتربص حتى لا نتسرع في المفاهيم ونكون قد اخطأنا في بلورة الجمالية.

والنقطة المهمة في هذا الباب وهي التي تبعث ببعض الشعراء والكتاب في هذا الخضم هو محاولة الخروج من اللغو والخطاب المباشر والعقائدي المفقر للكتابة. أنا لست ضد السهولة ولكني مع سهل ممتنع والكتابة العميقة لا يمكنها دائما أن تجيب بسهولة فهي حيرة وقلق ومعاناة وتساؤل ويبدو لي أن الأعمال التي تعجب بها دائما في تاريخ الابداع هي التي تبعث فينا جملة من التساؤلات.

□ س :

لنحدد موضوعنا أكثر أنت مثلا تخوض شكلا خاصا من الكتابة قصائد قصيرة مستقلة تنتمي لنص طويل يجمعها وفي الآن نفسه تدور أغلب قصائدك حول أقنعة وشخصيات تعبق بالتراث أمرىء القيس (الملك الضليل) فهل هي محاولة للوقوع على ذلك الخيط الواصل بين الأصالة والتحديث؟

□ ج :

الطريق الواصل مسألة صعبة ولكني أقول أن لكل شاعر تجربته وحداثته وهمومه ولغته ولا يمكن التعميم ها هنا فالابداع همومه روح الانسان وجسده بحضوره الآني والتاريخي. وبالطبع هذه القصائد القصيرة المستقلة داخل نص طويل تعبر عن موقف ورؤية أسلوبية

ومعنوية فهي تجسد هموم رجل الجنوب الذي لا يحس ان الجنوب كاف لان يكون العالم فالبحث عن الآخر الانسان الذي يسكن نفس المعمورة ضروري. حتى للتعرف على النفس إن الشعر والابداع عبور وأنا أكره المياه الراكدة. **أنا مسافر أحب الجمال المخالف لموقع الانطلاق.** وأدب الرحلة أو السحرية والغرائبية تبين ما أقول أنا أحبذ الاطلاع على الغير الذي قد يثري رؤيتنا لما نصبو إليه من حب للإنسانية فلا يمكن ان نقف عند حب مجموعتنا وأوطاننا بل ان هموم الآخر تهمني وهذه مسؤولية الشاعر الكبرى (الشاعر المسكون بالعشق) فنحن في حاجة دائمة إلى الشعور بانتمائنا إلى أطراف الدنيا فكل كتاب أنشره يكاد يكون مجموعة رؤى تنطلق من بلدان عديدة تنطلق من الذاكرة العربية والخيال العربي لكنها تحاول الالتقاء بالحضارات الأخرى والعالم الرحب.

☐ س :

الطاهر البكري ليس فقط مبدع تونسي مهاجر ولكنه أحد أضلاع تجربة بدأت تتضح معالمها الكتاب المغاربة بفرنسا فهل تعتبر كتاباتكم ذهاب للآخر أم هي عود من الآخر إلى الوطن.

☐ ج :

نحن نكتب دائما لرغبة ملحة لضرورة قبل أن نفكر في النفس أو الآخر والابداع الحقيقي كالماء والهواء والعناصر الأساسية للحياة فتصبح التعابير الابداعية للغة الغير في غايتها القصوى ثانوية نحن لا نكتب للغير بقدر ما نكتب لأنفسنا لا من باب النرجسية بل من باب التعبير الضروري عن الحياة والكون فإن نجح العمل الأدبي في إيصال صوته إلى الغير (الآخر) فإني اعتبر هذا العمل ناجحا وربما كتب له الدوام فالمهم بالنسبة لي هو أن نوجد لدى القارىء سواء كان عربيا أو أجنبيا هموما وتساؤلات يشترك فيها معنا ككتاب وحملة آراء أما أن نجعل من المسألة اللغوية محددا أوليا للإبداع فهذا يزعجني شخصيا. وما ألاحظه وأنا أتابع عن قرب العديد من المؤلفات المغاربية أن هناك ظاهرة ربما اختص بها جيل الثمانينات هي التأصل في التراث ولكن لا من باب الماضوية أو السلفية بل من باب إيصال هذا التراث إلى الآخر إيصاله بصفة محددة وحديثة حتى لكأننا نضطلع بالدفاع عن الابداع العربي الذي طالما تجاهله الغير لا الغير الصديق بل المعادي للحضارة العربية.

فالعودة إلى التراث من باب الحداثة هـو فتـح نـافـذة على العـالم وهـذه النافذة هي التي يجب على الافراد ان يطلوا من خلالها على الآداب العـربيـة التي كانت من اختصاص المستشرقين فقط فهو إذن شعور جديد بـأهمية اعطاء الأدب العربي قيمة انسانية وسـآخـذ مثـالا بسيطـا «الملك الضليـل» ديوان خصصته لامرىء القيس فأنـا عنـدمـا كنت أكتب على لسـانـه هـذا القصيد الطويل ذهبت إلى موضوع الهيام لا فقـط هيـام الانسـان العـربي المعاصر بل مأساة الشاعر العربي قـديمـا وحـديثـا وكنت أذكـر وأتـذكـر الأبحاث النقدية الهامة حول الألياذة والأوديسية لهـو ميروس ولكن العـالم يذكر هوميروس ويجهل الآداب العربية القديمة لما طغى على الفكـر الغـربي من مركزية وهنا كان دور المبدع العربي داخل الوطن العـربي أو خـارجـه إيصال هذه الهموم المشتركة فالهموم الابداعية واحـدة في تـاريـخ الابـداع

ولكن كيف نقرب هذه الهموم القـديمـة من الهمـوم المعـاصرة وهـذا مثـال بسيط على امتداد الإبداع لأننا لا ننطلق من لا شيء.

□ س :

في نفس الإطار المبدع المهاجر يمتلك هـامشـا من الحـريـة أكبر ممـا يتوفر للكاتب المقيم في بلاده؟

□ ج :

المبدع المهاجر يشعر فعلا بحرية فالابداع هناك لا تقيّده محرمات فكرية وجمالية وسياسية وأخلاقية كتلك التي تقيد المبدع العربي من رقابة ذاتيـة أو خارجية وحينما نتحدث عن الحداثـة لا يـدور الحـديث حـول تجـربـة تجريدية بل هي ممارسة فعلية لتحديث الابداع وعصرنته وقد كنت اندهش لحرية هذا المبدع الغربي الذي لا يخشى ان تتدرج همـومـه خـارج وطنـه وأذكر مثالا كيف يكتب الشاعر السويدي (غونـرايكـوف) من مـوقعـه عن الصوفية الاسلامية أو كتابـات الشـاعـر الـدنـماركي الكبير «هنـريك دور برانت» ويكاد يكون شعره مكتوبا في الشرق الإسلامي. هذه الأمثلة تغيب في الشعر العربي لان المبـدع العـربي إذا مـا حـاول الكتـابـة عن البرازيـل أو هولاندا أو كندا يرفضه القارىء العربي ولا يهتم به والنتيجة الحتميـة هي الإنزواء ووجـودي في بـاريس منـذ سنـوات مكنني من الشعـور بـأهميـة انفتاحنا على الانسانية حتى لا نقيد انفسنا فيما نحن ننادي بكسر القيود.

□ س :

ركزت كثيرا في حديثك عن المحلية والعالمية وتربطه بقضية الحرية فهل تعتبره بالتالي شرطا ومحرارا لقيام الإبداع؟

□ ج :

سألج الجواب من موقع مختلف أنا أقول لا حرية للابداع بدون مبدع حر والمحلية التي اعتبرها أحد نتائج الستالينية الثقافية أي المبدع الذي يكتب ويبلغ إبداعه قبل كل شيء إلى شعبه فالابداع حسب رأيي الموجه إلى الذات الاجتماعية لا يعني المحلية بل الانطلاق للتوجه للانسان عامة أخذ مثالا تكاد تكون روايات نجيب محفوظ منحصرة في أحياء القاهرة لكنها تتعداها إلى مصر والوطن العربي والعالم حيث يجد فيها القارىء صدى لشخصيات يعرفها وقضايا يعيشها وعندما تحصل محفوظ على جائزة نوبل كنت كتبت مقالا في باريس وقارنت عالمه بعالم جورج أمادو الروائي البرازيلي الكبير وقلت في هذا المقال ان رؤية هذا الروائي الكبير تتحدث عن مدينة باهيا فوجه الشبه بالنسبة لي بين الكاتبين في خروجهما من المحلية الى الكونية من الحي والمدينة إلى العالم وحسب رأيي في هذه المسألة المهم هو الوصول.

□ س :

كثر الحديث عن تراجع الشعر أمام الرواية والسينما وضروب أخرى من الإبداع ؟

□ ج :

الإنسانية في حاجة إلى الشعر لأن الشعر إحساس ككل الفنون بالوجود الانساني، الإنسان، الذي يعطي حبه للجمال والحياة والرافض لسلطة الموت على الانسان المعاصر فهو المصارع الدائم والمحس بهذا الحب وهذا الجمال وكنت أشرت إلى مسألة الصورة فعلا ان الشاعر يرى بالكلمات يرسم أحاسيس وهواجس الانسانية والشاعر اليوم هو الذي يتصدى لهجمة التكنولوجيا والكومبيوتر حتى تبقى انسانية الانسان إذ كل شيء يطغى في عصرنا اليوم على أن يصبح الانسان لعبة أو جسدا هامدا خال من كل إحساس والشعر والشاعر يسعى إلى تسخير الوسائل التكنولوجية للشعر

ومن ذلك صدور شريط مسجل **نسغ الأيام** وختاما أؤكد أن الكلمة أهم لحظة لتحدي الموت.

☐ س :

... لكننا نلاحظ اليوم تصاعد لهجة أولئك الذين ينظرون لنهايات الشعر لصالح أشكال أخرى (الرواية والمسرحية والقصة...) باعتبار الشعر قد أستوفى أحقية حضوره.

☐ ج :

حضور الشاعر شيء محبب في البلدان الغربية رغم ما يكتب عن انقراض الشاعر لفائدة الرواية والصورة فهواجس الشعراء باقية ببقاء الانسان ولعل هذا ما يجعل من إبداعنا يقظا حتى وان كانت هذه اليقظة غير شاملة. ملاحظة أخيرة أريد إبداءها أن هناك شعراء وكتاب يحسون بالرغبة في الالتقاء مع الآخر ويشعرون بضرورة الترجمة إلى لغات أخرى في حين كان الرأي الغالب في السنوات الأخيرة الاكتفاء بهموم الوطن العربي وكأني بالصدمات التاريخية المعاصرة التي عاشها المجتمع العربي تبعث المبدع العربي وتشكله من جديد.

☐ س :

اكدت أكثر من مرة على قضية التواصل الانساني والوصول الآخر ومن هذا المنطلق بالذات نسألك هل الوصول إلى الآخر هو الكتابة بلغته كما يحدث في بعض التجارب أم الترجمة خصوصا ونحن منذ قرنين أحسسنا باهمية الترجمة إلى لغتنا وإلى اليوم وحركة الترجمة من كل اللغات تعتبر إحداهم أوكد الحاجيات والموضوعات التي تطرح باستمرار في مجتمعاتنا وفي المقابل ما يزال الوصول الى الآخر يمثل عائقا كبيرا.

☐ ج :

أنا معك في اننا مهتمون جدا بالمعارف الواردة علينا وكذلك اهتمامنا هذا آخذ في التصاعد ولكن ما أؤكده كذلك أننا مازلنا رغم ذلك في موقع متأخر نسبيا في هذه المسألة خصوصا إذا اعتبرنا عامل الزمن أما عن الوصول إلى

الآخر فاعتقد ان هناك أكثر من أسلوب وطريق والآخر بقدر ما نحن في حاجة إليه هو في حاجة إلينا ولكن هذا لا يحجب أن علينا طرق كل الطرق لإيصال إبداعاتنا إلى اللغات الأخرى خصوصا والعالم اليوم يرفع شعار لغتي وثقافتي في بيتك وبدون استئذان من خلال الاقمار الصناعية والتلفزات والافلام وكذلك المليارات لإيصال ثقافة تحمل تصورا ورؤية كاملة كما لا ننسى أن هناك أطنان من الكتب بالفرنسية والألمانية والانقليزية تمنح كهبات في كل سنة نحن من موقعنا علينا أن نتحرك لايجاد مكان لابداعاتنا وثقافتنا في هذا الخضم من تشجيع للمبادرات الفردية والجماعية للنقل والترجمة للغات الأخرى وقبل ذلك علينا أن نعي ماذا سنقدم لهذا الآخر وماذا سنضيف إليه.

□ س :

إصرارك على هذا التواصل يظهر في مزاوجتك في الكتابة بين لغتين وكذلك من خلال هذا التجاذب الذي يحكم كتابتك بين عالمين مختلفين عالم راسخ الاقدام في التاريخ وآخر يطرح نفسه كقائد لهذا العالم، العالم الأول بحكم الانتماء والثاني بحكم إرادة التواجد.

□ ج :

قد يكون هذا ما ذهبت إليه وربما كان فيه الكثير من الصحة وأنا إذ لا أضخم في قضية اللغة فإني مصر على قضية الأصالة والتواصل الذات كهوية ومنطلق والتواصل كتباهي مع البعد الانساني...

□ س :

ختاما : الساحة الشعرية والادبية التونسية كيف تبدو لك؟

ج :

لن أضيف أكثر من قول المتنبي : «على قلق كأن الريح تحتي...».

هي فترة مخاض في انتظار الولادة.

حاوره سمير بن علي

تونس ـ أكتوبر 1992

ارتسامات حرة حول حرية الإبداع *

طاهر البكري

كنت وأنا أقرأ في القطار الذي كان يحملني من باريس الى كوبنهاق رواية اميل حبيبي الأخيرة «سرايا بنت الغول» (دار الرّيس 1992) أعيد الإنتباه الى مقدمة المؤلف أو خطبته كما كان الأقدمون يسمون مقدمات مؤلفاتهم وأعيد قراءة بيت ابي الطيب المتنبي:

لا خيـل عنـدك تهديهـا ولا مـال
فليسعد النطـق إن لـم تسعـد الحـال

وبالطبع فإن أميل حبيبي يختلف مع شاعرنا ساخرا مذكرا «أن الحقيقة الإجتماعية أبعد غورا، فإن لم يسعد النطق، لم تسعد الحال».

ولست مختلفا كثيرا عن اميل حبيبي إذ يبدو لي ان حرية الإبداع هي من المدلولات الكبرى على سعادة النطق وسعادة الحال في مجتمع ما. كنت بعد الفراغ من قراءة الرواية أقف عند العنوان وأرى فيه استعارة ومجازا للموضوع المطروح علينا ولا شك ان أوجه الشبه قريبة جدًا.

إن أميل حبيبي وهو يعبر دروب الآلام بحثا عن سرايا التي اختطفها الغول، سرايا، هذه الفتاة التي احبها في صباه، سرايا، الأرض المغتصبة وضاعت كفلسطين في متاهات الأسطورة حتى جاءت روايته خرافية فلسطينية، تقطر اسطرها دما من براثن الغول وتحاول تسريح الذاكرة من

* نص المداخلة التي قدمها طاهر البكري في ندوة «حرية الابداع في الوطن العربي» والتي نظمها الاتحاد بمقره أيام 25، 26، 27 سبتمبر 1992.

تحت اقدام الزمن، يعبر أكثر من رمز الى الحرية.

وإحساسي الشديد ان حرية الابداع في الوطن العربي لا تختلف بكثير عن سرايا هذه التي اختطفها الغول. كلنا يحب سرايا وكلنا يبكي سرايا ولكنها تضيع ويبقى المبدع هائما، مغتربا داخل الوطن أو خارجه يبحث عن سرايا، فما سبب الآمر؟ أهي حتمية التاريخ العربي المعاصر التي تفرض على المبدع هذا المصير أم ان مسؤولية المبدع في أوطاننا وبلداننا لا أهمية لها ما دامت مكانته لا ثقلَ لها سياسيا أو اجتماعيا زد على ذلك أن مفهوم السلطة الذي يعتمد على الخوف من كشف وبلورة الحقائق السياسية أو الإجتماعية يضع المبدع العربي في صف المشبوه فيهم ويعتبره عدوا وجبت محاربته لأن الحقيقة الرسمية لا تقبل الشك أو المخالفة أو الإعتراض، كأن التفكير المؤمن بوحدانية الحقيقة هو الطريق الوحيد لإسعاد الحال.

ويطول هنا سرد الأمثلة على انتهاكات حرية الإبداع داخل الوطن العربي من حجز منشورات الى الزج في السجون بمبدعيهم - على شتى انواعهم وتعابيرهم الثقافية - لم نشك يوما في اخلاصهم وحبهم لشعوبهم وأوطانهم.

ومن السهل جدّا أن نصعّد الخطاب المنادي بحرية الإبداع وممارسة الديمقراطية ومن لا يقول بحبه لسرايا؟

ولكن اريد ان أقف عند هوية الغول حتى نكون صريحين مع أنفسنا وأتساءل: هل ان دفاعنا عن سرايا وتضحيتنا من اجل انقاذها ومحاولة فكها من الغول هو في وزن الهامة التي اختطفت ولا زالت تختطف مصداقية العديد من المبدعين العرب الذين لم يفلحوا في حراسة سرايا ؟.

ويصعب الأمر هنا في فرز الغث من السمين والمصيب من المخطىء، والمنادي الحقيقي بحرية الإبداع من الذي يعلو صراخه بهتانا وكذبا. ألا ترون معي ان حرية الإبداع في غالب البلدان العربية قد قيدها مبدعون ومثقفون منّا وفينا.؟

إنه لمن البديهي في بناء السلطان والملك ان يعمد الحكم القائم الى كسب الأنصار من المثقفين لدعم مناهجه السياسية وترويج رؤيته الثقافية ولكن الأمر الذي لا يمكن قبوله هو منع حرية الإختلاف في الرأي والرؤية والمسك بزمام الحرية عند ضرورة النقد المسؤول والمصيب. والأمثلة الشاهدة على هذا كثيرة - مع الأسف - في تراثنا الإبداعي:

من مصير ابن المقفع الى مصير الحلاج وابن الرومي وابن حزم الى غيرهم. ولكننا في هذا الباب لا نختلف كثيرا عن شعوب عديدة أخرى عبر تاريخ الإبداع الإنساني وخاصة منها بلدان العالم الثالث أو البلدان التي

أقرت مذهب الحزب الواحد.

ورغم كل هذا فاسمحوا لي أن أعتبر أن حرية الإبداع لا تقف - مهما بلغ كفاحنا من أجلها - عند إيجاد القوانين الملائمة لها وتوفير المناخ الديمقراطي اللآزم لانتعاشها وتطورها بل وجب كذلك التقييم الحقيقي للإبداع المؤمن بحرية الكلمة، خيالا وواقعا، بحثا وتجديدا، تقدما ورفضا لعصور الظلمات، شعورا عميقا ومسؤولا نابعا من حق الإنسان في البحث عن الحقيقة فردية كانت أو جماعية. ولا يكفي - حسب ما يبدو لي - وجود الديمقراطية لإيجاد إبداع حرّ ذي قيمة.

يقول الكاتب الألباني، اسماعيل قدري في حوار نشرته جريدة لوموند في 7 ماي 1992:

« والمحزن احيانا أن مثقفين لم يفعلوا شيئا من أجل الديمقراطية، يصرخون اليوم عاليا ويعتقدون أنهم ان كانوا رديئين أيام الدكتاتورية فإن الدكتاتورية هي التي جعلتهم على تلك الحال من الرداءة ولكنهم سيبقون دائما رديئين حتى في ظل الديمقراطية.» ويضيف اسماعيل قدري في مكان آخر من الحوار :«كنت أعلم ان روايتي «قصر الأحلام» ستمنع ولكن ذلك لم يمنعني من كتابتها»

لا حرية إبداع بدون مبدع حر، فالمبدع الحر هو صانع حرية الإبداع في كل مراحل حياة الشعب وهو القلب النابض الذي لا يتنازل عن حبه لسرايا...

وأضيف أن الإبداع الحر لا يمكن أن يكون بتخلي المبدع عن الهموم الحقيقية للإبداع كان يصبح بوقا للدّعاية أو وعاء تصب فيه أفكار غيره. والإبداع الصادق معاناة وممارسة فعلية للمشاركة في المغامرة الإنسانية الكبرى في حقل الإبداع الخصب دون جهل الاهتمامات بهموم اللّغة وأشكال المضامين وحداثتها. وأريد أن أضرب لكم مثلا من محاضرة استمعت اليها أخيرا في باريس حول «الأدب والذاكرة»، وكان يلقيها الكاتب الفرنسي كلود سيمون، المتحصل على جائزة نوبل للأداب ويعتبر من رواد الرواية الجديدة. يروي كلود سيمون هذه النادرة لمحاولة التعريف بماهية الأدب ويقول:

«كنت ضيفا على إتحاد الكتاب السوفيات في موسكو قبل التغيرات الأخيرة فسألني أعضاء من الإتحاد: ما هي شواغلك الآن ككاتب فأجبت: «لي ثلاثة المسألة الأولى هي كيف أبدأ جملة ما والثانية هي كيف أتابعها والثالثة هي كيف أنهيها.» يقول كلود سيمون «فخيّم صمت رهيب على القاعة»، وبالطبع فإن كلام كلود سيمون أثار الضحك في القاعة الفرنسية ووجدتني محتارا

بين هذين الموقفين: هل يمكن للكاتب العربي أن يتمتع بكل هذه الحرية ويمارس إبداعه بكامله متفرغا كليا الى هموم الكتابة ـ ونحن هنا في باب الإبداع الأدبي ولا أعتقد أن الأنواع الإبداعية الأخرى تختلف عن هذا ـ أم أن حرية الكاتب العربي مقيدة بالهموم العامة والفردية حتى أنه ليجبر على التضحية امام الممارسة الفعلية الخالصةوخاصة اذا حاول التجديد ورفض أن يكون إبداعه منهجا تعليميا مبتذلا واعظا ومرشدا خاليا من كل حيرة أو قلق أو شك أو تساؤل عميق. ولذلك أعتقد أن الكاتب مهما كان شعوره بالمسؤولية الفكرية لا يمكنه التنازل عن حريته كمبدع مطالب قبل كل شيء بالتجديد وإيجاد الأشكال الملائمة لمضامينه والبحث في أغوار اللغة وركوب ركب الحداثة التي تساهم بحق في تطوير حرية الإبداع.

بقي أن حرية الإبداع هذه إن وجب لتحقيقها قبل كل شيء الإعتماد على المبدع الحر فلا بد لها كذلك من احترام المجتمع لمبدعيه وأعطائهم المكانة الائقة بهم حتى لا يكون إبداعهم تكسبا وجريا زائفا وراء إسعاد الحال. وهنا أشير الى ضرورة الإعلام ووسائله السمعية والبصرية والكتابية في بناء ابداع حرّ يجلب احترام المجتمع واختلاف أرائه.

كنت منذ سنتين ضيفا على اتحاد الكتاب الأتراك بمناسبة انعقاد مؤتمر الكتاب الإفريقيين والآسويين وكان الكاتب الكبير عزيز نسيم وهو صديق الشاعر ناظم حكمت يعاتب مازحا وزير الثقافة التركي الشاب قائلا له:

«ان تعتبرني كاتبا معارضا لك فهذا لا يعني ان وزارتك تمنع جمعية الكتاب التي انتمي اليها من حقها في التمتع بمساندة الدولة للإبداع لأن كل هذا الإبداع ينتمي الى تركيا». فابتسم الوزير وكان شاعرا من بين المعجبين بالأديب قائلا «نعم استاذي الكبير»

كنت وانا استمع للمترجمة وهي تأتينا بهذا الحوار الشجاع بين الحلم واليقضة أفكّر في كل المبدعين العرب الذين عجت بهم عواصم الدنيا، مهجرين، منفيين، مغتربين، باحثين عن حرية الإبداع، البعض قذفت به سجون الوطن العربي والبعض الآخر يتحاشى حديد سلاسلها. وأينما حللت في العواصم الأوروبية أو البلدان الأمريكية فإنك واجد غفرا من المبدعين العرب يحاولون إبقاء مشعل الحرية مضيئا ولو من بعيد ولعلّ سرقة النار هي من الخصائص الأولى لحرية الإبداع حتى لا ننسى سرايا ولا نضيعها ونكون مخلصين لها.

باريس 1992

تقاطعات حوارية
مع طاهر البكري

آراء ومواقف في الشعر والفكر

تنسيق عثمان بن طالب

- «الكتابة عبور وأنا أكره المياه الراكدة» .
- «الشعر : إحساس بعمق العالم وبحر يحترق».
- «سلمى : دلالات إبداعية في ذاكرة الشعر».
- «التفاعل بين الأدب العربي والآداب الغربية» .
- «هل العرب خارج الصراع الفكري العالمي» ؟.
- لكل شعب حداثة ولكل عصر حداثات».
- «هل من معتزلة جديدة؟».
- «الغربة صيغة أوجدها الآخر».

طاهر البكري

○ التمسك بالموقع الحقيقي للإبداع :

الحركة الثقافية بتشعبها داخل العالم العربي هي صورة من هذا العالم، وهي تواجه أصعب أوقاتها للظروف التاريخية الحالية المعروفة. وأمام العالم المتغير إنسانيا، إن الحركة الثقافية تتحمل مسؤولية كبرى تجاه الشعوب العربية وموقف المثقف عامة، من هنا كانت الاختيارات أمام هذا المثقف اختيارات صعبة لتشعبها وعدم بلورة الفكر وعدم التريث والتبحر ببواطن الأمور. المطلوب في السنين القادمة من المثقف كيفية المواجهة بذكاء وعدم التخلي عن الموقع الحقيقي للإبداع.

كيف يمكن إذن القيام بدور ناجع وفعال دون أن يتخلى المبدع عن عملية الكتابة بالنسبة للكاتب أو لأي مبدع عامة؟ المرحلة الأخيرة جعلتنا نلاحظ محاولة الخروج من الخطاب الدعائي الذي اجترته الحركات السياسية عامة.

○ الشعر :

إحساس بعمق العالم، إنه هذا البحر الذي يحترق

إنه انصهار منسجم لعالم الإحساس وعالم الإدراك، وهو القدرة على تحقيق الوحدة الحميمية الأولى بين الانسان والكون، بالنغم والدلالة، بالصورة والإيقاع. إنه إرادة البوح والتصريح بجمال العالم وقساوته. إنه الرغبة في فضح «المنطق الجهنمي» للعالم المعاصر وكذلك فتح النوافذ على الطيبة الإنسانية فيه.

الشعر قطع في جسد اللغة، هو ترميز في اندفاعه الخيالي. إنه عشق وحالة روحية متواصلة بدون نجدة. انه التورط الكامل والمطلق ... الذي يصل إلى حد الاعصار...

إنه قسمة الألم وموطن الأخوة يترصد الالتقاء بين البشر... إنه السفر في عالم أسرار الكون اللامتناهي... إنه إضاءة النغم تحكي جمال الدنيا وقلبها النابض... انه مقاومة الموت والنسغ الذي يغذي ملحمة الأيام... انه الريح حرة تقبل رحيق الحياة... إنه هذه الشعلة التي نفتكها من الظلم والقهر والهمجية.

إنه الشعر : بحر يحترق .

○ «سلمى» : دلالات إبداعية في ذاكرة الشعر :

سلمى ... هي أكثر من اسم فتاة أو امرأة... هي ذاكرة الشعر... إنها عربية... وتجذرها عربي في تاريخ الأدب. ولكن نلتقي بهذا الاسم في حضارات أخرى مثل حضارات السلت وكذلك عند الشاعر الألماني غوته في القرن الثامن العشر ونجد هذا الاسم في شمال أوروبا عند شعوب اسكنديتافيا.

«هذا الإسم أصبح لي عبارة عن رمز النقاء الحضارات للأدب والإبداع وتجذر في الذاكرة. هذا التجذر لا يعني الانغلاق على النفس أو على الخيال. فالخيال الشعري هو توق إلى أفق بعيد وهو الشعور بأن الانسان حيثما يكون ومهما كان تجذره في الذاكرة فالحاضر يتطلب منه جهودا للالتقاء بالآخرين... الشعر العربي مطالب اليوم كذلك بالدخول الى العالمية...» لأنه صوت العرب اليوم في التعبير عن المشاكل السياسية أو الروح العربية... **ولأن القصيدة** هي أرض في القلب... وهذه الأرض هي مركزية الإبداع وهي الذاكرة وهي الأم... **إني أحمل الأرض في قلبي وأرحل في بلاد الغربة**... الأرض لدي في بلاد المهجر هي التاريخ العربي والحضارة الانسانية العربية... هي نقطة الجذب والعودة من أجل انطلاقة جديدة... في كلمة : إنها الشعر... وهي كذلك دلالة «نشيد الشاعر الضليل» ورد اعتبار للشاعر العربي من خلال إمرىء القيس الذي غير صورة لحالة الشعراء والمثقفين العرب «الهائمين»...

لعل أشعاري هي، في نهاية الأمر، محاولة لتاريخ الإبداع العربي... الشعر العربي هضم حقه من طرف مؤرخي الأدب عالميا خاصة عندما نذكر أن طه حسين قارن إمرىء القيس بهوميروس... الشاعر الحقيقي اختلط بالأسطورة...

عندما نحاول كتابة التاريخ تبقى المسألة متمثلة في كيف لنا أن نشارك بأعمالنا الحضارية إنسانيا وبالتالي كيف نساهم في إعطاء طابع كوني للحضارة العربية.

○ «الغريب من كان في وطنه غريبا»

«المنفى»... كلمة مشحونة بمفاهيم الغربة والاغتراب والمنفى الإجباري والمنفى الاختياري ثم الشعور بالغربة داخل الوطن نفسه كما كان يقول أبو حيان التوحيدي «الغريب من كان في وطنه غريبا»... إني اعتبر أن تجربة

المنفى هي من بين المصادر الكبرى للابداع المعاصر لأنه مبعث للالتقاء مع الثقافات الأخرى وهذا شيء يساعد على تجاوز الإنغلاق على النفس. كما أن المنفى رغم المعاناة والإحساس بالألم قد يولد أحيانا روائع أدبية أو إبداعية ندين لها بنضج الفكر الانساني... لقد ترك لنا مثلا ابن حزم هذا المؤلف الرائع «طوق الحمامة» وقد كتبه في منفاه كما أن المنفى ولد قصائد مؤثرة جدا في انسانيتها عند علي الحصري وهو في الأندلس بعد مغادرته للقيروان. زمن الزحف الهلالي عاش العديد من المبدعين التونسيين تجربة الابداع في المنفى كإبن رشيق وابن شرف.

إن أجمل منفى هو الذي نلاحظه في إبداع الشاعر سان جون بارس وهو هيام شعري متجذر في الذاكرة الثقافية، هيام يشمل البلد الأصل والانتماء إلى كامل الانسانية يتجاوز في ذلك المعاناة الداخلية والذاتية للإبداع وبتلك الصفة يكون المنفى سفرا في توليد الإبداع وإعطائه الأبعاد الحقيقية الكبرى في ممارسة اللغة والخيال.

إننا مجتمعات مهاجرة. مجتمعات يأخذ المنفى حيزا هاما من وجودها وتكوينها وبنيتها. وتتعدد منافيها وتتنوع طبقا لظروف كل زاوية من زوايا حياتنا، ثمة المنفى الاضطراري، والمنفى الإختياري، وإن كنت لا أعتقد بوجود غربة اختيارية بالمعنى التام.

الغربة صيغة أوجدها الآخر ولا تتحدد إطلاقا بالفكرة الساذجة : الذهاب إلى هناك... المنفى أن تضطر للذهاب إلى هناك... أن تتشكل هناك أيضا.

هناك منفى العمل... ومنفى الدراسة... والمنفى السياسي... وهنا سأجد للشعب الفلسطيني خصوصية في منفاه، أو اقتلاعه وتعدد هذا المنفى وتواليه. هذا الشعب، رغم منفاه، ينتج خارج أرضه معرفة وثقافة وإبداعا ويطورها بحيث استطاع عبر هذه التجربة أن يعيد ترميم الوطن وذاكرته واستطاع في منفاه أن يحمي وطنه وأن يبقيه حيا مستمرا ومتطورا بحيث استطاع الجيل الثاني والثالث أن يعمق أشياءه وعلاقته بأرض تكاد تكون غائبة...

الغربة بالنسبة لي هي اكتشاف واستكشاف للذات وللهوية الثقافية... حين أسافر وأقف في الدانمارك عند قصر هاملت، فأنا لا أستحضر فقط تلك التراجيديا الشكسبيرية الرائعة... بل أستحضر كذلك عذابات ابن شرف والحصري وانطونيو ماتشادو. وحين أكتب «نشيد الملك الضليل» أكون بالتالي قد كتبت عن امرىء القيس والتقي بهوميروس، إن زيارة المكان ليست بالضرورة لحظة الوقوف المرّ على ما فات بل ان المكان هو تلك النافذة التي يرى المبدع من خلالها كونه وذاته. هل نرفض بوشكين

وأخماتوفا وشيلر ووايتمان وسفوكل ورامبو وسان جون بارس بدعوى أنهم غربيون أم نعترف بغرب يعادي الشرق وغرب يدافع عن حرية الإنسان.

إن المهجر فرصة لحضارتنا لكي تدخل في حداثة هذا القرن.

○ التفاعل بين الأدب العربي والآداب الغربية : هل المعادلة متكافئة؟

موقع الأدب العربي في الغرب، الآن، هو وليد حكم النقاد العالميين، ولكن تخلي الدول العربية عن مساندة حركة الترجمة لعب دورا سلبيا في تقويم التفاعل الثقافي مع الغرب. كنا دائما نطلب رحمة الغرب للاعتراف بالأدب العربي... وهذا خلل في تنظيم حركة الفكر. ولذلك أنا أعتقد أن المثقفين الموجودين الآن على الساحة الثقافية في الغرب لهم نصيب كبير في تقديم صورة ولو محدودة عن أدبنا وثقافتنا. كما أعتقد أن الاهتمام بأدبنا في الغرب هو نتيجة الاهتمام بالقضايا العربية السياسية والاقتصادية .

يبقى علينا دائما أن نسأل : هل ما نكتبه الآن من أدب حديث هو كتابة تتعدى وتتجاوز الواقع العربي الى الواقع العالمي؟

في كثير من الأحيان، بقيت الخطابة العربية سائدة في الأدب العربي المعاصر وهذه الخطابة كانت حاجزا... حتى أن بعض الأعمال لا تبقى «أدبا» إذا تُرجمت إلى لغة أخرى. ونتذكر هنا كلمة لأبي القاسم الشابي : «لا يجب أن ننظر إلى الأدب العربي كمثل أعلى للأدب»... هل نحن إذن قارنا الأدب العربي بما يكتب عالميا. لابد من التقييم النقدي الصحيح.

وهنا تطرح كذلك قضية **لغة الكتابة**. بالنسبة لي، الكتابة ضرورة قبل أن تكون اختيارا. وإمكانية الكتابة باللغتين اعتبرها كسبا وثراء. أحاول في نصوصي دائما إبراز التفاعل بين الحضارات. فالحضارة أخذ وعطاء. وأنا اعتبر أن الذاكرة العربية الإسلامية لا يجب أن تكون ذاكرة منزوية، كما أن انتماءنا الى التراث العربي الإسلامي لا يعني انعزالنا عن الشعوب الأخرى، لذلك كان السفر ـ مثلا ـ من أهم المواضيع الفكرية والأدبية عند العرب ويشهد على ذلك كل أدب الرحلة. واليوم نحن مطالبون كذلك بمواجهة العصر واكتشاف الشعوب الأخرى حتى لا ننغلق على أنفسنا.

كان الجاحظ يقول : «كل ما هو واقف فهو إلى نقصان». أعتقد أن هناك تجارب شعرية انسانية كبرى نشترك فيها مع كل الشعوب.

«إلى أي حد يمكن أن تسهم هذه الازدواجية في لغة الكتابة، في خلق نوع من العلاقة التواصلية بين ثقافتنا والثقافة الاوروبية من جهة ومن جهة أخرى داخل ثقافتنا وبالذات بين شقيها المكتوبين بالعربية والفرنسية؟».

على هذا السؤال الهام والمشروع، أجيب مؤكدا ما قاله محمد بنيس عن دور الغرب في أعمال طه حسين وفي أدب النهضة عموما. فليس كل ما في الغرب عدائيا ولا داعي للتعصب فوق اللزوم. وأعتقد أن الكتاب العرب حتى القدامى كان لهم انفتاح وتفتح، من باب اليقظة التاريخية على الأقل.

وكان الرحالة (ابن بطوطة، ابن فضلان...) لهم اطلاع على الشعوب الأخرى، وعلى تقاليدهم. أذكر كذلك أن السياب كان مطلعا على الأدب الانقليزي والأدب الأمريكي عموما...

اليوم، بقدر ما تكون التجربة بقدر ما تكون الترجمة ضرورية. لابد من مقارنة أعمالنابالأعمال الأدبية الأخرى وبكل ما يكتب عالميا ـ المقارنة مفيدة للقراء والكتاب أنفسهم حتى لا نقصرّ في حداثتنا وفي أدبنا المكتوب بالعربية أو بالفرنسية.

بالنسبة لي، (وهذا ما أتفق فيه مع الكثيرين من أدباء جيلي) هناك امتداد عضوي وعن قصد، كأنما الكتابة لها ضفتان تتداول ونعبر بينهما، **والكتابة بالنسبة لي عبور، فانا لا أحب المياه الراكدة**. وهذا الاتصال يمكن إبرازه من ناحية النقد أكثر. وهذه مهمة الناقد قبل غيره.

ويبدو لي أن إقبال الناقد أو الباحث الغربي على الأدب العربي كان متأخرا مقارنة بأهمية هذا الأدب. ويمكن القول بأن هناك مرحلتان تم خلالهما الاهتمام بأدبنا العربي : مرحلة الاستشراق التي فتحت الأبواب لترجمة الأعمال القديمة، والمرحلة الجديدة التي نراها الآن وهي وليدة جائزة نوبل التي حصل عليها نجيب محفوظ. ولكن الجديد، فيما يتعلق بالأدب العربي وحضوره في الثقافة الغربية، هو ان عددا من الكتاب العرب يساهم بالتعريف بالأدب العربي عن طريق الترجمة أو عن طريق الكتابة باللغات الأجنبية : هناك عدد من الكتاب الفلسطينيين يكتبون بالانجليزية بالاضافة إلى الكتاب من المغرب والمشرق الذين يكتبون بالفرنسية. وهذا الأدب هو جزء من الأدب العربي.

○ من غير المعقول أن يبقى العرب خارج الصراع الفكري العالمي :

إني اعتبر نفسي ضمن الكتاب العرب، رغم أني أكتب باللغتين وهذا راجع

الى تكويني اللغوي وامتداد الازدواج الثقافي ـ وبالنسبة لي، القضية تتجاوز اللغة. إني من الجيل الثالث الذي تغذى وارتوى من ينابيع الأدباء السابقين. وأعتقد أن المشكل اللغوي بالنسبة لكثير من الكتاب سواء في الجزائر أو في تونس أو في المغرب هو محاولة للخروج بالأدب المغاربي من الحدود الجغرافية للمشاركة في هموم الأدب العربي عامة، والأدب العالمي بصفة أشمل.

أعتبر مالك حدّاد ـ وكل الكتاب المغاربة الذين كتبوا بالفرنسية مثل : إدريس الشرايبي، محمد ذيب، مولود فرعون، كاتب ياسين وغيرهم هم منّا وإلينا، ولا فرق عندي بين هؤلاء وأولئك الأدباء العرب الذين يكتبون باللغة العربية. لان واقعهم هو واقع واحد، ومصير شعوبهم مصير واحد. وقد آن الأوان أن نتجاوز هذه الخلافات الهامشية التي فرقت بين هؤلاء الكتاب، وحرمت أجيالا من القراء.

ومن واجبنا جميعا اليوم ترجمة أعمالهم الى اللغة العربية، ونقل أعمال الأدباء العرب من العربية إلى الفرنسية واللغات الاجنبية الأخرى، وأنا أرى أن مالك حداد بالذات لم يحظ بمكانته التي يستحقها داخل الأدب العربي عامة، وضمن الأدب الجزائري خاصة ورواياته الأربعة المنشورة والمعروفة طبعت بطابع شعري جعلت من الروائي مالك حداد شاعرا.

إن الترجمات التي صدرت بالفرنسية لعدة دواوين وأعمال شعرية عربية يعود الفضل فيها إلى الوعي بأن نقل الأدب العربي إلى اللغات الاجنبية يساهم في التعريف بالقضايا العربية ومساندة شعوبها. وكان من الظلم عالميا جهل الأدب العربي المعاصر خاصة. ومن حسن الحظ أنه أصبح المهتمون بالأدب العربي، رغم أنهم لحد الآن قلة، يطالبون بالاكثار من هذه التوجهات وقد ترجمت فعلا اعمال محمود درويش وسميح القاسم، الماغوط، عبد الوهاب البياتي، أدونيس ونشرت في مختلف المجلات الفرنسية وأنا شخصيا قمت بترجمة هؤلاء الذين ترجمت بعض قصائدهم الى اللغة الفرنسية منصف الوهايبي، محمد الغزي، الطاهر الهمامي، خالد النجار، سوف عبيد، الصغير أولاد أحمد وغيرهم...

لابد للأفكار العربية أن تقتحم الفضاءات الثقافية الأخرى. ومن غير المعقول أن يبقى العرب من خلال أدبهم خارج الصراع الفكري الذي يجري على الساحة العالمية. وبدون مجازفة، يمكن القول أن نجاح «نجيب محفوظ» بجائزة نوبل للآداب كان بفضل ترجمة بعض أعماله.

○ لكل شعب حداثة ولكل عصر حداثات
نحن لا نكتب من لا شيء :

من الضروري أن يعود الكاتب العربي الى قراءة جديدة للتراث وعلى مقاييس جديدة للرؤية ليست عودة سلفية إنما هي من باب الحداثة. الرجوع يعني بلورة الحاضر ولا يعني تمسكا متحجرا بل هو ضروري لفهم المستقبل.

ولابد هنا من محاولة التعريف بالحداثة العربية، لكل شعب حداثة ولكل عصر حداثات. فغالبا ما نتحدث عن التراث بوجدانية، علينا احترام القراءات العديدة للتراث ولا بأس أن نختلف.

ما أصاب التراث العربي الاسلامي من القراءة المتزمتة جعل الكثير من النصوص الأدبية والشعرية الهامة جدا ميتة في حين القراءة الجديدة هي إحياء ونقد. وإني مقتنع شخصيا أن كثيرا من هذه النصوص الأم لا زال حيا إلى الآن. وربما كان دور طه حسين سباقا إلى هذا فإن قراءاته تبقى جزئية جدا.

نحن في حاجة إلى عقلانية جديدة وإلى دراية صحيحة بعلمانية النص، مع الأسف أصبح الكثير من القراءات للتراث عبارة عن تفسير عقائدي سطحي. فالسطحيات الطاغية اليوم مؤسفة ولم تتحصل على الجوهر. إن التراث العربي الاسلامي حتى وإن كان إنتماء حضاريا فهو تراث انساني قبل كل شيء. وكل هذا له تأثير على إبداعنا الحاضر.

الأصالة وكتابتها عامة متصلة بعضها ببعض، نحن لا نكتب من لا شيء، لكن التأثير بقدر ما هو اتصال بقدر ما الحداثة إبداع من جديد، لا يجب أن نجعل من التراث غاية لأن هذا التراث ليس كافيا ولا يمكن أن نتجاهل ما يكتب عالميا.

نحن في حاجة إلى مفكرين ومنظرين يتجاوزون الخلط والشفسطة التي تعبر عن تحجر عقائدي وفي كثير من الأحيان عن نوايا سياسية ضيقة.

نحن في مرحلة الخروج من سبات عميق ولا يمكن للحوار النظري والفكري أن يتحقق بدون ديمقراطية وممارسة وتعود وتربية.

○ هل من معتزلة جديدة ؟

لقد نفى المستشرقون وجود أدب ملحمي عند العرب، ثم نفوا وجود أدب

تراجيدي بمفهومه الاسطوري الاغريقي. هذا الرأي يتجاهل وجود أساطير عربية قبل الاسلام. إن تاريخ العرب مملوء بالقصص والأساطير في الجاهلية، غير أن الخوف من الوثنية أدى إلى تناسي وتجاهل كل هذه المعتقدات. لقد بحث الشابي في كتابه «الخيال الشعري عند العرب» عن الأساطير العربية وأشار إلى البعض منها، ورغم أنه يعتبرها أقل قيمة من الأساطير الاغريقية أو اللاتينية فهي موجودة وتعبر عن علاقة الانسان العربي بالحياة والموت وبالطبيعة وبالوجود، على من تقع مسؤولية هذا التجاهل؟ إنها لا تقع فقط على حركة الاستشراق التي لا تخلو من تعصب، بل كذلك على النقاد العرب.

هناك مفكرون صادقون لعبوا دورا كبيرا في التعريف بالحضارة العربية ـ الإسلامية... ولكن، من ناحية أخرى، يجب نقد الفكر العربي الرافض للعلمانية أو العقلانية. نحن في حاجة إلى إعادة كتابة تاريخنا العربي وإعمال الرأي. هل من معتزلة جديدة؟ لا تقدم ولا خلاص دون الخروج عن دائرة الفقر الفكري والسذاجة العالقة بطرق تحليلنا الفكري والأدبي.



موقف وتحليل

الأدب المغاربي الناطق بالفرنسية ثراء لعالمية الأدب العربي

«المسألة مسألة خلق وإبداع وتجاوز للعقم»

طاهر البكري

تأكد اليوم أنه هناك أدب عربي ثري ومتنوع ـ بجانب الأدب العربي المكتوب باللغة العربية الأم ـ أخذ يحظى بمزيد الإهتمام في انحاء العالم : فرنسا ، استراليا، أمريكا، انجلترا بالاضافة إلى المكانة التي يحتلها أكثر فأكثر في البلدان العربية. ويأتي في طليعة هذا الأدب وبحجم كبير أدب مكتوب باللغة الفرنسية لظروف تاريخية استعمارية شهدتها بالخصوص بلدان المغرب العربي الثلاثة.

طاهر البكري يكتب وينشر كذلك بالفرنسية. وهو يدرس الأدب والنقد في الجامعات الفرنسية. ما هو رأيه في موقع هذا الأدب وفي مستقبله وفي قضايا اللغة والترجمة؟

«المسار»

مرّ الأدب المغاربي المكتوب بالفرنسية بثلاثة مراحل تاريخية هي كالآتي:

ـ **أولا** : إنه كان يعنَى في مرحلته الأولى خاصة بالناحية الاخبارية الاجتماعية. كذلك يمكن أن نسمي هذه المرحلة بالاتنوغرافية (البحث في

خصائص الشعوب). وخاصة في ما قبل الاستقلال لهذه البلدان الثلاثة المكونة للمغرب العربي.

وكان هذا أدب استعطاف وجلب انتباه العالم لوضع المغرب الذي يرزح تحت نير الاستعمار، وفي هذا الإطار نضع الكتب الأولى للأديبين محمد ديب ومولود فرعون.

ـ في المرحلة الثانية : أصبح الكاتب المغربي (الجزائري والتونسي والمغربي) يندد بالاستعمار ويتعرض لقضايا اجتماعية وسياسية أشدّ خطورة. وفي هذا الإطار برز كاتب ياسين وخاصة ما ألفه في سنوات 56، 57، و58. ويمكن أن نسمي هذا الأدب بالأدب النضالي. وتتسم هذه الكتب بخطابها المباشر. وكذلك مؤلفات الكاتب مالك حداد وكل هذه المؤلفات لم تتخلّ عن فنون الكتابة.

ـ المرحلة الثالثة : وهي التي تتسم بحاليتها وهي آثار الكتاب المغاربة فيما بعد الاستقلال المتسمة بمعالجتها لأوضاع البلد المستقل ومنها أعمال رشيد بوجدرة، محمد خير الدين، ادريس الشرايبي، الطاهر بن جلون، عبد اللطيف اللعبي، عبد الكبير الخطيبي، آسيا جبّار، رشيد ميموني...

وما نلاحظه أنه رغم استقلال البلدان الثلاثة للمغرب العربي فلا تزال الكتابة في غالب الأحيان باللغة الفرنسية، ويعدّ هذا المحور الأساسي لطرح مشكلة الازدواجية اللغوية. مع الملاحظة ان اللغة عند كل كاتب من هؤلاء تمتاز بخاصية. وفي حين أن مالك حداد مثلا لم يكن يستطيع الكتابة بالعربية أو كاتب ياسين كذلك، فإنه كان بإمكان بعض الكتاب الآخرين الكتابة باللغة العربية. إذن لابد من طرح قضية الاختيار للغة الكتابة.

«اللغة منفاي» (مالك حداد) :

إن موضوع الكتابة بلغة اجنبية (الفرنسية مثلا) قد يعدّ تناقضا مع تغير الأوضاع في هذه البلدان. وقد شعر به بالخصوص مالك حداد الذي كان يقول : «إن اللغة الفرنسية منفاي». ويعتبر هذا بالنسبة لبعض الكتاب الجزائريين «مأساة» في حين ان اللغة كانت اختيارية، وبالنسبة لي لا أعيش الكتابة باللغة الفرنسية كأزمة داخلية. وقد أصدرت أعمالا باللغة الفرنسية

ولا اعتبر ما أكتبه باللغة الفرنسية خروجا عن المغرب العـربي أو عن الأدب العربي.

من جانب آخر، لا أعتبر الكتابة بالفرنسية اغترابا، وأول عمل قمت بـه في باريس كان قصائد بالعربية مع صـور لفنـان عـراقي اسمـه علي فنجـان. ذهبت أكثر من الكتابة باللغة العربية العادية بل حاولت تجاوزها إلى الخـط العربي وما يمكن أن نستعمله في الفنون الحالية من جمالية الخـط العـربي. فكان الشعر العربي موضوعا جماليا.

لا أعتقد أنه من المفيد إتهام الكتاب المغاربـة بعـدم الـذاتيـة وعـدم115 الشخصية واعتقد أن رشيد بوجـدرة الـذي كتب بـاللغـة العـربيـة روايـة «التفكك» قد أحس بضرورة كتابتها كذلك باللغة الفرنسيـة وذلك حسب مـا يصرّح به...

المهم بالنسبة لي في الظرف الحالي - وآمل الا يتعدى إلى الحالية التاريخية - أن نخلق، المسألة مسألة خلق وإبداع وتجاوز للعقم. فـالمـواطن الـذي لم يتمكن من الدراسة بإمكانه أن يقول ويبدع بالعامية، وبـإمكـان الآخـر أن يكتب بالفصحى، وبأي لغة ممكنة للتعبير، ويتجاوز هذا المستـوى اللغـوي ويتعداه إلى كل وسائل التعبير الأخرى كالموسيقى والرسم وغيرهما.

هل نعتبر الآثار التي كتبها جبران خليل جبران بالانجليزيـة غـريبـة عن جبران؟ ألا يمكن أن نعتبر هذه الآثار وسيلة للتعبير عن المشـاعـر العـربيـة حتى ولو كانت مكتوبة بلغة أجنبية؟

- مستقبل هذا الأدب يتوقف على الوضـع التعليمي ووضع الكتاب:

كان مالك حدّاد، قد صرح عام 1961 أنه سوف يتخلّ نهائيا عن الكتابة باللغة الفرنسية . لكن ما حصل فعلا هو أن الكتاب بهذه اللغة ازداد عددهم وظهرت مؤلفات عديدة جديدة... وبالتالي فـإن مستقبليـة هـذا الأدب تتعلق بمشكلتين أساسيتين هما الوضع التعليمي، ثم وضع الكـاتب والنظـر إليـه كخالق مبدع له حقوقه الاجتماعية والفكرية.

وحتى لا يقـع هـروب المثقفين كيف يمكن تـوفير المنـاخ الانســاني

والاجتماعي والمادي للكاتب حتى لا يضطر إلى الكتابة بلغة أجنبية؟

ولابد هنا من التفاؤل حيث أصبحت كثير من دور النشر تهتم بالكاتب العربي سواء باللغة العربية أو باللغة الفرنسية. وحيث النظرة للتراث العربي أصبحت نظرة إنسانية تتعدى حدود العالم العربي.

وهنا فإن للكاتب باللغة الفرنسية دورا للتعريف عالميا بالأدب العربي عامة إذ لا يخفى أن كثيرا من المستشرقين ذوي النوايا الاستعمارية قد حرفوا كثيرا من الآثار الأدبية العربية ولابد هنا من التصحيح.

وقد يكون هذا من بين أهم أدوار المفكرين العرب المستقرين في الخارج، ليس في باريس فحسب، بل في لندن وأمريكا وألمانيا...

الكتابة باللغة الفرنسية امتداد للروح العربية :

الازدواجية بالنسبة لي اعتبرها ولا أزال إثراء للغتين ورفضت في كثير من الأحيان أن أنشر كتابا مزدوجا أي ـ الترجمة ـ أنا أعتبر أن الترجمة ليست كتابة فعلا لهذا أفضل أن أكتب كل كتاب بلغته.

كنت من البداية أكتب باللغتين منذ كنت تلميذا بأحد المعاهد الثانوية بصفاقس ثم طالبا. ولكن وجودي بالغربة في فرنسا لسنوات طويلة ولد قرار الكتابة بالفرنسية كوسيلة عاجلة. ومهما كانت وسيلة التعبير بالنسبة لي فالنفس الشعري والذاكرة والخيال والروح كلها عربية.

المطلوب هنا اليوم كيف نعتبر اللغة وسيلة وليست غاية في حد ذاتها ونوقف بعض الظلم والضيم. فنقاشاتنا كانت ولا تزال في بعض الأحيان حول اللغة الفرنسية أو اللغة العربية في حين أن المطلوب قراءة هذه الأعمال قراءة جدية. إني أشعر في كثير من الأحيان أن كتابات مالك حداد، الطاهر بن جلون ومحمد ذيب، والشرايبي وغيرهم قريبة الى الذاكرة والواقع العربيين أكثر من كتابات عديدة باللغة العربية.

إذن لابد من التحول إلى فهم القضايا بدراية صحيحة وإذا استعصت مسألة اللغة فهنا يكون دور المترجم. ولابد هنا من التنويه بما قامت به سلسلة «عودة النص» وغيرها لاسترجاع بعض الكتب لإثراء الأدب العربي كما أن أعمالنا العربية لابد من ترجمتها إلى لغات أخرى.

واختصاصي الجامعي في تدريس هذا الأدب هو لفتة لهذه الأعمال واحترام للمبدعين الذين عانوا من المشاكل اللغوية. لنا مسؤولية تجاه هؤلاء المبدعين من ابناء جلدتنا ولا يمكن أن نتخلى عنهم كما لا يمكن أن يجُهل كاتب ياسين اليوم في البلدان العربية أو محمد ذيب الكاتب الكبير المقيم بفرنسا.

تجاوز ممارسات العنف التاريخي :

إن أعمال هؤلاء الكتاب قلّما تدرس كأعمال نصية أدبية بل إنها تعتبر كذريعة ومنطلق لتفكير سياسي لغوي اجتماعي تاريخي قبل اعتبار هذه المؤلفات أعمالا أدبية إبداعية، وفي هذا خلل واضح. فالكاتب المغاربي يطالب باحترام عمله كـ «إنتاج» وإبداع أدبي صرف مما يؤدي إلى امكانية مقارنة انتاجه مع الآداب العالمية الأخرى لكي لا يبقى الأدب المغربي باللغة الفرنسية نوعا من «الأدب الدوني» وبالتالي يخرج من مرحلة الاستعطاف الأدبي. إن النقد الأدبي بدأ يهتم بهذه الأعمال في سيدني وكوبنهاج وكندا وإيطاليا وفرنسا وأمريكا والسويد وألمانيا وبلجيكا... وان أساتذة هذه الجامعات الذين يدرسون الأدب الفرنسي يهتمون أيضا - وبدون عنف تاريخي - بآداب المغاربة والافارقة.

علاقة الكاتب باللغة الفرنسية علاقة تتطلب تحديدا ودقة في التحليل لكونها علاقة سهلة ممتنعة وتكتسي حدة تاريخية، إن مهنة الكتابة صعبة لأن الكاتب المغاربي يعيش عنفا تاريخيا داخليا في الكتابة وهو في حالة استجواب وتعنيف عن طريق الناقد القارىء مما لا يترك الكاتب في حالة إبداع هادئة، وبالنسبة لكثير من الكتاب يبدو كأن بعض المواضيع محرمة عليه ذاتيا وتاريخيا مما يقلص من فضاء إبداعاته. مثال ذلك أنك تجد كاتبا اسكندنافيا يهتم بعلاقة الانسان المعاصر والسلم ولا تجد كاتبا عربيا يهتم بذلك حتى لكأن الكاتب العربي غير مسموح له بتناول مثل هذه الميادين، يجب مقاومة الانجراف الفكري أمام مخاطر ما يمكن تسميته بعملية «الإبتلاع العالمي»... وعلى الأدب العربي أن يحتل الفضاءات الشاغرة لدخول مرحلة العالمية.

الكتابة بالفرنسية لا تتعارض مع الوطنية :

هؤلاء الكتاب هم عرب لحما ودما، حتى ولو كتبوا بالفرنسية لأن همومهم عربية، ومشاكلهم عربية. إنهم وطنيون بالمعنى الشامل للكلمة وقد دافعوا عن حرية الانسان عموما. فأنت تجد في أعمالهم القضية الفلسطينية مثلا. والسؤال المطروح على النقاد هو كيف تطور هذا الأدب؟

وكيف نفسر استمراره بعد 30 سنة من الاستقلال؟ هذا هو السؤال الأساسي الذي يجب أن نجيب عليه بصراحة ووضوح، فنقاد الستينات نظروا إلى الأدب المغاربي المكتوب بالفرنسية على أنه متوجه للزوال لأنه مكتوب باللغة الفرنسية، في حين أن الواقع اليوم نفى هذا الاحتمال.

المسألة لم تعد مقتصرة على الأدباء المغاربة، فهناك اليوم فلسطينيون يعيشون في الولايات المتحدة يكتبون بالانجليزية وحتى العبرية (رواية **عربسات** لأنطون شماس). وهناك شعراء عراقيون في المانيا وبريطانيا يكتبون بلغات هذه البلاد. **نحن نعيش مرحلة جديدة من أدب المهجر.** وهناك أسباب حقيقية تدفع هؤلاء للكتابة بلغات أجنبية، ولعل أهمها، إلى جانب الجذور التاريخية لمسألة اللغة في منطقتنا والمرتبطة بالوجود الاستعماري، أسباب لابد من ذكرها اليوم وإعلانها علنا حتى لا تختلط علينا الأمور وتتشابه :

فهناك أولا **حرية الكاتب ووضعه في البلدان العربية**، إلى جانب المرارة التي يحس بها هذا الكاتب العربي أمام الاهمال الفضيع من طرف دور النشر، ولا أبالغ في القول إذا ما ذكرت بأن بعض المؤلفات الأدبية بقيت ما يزيد عن سبع سنوات دون أن يتصل أصحابها برد، زد على ذلك وضع الكاتب اجتماعيا وعدم احترام حقوقه - إن وجدت - وعدم احترام إبداعه وفكره، والفكر عموما غير محترم في مجتمعنا، وكثيرا ما تعمل السلطات الرسمية في البلدان العربية على تهميشه وتعريضه إلى عواقب الأمور، ولا ننسى ضعف دور الكتاب في المجتمع، وضعف تأثير اتحادات الكتاب.

هذه الأسباب، وغيرها ربما، خلقت حاجزا بين الكاتب العربي ولغته، دفعه إلى لغة الغير، إلى لغات تحترم شعوبها حرية المؤلف وإبداعه... وحتى لا يعمد الكثير الى هذا الحل وهم قادرون على الكتابة بلغة شعبهم، توجبَ

توفر كل العوامل اللازمة إلى تعددية الافكار والعقائد والاتجاهات، وفي ذلك نفع للجميع...

إن البحث في إشكالية اللغة وعلاقتها بآدابنا في المغرب العربي لم يخل من خطاب متزمت تغلب عليه النزعة السياسية المتصلبة، وقلما وجدنا دراية صحيحة بماهية النص الأدبي وهموم الكتابة عموما، أو احتراما لعمل الكاتب وإبداعه ومعاناته، وهذا لن يعود على الاجيال المغربية خصوصا، والأجيال العربية عموما إلا بسوء الفهم وخلط المسائل.

منذ قرأت ترجمة **صالح القرمادي** لعمل مالك حدّاد، هذه الترجمة التي قدم لها بكلمات جميلة، جعلتني أحس بخطورة الأمر ومشاغل الكاتب الجزائري الناطق بالفرنسية، والمغاربي عموما... كنا نتحدث عن الجيل الأول والجيل الثاني من هؤلاء الأدباء. ونحن نتحدث الآن عن الجيل الثالث، جيل الثمانينات: رشيد ميموني، الطاهر جاعوط، رابح بلعمري، الحبيب تنغور، (من الجزائر)، عبد الوهاب المؤدب، فوزي الملاح، هالة باجي، أمينة سعيد، البكري (من تونس)، وعبد الحق سرحان (من المغرب). ولا تقل كتابات هذا الجيل وعيا بقضية اللغة، بل إن **هذا الجيل أصبح يتخلص من العقدة اللغوية** ـ خاصة وأن بعضه مزدوج اللغة ـ ويرفض بكل قواه أن يكسر قلمه، **ويرفض أن يغمره** ظلام رهيب يلقي به في طي النسيان... وكثيرا ما تطرح أمام هذا الجيل الأسئلة المتعلقة بالكتاب العرب الذين يكتبون اليون، أم كتبوا سابقا ـ باللغات الاجنبية : هل تقل هذه الأعمال قيمة في نظرنا عن كتابات الفلسطينيين إميل حبيبي ودرويش وسميح القاسم وعز الدين المناصرة... أم أن القضية واحدة وإن اختلفت اللغات»...

لا يهم أين نضع هذا الأدب، المهم هو إيصال أصواتنا إلى شعوب العالم، والمشاركة كذلك في ركب الأدب المعاصر. الكاتب جسد وروح. والكاتب العربي روحه وجسده عربيان... الاشكالية هي إذن **كيف نستطلع الروح العربية في لغة الغير؟**... الكتابة ليست تنظيرا لمسألة اللغة... الكتابة تقوم عبر الكاتب وثقافته وتكوينه.

طاهر البكري

هوامش :

* نشكر مجلة «الاربعاء الأسبوعي» (مكتب باريس) ومجلة «الأفق» الجزائرية التي سمحت بنشر بعض الفقرات المتعلقة بموضوع هذا النص. ونشير في هذا الصدد إلى تغطية أعمال الندوة التي نظمتها في باريس «جمعية جيل 2001» بمشاركة عدد غفير من الأدباء والكتاب والنقاد المغاربة المهتمين بهذا الأدب. «أكدت الدراسات المقدمة خلال هذه الندوة أن الانتاج الأدبي ولاسيما الروائي قد ازداد فعلا في السنوات الأخيرة ولاسيما خلال الفترة الممتدة ما بين عامي 1970 و 1986. فقد بلغ هذا الانتاج المغاربي نسبة الى الجزائر وتونس والمغرب منذ عام 1945 ثلاثمائة وثلاثة وخمسون مؤلفا. ففي الجزائر تم نشر 250 مؤلفا روائيا مكتوبا باللغة الفرنسية ما بين عامي 1945 و1986 من بينها 197 مؤلفا انتجت منذ عام 1970. في المغرب كان هناك 58 مؤلفا روائيا منذ عام 1845 وحتى عام 1986 من بينها 41 مؤلفا منذ عام 1970. والملفت للانتباه أن هذا الانتاج كما تبرزه الاحصائيات والارقام المذكورة آنفا ازداد حجمه وانتشاره وبشكل خاص منذ السبعينات التي شهدت بدورها ظهور أدب مغاربي للجيل الثاني من ابناء المهاجرين الذين ولدوا وتربوا في أوروبا وخاصة في فرنسا. ويقول «جون ديجو» بأن هذا الأدب المغاربي يُعنى بتوترات الانسان اليوم في المجتمعات المغاربية الثلاث وأنه أدب يعني الجميع لأن الانسان واحد في العالم.

ورغم وجود مشاكل انتاجية خاصة بهذا الأدب فإنه لا يمكن في الواقع الفصل بينها وبين مشاكل الانتاج التي تمس كامل الحركة الانتاجية الثقافية والفكرية والفنية في البلدان المغربية وحتى العربية».

(الاربعاء الأسبوعي» ـ 20 أفريل 1988).

شعـــر

طاهـر البكـري

إسطمبـــول

(1)

دعوتُ الصنوبرَ
وفساتين الثلج للاحتفال
كان الشتاء المحترسُ
يذْكي أزاهيرِ ذكراكَ
ويترمّــلُ، قلـــت :
مئذنةٌ هذه أم تباريحُ الفراق
تبتئس بعوْسج النسيان ؟

(2)

نورسٌ .
يحطّ على زَبَد المساء
يغازل البحرَ ويسْقيني
وسُلطان كالدّخان
يتهـــادى
على موج الزيف ويلْقيني
أنيس الهيام والشرّاع

(3)

يهتزّ الموج ويهْتاجُ
مهابة الهدْهد المهجور
هالــــة
تهَدّلَ شَعرها
غير وانية
ورْقَاءُ تحتضن نَجيعَ الشّمس
ولا تعْتَزلُ

(4)

أُدْغـــمُ
أخَاديدَ الوجه المتبرّج
في وشم التاريخ الباكي
وأنعي ليلا
يَتَبَغْدَدُ
كالرَّماد
يتقصّىَ النّارَ ولا يشتعلُ

(5)

نادى السنديان :
في ارتحال اللقلق
اختلاج الأفق
لا يزمَهرّ الفجرُ
من رحَمة السّيَاف
بل من أجيج الجنَاح المرتدّ!

قصائد غير منشورة
اسطنبول ـ باريس 1990 ـ 1992

بيبليوغرافيا عامة

1 ـ الأعمال الشعرية :

ـ **حارث الشمس**، سيلكس، باريس 1983، هرمتان، 1991 (الطبعة الثانية).

ـ **نشيد الملك الضلّيل**، هرمتان، باريس 1985 .

ـ **القلب يرتاد البحار**. هرمتان، باريس 1988.

ـ **قصائد إلى سلمى**، حوار للنشر، روتردام، 1989 (بالعربية).

ـ **مناف**. ليتوغراف علي فنجان، باريس 1979.

ـ **قصائد مزدوجة**. ليتوغراف برنار لافبري، باريس 1978.

ـ **خيول الليل، السطور أشجار**. ليتوغراف برنار لافبري، 1984.

ـ **البحث عن النور**. صور محمد علي السعدي، باريس 1984.

ـ **نُسْغ الأيّام**، شريط صوتي، أرتلكت، باريس، 1991.

ـ **مسابح الوصل**، دار آميو للنشر، يصدر في 1993.

2 ـ دراسات نقدية (بالعربية) :

ـ «إشكالية الأدب المغاربي الناطق بالفرنسية ومسألة اللغة» مجلة **التبيين**. العدد الأول. الجزائر 1990.

ـ «المسار الفكري والروحي عبر الغرب» مجلة **الاغتراب الأدبي**. عدد 19 لندن 1991.

ـ «منافي» مجلة **الاغتراب الأدبي**. عدد 17. لندن 1991.

3 ـ دراسات بالفرنسية : (عناوين مترجمة من الفرنسية) : «مقتطفات».

ـ **الأعمال الروائية لمالك حدّاد : من أجل شعرية الأدب المغاربي الناطق بالفرنسية».** هارماتان. باريس. 1986. أطروحة دكتوراه. باريس نانتار.

ـ «صورة المجتمع في الأدب التونسي». الكراسات التونسية (Cahiers Tuni-siens) سبتمبر ـ أكتوبر ـ باريس 1988.

ـ **رجوع أبو الحاكي** لعمران أدمون المليح». مجلة **آفاق مغربية. 16.** جامعة تولوز. 1991.

ـ «كتابات المغرب العربي» مجلة III . I . Echanges تونس 1981 .

ـ قراءة **لتمثال الملح** La Statue de Sel في كتاب «**ألبار ممي، الكاتب وعالم الإجتماع**». ندوة باريس جامعة نانتار. ماي 1988 هارماتان 1990.

ـ «الحقيقة في الكتابة» **الصباح الأدبي.** Le Temps Littéraire 26 ديسمبر 1990.

ـ «الكتابة بلغة الآخر». في رسائل إلى اللغة الفرنسية. **كتاب جماعي. فرنسا 1989.**

ـ «جنوب/شمال أو الصورة غير المتعادلة» دراسة قدمت في ندوة «الجسد وصورة الآخر» جامعة مراكش. 1989.

ـ «الإسلام، التراث والحداثة في الأدب المغاربي الناطق بالفرنسية». مجلة Notre Librairie عدد 95. 1988. باريس.

ـ «هل هناك أدب تونسي؟» مجلة Notre Librairie . عدد 83 ـ 1986. باريس.

ـ من «النجمة السرية إلى الربيع الجريح» مجلة Notre Librairie . عدد 82 1986 .

ـ «أرض الذاكرة العميقة» «الأدب التونسي العربي». مجلة Europe . عدد خاص **بالأدب في تونس.** عدد 702. أكتوبر 1987.

ـ «اللقاء/الغربة» مجلة Parcours Maghrébins . عدد 7 . الجزائر 1987.

ـ «أدب المغرب العربي : الثمانينات» مجلة Notre Librairie . عدد 103 . 1990.

ـ «وداعا أيتها الورقة التي تنطق للوطن» حول تشيكاي أوتامسي و«حوار جنوب/جنوب». مجلة Notre Librairie عدد 95. 1988.

ـ «الأدب المغاربي» بالتعاون مع نادية بن جلون. **موسوعة لاروس.**

ـ «وداعا كاتب ياسين، مرحبا بنجمة». مجلة Notre Librairie . عدد 103 . 1990.

ـ «لماذا نكتب بالفرنسية في المغرب العربي؟» مجلة Arabies . مارس 1990.

ـ «قساوة مهنة الكتابة» مجلة Itinéraires et contacts de Cultures . مجلد 10 . 1989.

ـ «التأكيد والشك» مجلة Arabies . أكتوبر 1989.

ـ «نجيب محفوظ وجائزة نوبل» مجلة Croissance . عدد 310 . 1988.

ـ «في الأدب التونسي الناطق بالفرنسية» مجلة Research in African Literatures . جامعة أوهيو. الولايات المتحدة، 1992.

ـ «حوار مع ليلى صبّار» مجلة Notre Librairie ، 1992.

ـ «منافي» ندوة «الابداع والغربة» جويلية 1990. الحمامات 1992، رحلة الاغتراب الأدبي، 1991.

ـ «الكتابة والحقيقة» ندوة لقاء كتاب آسيا وافريقيا. اسطنبول . 12 . 1990.

ـ «صورة باريس في الأدب التونسي». المؤتمر العالمي حول **المدن الأدبية.** باريس . ماي 1984.

ـ «التراث والحداثة في الأدب المغاربي». جامعة ديجون. فيفري 1991.

ـ «لقاء مع محمد ديب» **آداب المغرب العربي.** سان ديني. 12 . 1991.

ـ «القصة في تونس» مجلة Notre Librairie ، 1992.

ـ «الأدب التونسي» في «دليل تونس» Ed.La Manufacture، 1992.

4) حوارات مع طاهر البكري (بالعربية)

ـ محمد رجب : «لقاء مع الشاعر المغترب»، جريدة **الصباح**، 11 ماي 1991. تونس.

- عبد الحليم المسعودي : «ندوة المسار الفكري والروحي عبر الغرب»، جريدة **الصحافة**، 11 ماي 1991، تونس.

- سعدي بزيان : «طاهر البكري»، فهرس لأدب المغرب العربي المكتوب باللغة الفرنسية»، جريدة **المجاهد الاسبوعي**، 2 مارس 1990.

- جميل حتمل : «طاهر البكري : كأن الشاعر العربي المعاصر فقد الإحساس بما حوله»، جريدة **القدس** عدد 669 ، 4 يوليو 1991، لندن.

- الطيب ولد العروسي : الشاعر التونسي طاهر البكري : الشعر لا يحدد مفهومه»، جريدة **النصر**، 3 سبتمبر 1986، الجزائر.

- سعد مبروك : «الأدب المغربي الناطق بالفرنسية ثراء لعالمية الأدب العربي»، جريدة **المدينة**، 10 ـ 4 ـ 4 . 14 هـ/ 1987، المملكة العربية السعودية.

- رضا القلال : «لقاء مع الشاعر الطاهر البكري : الأرض مركز الإبداع العربي»، جريدة الصحافة، أوت 1990، تونس.

- سعدي بزيان : «طاهر البكري : مالك حداد، أعمال رومانسية»، مجلة الحوار، عدد 1987،9،4،5.

- سعد مبروك : «الأدب المغاربي ليس زجاجة فرنسية يصب فيها الكتاب المغاربة ماء مغربيا»، جريدة **الاربعاء الاسبوعية**، 20 أفريل 1988، العربية السعودية.

- هيثم نوارة : «الشاعر التونسي الطاهر البكري : الكتابة بالفرنسية لا تتعارض مع الوطنية»، مجلة **الأفق**، مارس 1990، قبرص.

- نجاة بلحاتم : «لقاء مع الشاعر التونسي طاهر البكري : حديث عن التراث والماضي»، **المجاهد**، عدد 1934 ، 1989، الجزائر.

- استفتاء : «متى تكتب الانتفاضة قصيدتها؟»، حوار مع الطاهر البكري، محمد بنيس، عز الدين المناصرة، مجلة **منبر أكتوبر**، عدد 20 كانون الثاني 1990، الجزائر.

- آمال المختار : «هؤلاء يتحدثون عن المنفى»، جريدة **الصباح**، 16 جويلية 1990، تونس.

- الهداجي السيد : «حوار مع الشاعر طاهر البكري»، مجلة **الجالية** عدد 1 أفريل 1991، باريس.

ـ أسبوع فرنسي مع العرب : مجلة **الوطن العربي**، عدد 106، 1979، باريس.

ـ طيب ولد العروسي : «الشاعر التونسي الطاهر البكري لا يعيش اللغة كمنفى!»، مجلة **فلسطين الثورة**، 1986.

ـ عثمان تازغارت : «الطاهر البكري : الكتابة عبور وأنا أكره المياه الراكدة. حوار»، **المسار المغربي**، 25 مارس 1990، الجزائر.

ـ سعدي بزيان : «الطاهر البكري : من واجبنا اليوم ترجمة أعمال الكتاب العرب المكتوبة بالأجنبية»، جريدة **الشعب**، 5 فيفري 1989، الجزائر.

ـ سعد مبروك : «لقاء مع الشاعر التونسي الطاهر البكري»، جريدة **المدينة**، 11 جوان 1985، العربية السعودية.ـ كاظم جهاد : «أغاني الملك الضليل، **تأليف** الطاهر البكري»، مجلة **اليوم السابع**، 10 جوان 1985، باريس.

ـ **كاظم جهاد** : «حارث الشمس، **تأليف** الطاهر البكري»، **مجلة اليوم السابع**.

ـ الصغير أولاد أحمد : «مقابلة مع الشاعر التونسي الطاهر البكري»، مجلة **المغرب**، 9 جوان 1989، تونس.

ـ حمزة عبود : «ندوة : ظاهرة التفاعل بين الأدب العربي والآداب الغربية»، مجلة **الفرسان**، عدد 644 ، 645، 2 جوان 1990، باريس.

5) ـ ببيليوغرافيا الكتابات النقدية حول أعمال البكري : (اقتصرنا على بعض العناوين لطول القائمة).

ـ طاهر جاءوت «البكري والشعر المغاربي». مجلةActualité de L'Imigration . باريس عدد 16 . نوفمبر 1985.

ـ جان ديجي . «طاهر البكري : حارث الشمس» مجلة Mondes et cultures . 4 . 1983. باريس.

ـ أمينة سعيد «جزر الأرض» مجلة Mot pour Mot . عدد 16 . أكتوبر 1984.

ـ نبيل رضوان «أشعار الطاهر البكري : المثالية أو الحنين إلى الأصل» Le temps culturel تونس . 14 مارس 1984.

- دينيز جليني : دلالات نشيد الملك الضليل». دراسة قدمت بجامعة Pau 26 ماي 1988.Le Temps littéraire

- طاهر جاوت، «الأدب المتحرك، طاهر البكري والاعمال الروائية لمالك حداد». مجلة Actualité de L'Immigration . عدد 72 . 1987.

- منصور مهني : «الأدب التونسي الناطق بالفرنسية : الهامش الحي مارس 1989.Le Temps littéraire

- جوال مامت «طاهر البكري : الشعر ميراث الانسانية» مجلة **الشرق الجمهوري. جوان 1991.**

- الرزقي متراف . «الفضاء الشعري، طاهر البكري والاعمال الروائية لمالك حداد».. **المجاهد** 28 ـ 1 ـ 1987 . الجزائر.

- حافظ الجديدي : «شعر الاندهاش» Le Temps . 31 ـ 8 ـ 1988.

- عز الدين المستيري : «طاهر البكري : القصيدة هي بحر يشتعل». Le Temps تونس . 19 جانفي 1984.

- هادي زوكار. «طاهر البكري ونشيد الملك الضليل» مجلة Afrique - Asie عدد 359 . 1985.

ماري ألبس سيفريان . «تحرير الخيال بالكتابة» مجلة SIF . عدد 3 الدنمارك . 1990.

- ويسنار ولفقانق . «الكتابة بين لغتين» مجلة Décision . عدد 7 هامبورغ. 1990.

- جان ديجي : «شعراء تونسيون» مجلة Poésies . عدد 115 . 1984 باريس.

- مجيد الحوسي : «الشعر التونسي» **في الشعر المتوسطي الناطق بالفرنسية، 1945 ـ 1990.** باريس. 1992.

باتجّاه التّخوم...

حسين العوري

مُتَخَمٌ بالسُّؤَالْ مُدْلَجٌ في الُّلغَهْ
في حَنَايَا السِّلاَلْ تَرتَعُ الْمَسْغَبَهْ

للطُّيُورِ الّتي انهزمتْ مِن صقيعِ الجِبَالِ
إلى حضنِ كفّي...
فتَحتُ منافذَ قلبي... وخبّأتهَا
دهنتُ مناقيرَهَا باسمِ خَوْلَة...
أطعمْتُهَا مِنْ رؤاهَا
رسمتُ على ريشها صورةً للّتي لاَ أرَاها
وللصّمتِ أسْلمتُ وَجْهي

جَاءَنِي في جَلاَلْ قَالَ لي : لاَ تقِفْ
إنَّ لِي رايَةْ خلفَ تلك السُّجُفْ

... واقتحمت الذّرى

مُتخَمٌ بالسُّؤَالْ قَالَ لي : لاَ تقِفْ
فِي حَنَايَا الضُّلوعْ خلفَ تلك السُّجُفْ

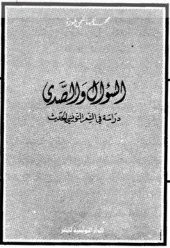
وأتتني الزُّهورُ الَّتـي انكمشتْ
تَـحْتَ سَيْف الْهواجِر مَذْعـورةً
فنسَجتُ سَتَّائـرَ من سَعَف الرّوح
أجـرْيتُ نحو الجذور سُيولاً من النَّبْضِ
... وانْفَجَرَتْ عَاصِفَـهْ

مَـدَّ لـي شَـمـعـةً ... قَـالَ لـي : لاَ تَـخَـفْ
اغـتَـسـل بـالـثَّـرَى ... وَالْتَـحَـفْ بـالـغُيـومْ
خَـلْـفَ تِـلْـكَ الـفِجَاجْ ... غَابَـةً مِـنْ نُـجُـومْ

وَاستَمرَّ السُّرَى...
بِاتجّاه التُّخُومْ
يستَمرُّ السُّرَى
يستمرُّ السُّرَى

حسين العوري

صدر



أخيرا

قصة قصيرة

ثمن المعرفة

خديجة الجويني

ترى ما الذي يحدث هناك؟!
كلّ الدفاتر يجب أن تفتّش وفي كلّ الأوقات!!
كم عدد الكراسي وكم عدد النّجوم والسّيارات؟!
من أين تأتي الألوان ولماذا تهبّ الرّيح؟!
ولماذا تصلح الأقلام ودفاتر الملاحظات؟! مااسم أنثى الفراش وذكر السّلحفاة؟! وكيف تدور الأرض ويظلّ باب بيتنا في ثبات؟! ولماذا لايحتوي فمك على اسنان جديدة منذ عودتك من عيادة الطبيب؟!

وأعوي بسبب حيرتي.. أعوي بسبب حبّي وعدم مقدرتي، وحين انتبه إلى الصّمت. أتطلّع إلى الباب خلفي فأبصرها واقفة تنتظر أجوبة الأسئلة كي تغادر المكان.

* * *

ويجدنا صباح الأحد جنبا إلى جنب في السرّير... فأرتعد. تتصفحّ وجهي بسرعة، وتسألني أن أكفّ عن التدخين، وبشكل طبيعي تترك السرّير وتشرع في توظيب الغرف. هذا جيّد، وقع خطواتها جيّد، يؤكّد قرتها على التحرّك، لكن المشكلة ليست في الحركة ولا في العاطفة، المشكلة في إنيّ هزلت وهي مازالت بلا تعب... المشلكة إنهّا تربكني الآن بتفوّقها ورصيد اسئلتها والشّغب.

* * *

في الصّباح تشتمل عليّ الرّغبة فتهوي نظرتي على وجهها، صباح وجهها

يستولي على روحي... آه غصّة الفقد بـاديّة!.... آه، إنها تبدو شـاحبـة!... وتضيع فرحة الصّباح.. آسفة....

أهمّ بأن أعضّ على إصبعي، فتوقفني نظـرة.. تـرفـع عينيهـا إليّ تـرتبك حروف مطلبها... وتتأرجح الجدران.. يختلّ توازني... تتـأرجـح السّتـائر، الكتب، المقاعد، المصابيح، الأيّام، المصائر... لاشيء في مكـانـه، كـل الأشيـاء تفارق الثبات....

أتوقف عن التحديق بالمشهد المهتز... أطبق جفنيّ لأوهم نفسي أنيّ مازلت قادرة على إصطناع حلم... في تلك اللّحظة نشرت قلوعي في ريـاح الأسئلـة.. وأردت أن أسمعها صوتي فصرخت عاليا: أحبّك يانوال!!

....

.. ولكن ماجدوى أن أعود إلى شظايا المرآة التي حطمّها الجنون؟!

كل مافي الأمر أنّ ذهني صار مشغولا !

أفلا يمكن إتخاذ عالم بعيد عن الآخرين؟! واتبعّت سلوكا معيّنا.. ومـلأت فراغي بالأحـلام التي راودتني دائما... وتفـرغت لقـراءة الكتب... ولكن لم يملّ القلب من تهجي الحنين...

فيتشبث كل صباح بوقع الخطوات... واكتب

ـ الأصابع لاتطير مهما اشتهى صدري احتضانك يـانـوال... قـد تكـون المتعة في اللّقاء!! إذا ماحدث ذات مرّة هنا... يمكن أن نحفـر لـه في الـذّاكـرة وننساه، همست لطيفها... خلته يسمعني حتى تجيء التحيّة واضحـة ولكن خبّأ الطيف وجهه ورحل.

* * *

أصبحت أحسّ بخيط شفاف يجرّني من مقـرّ عملي ويسحبني بـرفق... صامتة أدخل أزقة حيّنا فأذكر كل شيء نسيته.. وأرى الطفلة الوديعة تشقّ الفضـاء وتكتسحني الأحـاسيس كـاويـة.... ألقي التحيّة، ثمّ أدلف غـرفتي واسكب الحبر ملء الدفاتر...

فجأة تسقسق ضحكتها... انتبه.. أين هي؟! مابال الغرفة منها خـاليّة..؟! مابال الجدران لاتشهد بأني لست واهمة؟!....

ويطأ طيفها القلب....

طيفها فراشة نزقة... تحطّ تطير...

حفيف ثوبها نغم يتهادى...

أخلع عني قناع التعامل الصّارم.. وأغامر كي استعيد الحوار القديم
ـ نوال
آه لوقع هذا الصّدى.. ترى هل تسمع النداء.؟!
نوال لم أجد غير هذه الحروف أتغنى بها، كي أفرّ من الأحـزان كي أفـرّ من الدائرة المغلقة وأبتعد عن التلوث والاختناق

....

جاءت في إهاب حمامة، يبرق في دجى عينيّ عفافهـا... جـاءت فـانسـابت أسراب أسئلتها خافقة وهي لاتـدري إنهّا جـذوة في قلبي تتحـدى الأيّام.... جاءت بوجه أحلى ووجـع أحلى، جـذلى جـاءت تفتـح بـاب الأشـواق فينـز حنيني... جاءت تسأل بانفعال عن سنوات العمر الخاليّة... عبثا أسـافـر في الدّروب الموصدة... عيناها دعاء يدنيني من الرؤى الـواضحـة... عبثـا أهيم واللحن يهمي من بين شفتيها يهديني إلى الصّحو...

أهد هد صيح جراحي وأقرّ بـأني لست بـارعـة في تلصيق الأقنعـة لأني لاأملك إلاّ فشلي ووجهي المحزون... وعند الحاجة أهمل صوتي... وعنـدمـا يحرجني أحد ألقي بالكلمات مبتورة مفكّكة وأعترف في ارتباك بما لم أقترف ثم أتحوّل إلى مخلوقة أخرى وأنطفىء

....

كدت أصرخ : إنّ هذا الوجه وهذه اليد، بل هذا الجسد هو الذي جرّني إلى الفردوس الذي كان مستحيلا عليّ بلوغه...

كان ذلك منذ سنوات، ولم أدرك عندما نطقت أنّ أولى فواجع العمـر هي صدقي الذي صار سكّينا تحزّ رقبتي كلّ يـوم... أغمضت عيني بشـدّة على شناعة الألم من دون أن أحلم بشيء...

ـ ماما... ماما...
وعاد صوتها يصدح من جديد...
أبتليت بما لا أطيق.
كلماتها تحفر أخاديد في جسدي...
ابتسم لألمي.
ـ نعم ياحبيبتي
ـ مامـا ابقي اليـوم، لاتبرحي المنـزل،ثمّة فـأر صغير يمـرح في خـزانـة الكتب... وغسيل كثير، وسكون يمـلأ البيت عنـدمـا أعـود من المـدرسـة... وأنا...و

وتسحب يدي إليها، تتشمّها، ثمّ تعتمد عليها وتقف وتغمرني بقبلات الفرح، فأضمّ جسدها السّاخن الصّغير، وفي أعماق القلب شيء لا أريد أن يراه الآخرون...

ـ ابقي معي هذا اليوم...

وابتسم للموكب الصّوتي الذي تطلقه حنجرتها: أريد أن تطبخي لنا كذا.. وأحبّ أن... وتندلق من جديد الأسئلة....

فما ثمن قطرات المعرفة ياترى؟!..

جذبتني من يدي:

ـ قولي، هل أنت غاضبة؟!..

ـ .....

تركت يدي وخبأت وجهها في الوسادة شارقة بدمعها.. لن أهدر قلبي في الرّياح العابرة.. كرهت استسلامي للحلم المهدّد.. لآخر صورة تحتفظ بها الذاكرة، كرهت التلويحة الآسفة... كرهت توقفي عن الحزن... عن عويلي المتقطّع.. عن الهلع في ارجاء المكان... عبثا أظلّ أركض مدفوعة برياح المصير...

ـ اسمعني يانوال، من وعد...

قفزت في سريرها وشرعت تصفق بيديها صائحة:

ـ حسنا.. حين أعود في المساء إلى البيت سنحصي معا عدد النجوم وندوّن مجمل الاحصاء في دفتر الحساب.. ونضع للكراسي أرقاما وندوّن الملاحظات في كرّاس أشكال الهندسة.. ونصنّف أنواع السيّارات.. ونرسم فراشا وزهرا وطيرا وأشياء أخرى بالأقلام الملوّنة... وسنذهب معا في الموعد إلى عيادة الطبيب ليزرع في فمي اسنانا جميلة بيضاء.

وانثال الضّحك في حنان وفرح من فمها كمجرى نهر اغرق صباحي حماسا.. فتحت ذراعيها وارتمت تعانقني برضاء.. ثمّ ارتخت أعضاؤها كأنها متعبة وقالت: إذا تأخرّت عن موعد العشاء، سأكتب لك ورقة، فإلى اللّقاء!!..

وما كدت أبتعد عن سريرها حتى استوقفني صوتها: سأنتظرك حتّى تجيئي ولاتنسي أن تحملي الكتب!.

أكتوبر 1991

شعر

رسالة إلى عمر المختار

جميلة الماجري

جاء القرار إلى الثواك يا عمر   قم - غاضبا - هذه الصحراء تحتضر
لا الأسد عادوا أسودا في مَفَاوزها   أو للبطولة في أرجائها أثرُ
أو للقبائل نار نَسْتَدِلُّ بها   أو عَادَ يأتي الى صحرائنا القمر
هذا العرين ولكن الأُسود مَضَوْا   ساد الذئابُ على الأشبال وأقتدروا
إنّي نظرتُ إلى الصحراء أسألها   قد ينطق الرملُ أو يهفو لنا السَّمَرُ
إذْ بالظلام على البيداء منبسط   شكلُ العباد سَوَاءٌ فيه والحجر
في كل حبة رمل صوتُ باكية   لا الدمعُ أنجدها أوْ جاد مؤتمر
وللسيوفَ على أعمادها عَتَبٌ   قد يشتكي السيد إذْ يَنْتَابُهُ الضجر
هذا الحصار على الأحرار محتكم   والحُرُّ ليس بأم العلْجِ يأتمر
فالطوقُ في عُنُقِ الجواد يُشينه   يا رُبَّ طَوْقٍ لفرط الضَغط ينفجر
ضاق السكوت بناَ واستاءتِ الحُجَجُ   فليت أنَّا بَغير العُذر نعتذر
إن كان صمتك لا ينجيك مَن ضَرَر   سيَّانِ يصبح حُسْنُ القولِ والهَذَرُ
ما لي أرى الأرض نهْبًا تحت أرْجُلناَ   والأفقَ محتجزا والبحر يَندحر
وللحواجز أنياب مكَهْرَبَة   لها سُمٌّ على الإخوان مقتصر
أرثي العروبة أم أرثي لسادتها   في كل يوم لنا عن ضعفنا خبر
لا مجلسَ الأمن فيه الأمن ظَلَّلَنَا   أو قَابِضُ الوهمِ بالأحداث يعتبر
كمن يَفِيءَ بظَلٍّ يَسْتَقي دمَه   حتى يَضيع على أعتابه العُمُرُ
لا تنشد الدفءَ من نار تلظَّى بها   كم يحرق الدفءُ مَنْ بالجمر يستتر
إن نطلب الغوث من جلادنا جزعا   قد يقتل الخوفُ أو يَغْتَالُنَا الحذر

إنا اكتوينا بنار نحن موقدها حتى تبرأ من أضرارنا الضرر
إن الهموم لشتى في هوى وطني من لم يمت كدرا يغتاله الكدر

* *

هل في الرجال رجالٌ أستجير بهم هذا زمان به الخيبات تزدهر
أم أستجير - أنا - بالغُرْب يا وطني إنيّ العزيزةُ لكنْ... ساءَني القَدَرُ
قد يحلمون بموتي - والرّدَى قَدَرٌ - لكنّ عزّةَ نفسي ليس تَنكسر
إنَّا نموتُ وُقُوفًا في ذُرى وطني النسرُ ليس سوى العلياء يَعْتَمرُ
كالخيل تَغْفُو وُقُوفًا في أعنّتها كَيْمَا تهُبَّ إذا مَا دَاهَمَ الخطَر
مهما استطالوا على الأمجاد ماَ بَلَغُوا هل يستوي ناشِئُ الأعشاب والشَجَرُ؟
إن لَيُخْجلُني أن أشتكي وأنا كم ساد أهلي على التاريخَ وافتخروا
ماذا أقولَ وهذا الدمع يفضحني حَتَّامَ أرجو لهم بعثًا وأنتظر
كأننا لم نكن للأرض سادتها أو لم يَضعْ في مَدَانَا الفكرُ والبصر
كَانَ السحابُ إذا ما انْهَلَّ بارقُهُ شَرْقًا، يَبَلُّنَا في المغرب المطر
أوْ مَغْربًا هَلَّ منه وابلُ المطَر شَرْقًا تسيرِ وعودُ الخصب تنتشر
ثم انْفَرَطْنَا شظايا، كيف ننتظمُ والعقد خانَتْهُ من حبّاته الدُّرَرُ
صرنا نشيب شبابًا في هوى وطن جفاه منذ وُلدنا النصرَ والظفرُ
إن شقيت بأصل كان مفخرتي كَم منْ محبَّ بمَنْ ذَلُّوهُ يفتخر

* *

جاء القرارُ الى مثواك يا عمرُ قُمْ غاضبا هذه الصحراء تحتضر
أوْ نَمْ لتهنأُ بموت صار أمينةً لو قُدِّرَ البعثُ للأموات لانتحروا
إن كان أوْجَعَكُمْ من جرحنا ألمٌ فاغضبْ ليحرقنا من غيظك الشَرَرُ
هَلاَّ غضبتَ على الأحياء - يا أبت - حتى يجيبَ صَدَاك البدوُ وَالحضر
هلاَّ نَثَرْتَ الملحَ فوق جراحنَا إنَّ الحماسَ من الآلام يستعر
الحلمُ...؟ ليس سوى الأحلام يجعلني أرْضَى الحياةَ، تُرى هل يسعف العُمُرُ
حتى أرى رايةً للعُرْب خافقةً منْ طَيِّهَا التاريخُ عاد ينتشر
إن بكيتُ لدَاء قد أمَوتُ به وَالدمعُ ليس لغير العجز ينهمر
فاعذرْ شكاتَيَ إذا سَاءَتْكَ لا تَلُم إني يئست من الأحياء يا عُمَرُ
فالعدلُ ليس لغيرِ السيف ممتثلاَ والحقُ ليس بغيرِ السيف ينتصر
والمجد ليس لِغيرِ السيفِ مُنْجَذِبًا والارض ليس لغير الجُبن تحتقر

جميلة الماجري

دراســة

الغـــــزالات

هيثم يحي الخواجة

تمهيـد:

أصبح بديهيا الإيمان بتلاقح الثقافة العربية، لأن وحدة الفكر العربي ضرورة هامة في تحقيق الوحدة الشاملة. وهذا لا يتأتى إلا بالإطلاع على انتاج الأدباء العرب وقراءته وتمثله ونقده... ولئن كنت سألقي الضوء في هذه الدراسة على مسرحية «الغزالات» للكاتب الليبي الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه فذلك يعود لأمرين:

الأول: أن كاتب هذه المسرحية واحد من أهم كتاب الرواية والمسرح في الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية الشقيقة.

والثاني: هو محاولة لتحقيق ما جاء في مقدمة هذه الدراسة حول وحدة الفكر العربي.

مقدمة المسرحية

يولي كتاب المسرح ونقاده أهمية كبيرة على مقدمة المسرحية (البرولوج PROLOGUE) ذلك لأن وظيفتها كبيرة فهي بمثابة لوحة تعريف واستعلام حول شخوص المسرحية، وهي المدخل الأول لأحداث الدراما: وعلى الرغم من تنوع أشكالها واختلاف الكتاب في طريقة كتابتها فإن أهميتها تأتي من اعتبارها الحدث التمهيدي الذي يدهش المشاهد ويشده نحو العمل المسرحي. وليس غريبا القول: إن كتاب المسرح اليوناني كانوا يولون المقدمة المسرحية أهمية خاصة (يوربيدس)، ويجب أن لا ننسى شيخ المسرح الإنكليزي

شكسبيرالذي ركز عليها معتمدا على المونولوج في صياغتها من خلال ممثل رئيس (مثال ذلك ريتشارد الثالث وغيره) والسؤال كيف تكون مقدمة المسرحية ناجحة؟ وهل استطاع الفقيه أن يحقق صفات المقدمة الناجحة في مسرحيته (الغزالات)؟. إن توصيل الخيوط الهامة في العرض المسرحي للجمهور يقع على عاتق المقدمة، وعلى الأغلب تكون الخيوط كثيرة ومتشابكة ولذا فإن نجاح المقدمة يتحدد في مسك النظارة رؤوس هذه الخيوط ـ من خلال المقدمة ـ دون إكراه أو ملل، وضمن شحنة درامية معقولة لأن المقدمة ـ كما يقول لاوسون ـ هي حدث مسرحي قائم بذاته. وهنا تكمن براعة المؤلف في اعتماد السرعة للدخول من بوابة العرض دون استئذان أو حواجز تجعل المشاهد يدير ظهره للعرض من الوهلة الأولى... لقد استطاع الفقيه أن يحقق صفات المقدمة الناجحة في مسرحية (الغزالات) إذ نجده في المشهد الأول يسعى جاهدا كي يثير انتباه القارىء ويدفعه إلى التفكير في كثير من الأمور المجهولة التي تحتاج إلى حلول أو التي تحتاج إلى تفسير:

«هيلينا: (من تحت الأغطية وهي تدفع الرجل عن نفسها) هل فقدت عقلك؟

فيكتور: نعم فقدته

هيلينا: إنه الصباح

فيكتور: وماذا يعني؟

هيلينا: سوف يرانا الرجل

فيكتور: أنت أمام الجميع زوجتي. دعيني أحاول مرة أخيرة، إنني على ثقة من النتيجة هذه المرة.

هيلينا: لا تكن أحمقا، إن أمامنا ليال كثيرة في الصحراء

(تدفعه عن نفسها ضاحكة حتى ليكاد يسقط من فوق السرير، يرتدي بسرعة بنطاله، ويلتحف بأحد الأغطية اتقاء لبرد الصحراء، تقفز هي رشيقة كالفراشة بملابس السفاري تذهب إلى وعاء الماء المثبت بالجزء الخلفي من السيارة. تضع الماء على وجهها وتبدأ بتمشيط شعرها، وتنظر بانبهار إلى الأفق الذي يشتعل بنار الصبح)»(1)

فالوقت في المسرحية الصباح الباكر قبل شروق الشمس، والمكان الصحراء.. سيارة تقف في قلب الصحراء. هيلينا وفيكتور يتحدثان ضمن هذا المشهد... كل ما تقدم يثير الإندهاش ويجعل المرء يبحث، ويستفسر، وينتظر جوابا لما يدور..

مضمون المسرحية:

في الفصل الأول يدرك القارىء أن فيكتور يحب هيلينا، ويعتبرها غزالة حبه المنتظرة، كما يدرك أنه وعد هيلينا باصطياد غزالات من الصحراء. وقد لبت هيلينا دعوته التي جرت أثناء لقائهما في الحفل الذي أقيم على شرف فريق العمل المسؤول عن اكتشاف أحد حقول النفط وها هي مع فيكتور في الصحراء تأتي من لندن راضية لتقضي بعض الوقت وتحقق حلمها في اصطياد الغزالات لقد اعتبرت هيلينا الصحراء المقابل لكل ما كرهته في المدينة الكبيرة، أما جابر فهو دليل فيكتور في رحلته داخل الصحراء لأن فيكتور، يعمل باحثا عن النفط في الصحراء، ويدرس باطنها، ويكشف عن معدنها.. وسرعان ما يكتشف جابر أن هيلينا ليست زوجة فيكتور فيشعر بالضيق، ولم لا؟، وهو ابن الصحراء، ومن الذين لا يعترفون بعلاقة مع المرأة خارج دائرة الزوج والزوجة فذلك - في رأيه - عهر، ودعارة.. ويستغل الكاتب هذه الفكرة ليبرز المفارقة بين الحضارة والتصحر تفكيرا وأسلوب معيشة، ويحاول أن يبين ميزات ابن الصحراء، وميزات ابن الحضر الذي تأثر بالحضارة الحديثة ومفاهيمها، كما يحاول إبراز سلبيات المجتمعين فيطرح بعض القضايا الهامة كقضية تعدد الزوجات في الريف، قضية عدم ارتباط الابن بأسرته في المدينة كما يبرز أثر الحضارة في نشوء العلاقة المادية الواضحة بين الابن وأسرته:

«هيلينا: هل حدث لك شخصيا أن طلقت لتتزوج مرة أخرى

جابر: طبعا إحدى عشرة امرأة أغلب من عقدت عليهن. كن بكارى والله

هيلينا: إحدى عشرة؟ ظننتك رجلا عاقلا. دعني ألتقط لك صورة لعلي أفوز بجائزة من إحدى الصحف عندما أرسلها لهم باعتبارك الرجل الذي ضرب الرقم القياسي في الزواج

جابر: يعتبرونني في القرية من ضرب الرقم القياسي في قلة عدد الزوجات، يحدث ذلك لأنه لاحق لمن يبغي أن يتزوج أن يرى فتاته أو يتحدث إليها قبل الزواج فلا حل سوى أن يتزوجها كي يعرفها ثم يطلقها إن لم تعجبه لكي يتزوج امرأة أخرى حتى يعثر على من يرضاها وترضاه شريكة عمره وشريك عمرها»(2)

«جابر: إذا فأنت تدركين أن إرضاء الوالدين هو أعظم ربح

هيلينا: لا أقصد هذا النوع من الربح، أقصد ربحا آخر

جابر: رضاء الضمير

هيلينا: متى تفهم؟ أقصد الواحد بالمائة

جابر: واحد بالمائة ماذا؟
هيلينا: عمولة
جابر: عمولة لك أنت؟
هيلينا: طبعا؟
جابر: من أمك؟
هيلينا: وما الضرر من ذلك تحصلت منها على واحد بالمائة من ثمن البيت وحصلت أمي على القرض وهي سعيدة
جابر: إن هذه أشياء تملأ قلبي هلعا. لا تفزعني هذه الصحراء ولكن تفزعني الصحراء الأخرى.»(3)

وينتهي الفصل الأول بالرحيل باتجاه عمق الصحراء لاصطياد الغزلات.. وفي الفصل الثاني يدرك القارىء أنه مضت ستة أيام من بداية الرحلة، ويبدو المشهد جزءا آخر من الصحراء فالنفط كاد ينتهي في خزانه السيارة، وجميع الشخوص تغطي رؤوسهم، وألبستهم، ووجوههم الاتربة ودليل العاصفة التي مروا بها.. أربعة أيام وهم يدورون في حلقة مفرغة دون أن يستطيعوا صيد غزالة واحدة بالرغم من الجهد المبذول من قبل فيكتور، والدم الذي نزف من جبينه.. القلق يسيطر على الجميع.. والطعام غدا قليلا، والبحث عن نقطة يتزودون منها بالوقود والمؤونة.. الهم لا يفارقهم فضلا عن المعاناة من شدة الحرّ ووحشة الصحراء، والخوف من المصير شبه المحتوم.. وينتهي الفصل بنداء جماعي يمتلىء حرقة ولوعة... وفي الفصل الثالث يصبح المنظر جزءا آخر من الصحراء. فالأرض صخرية وعرة، والوقت قبيل مغيب الشمس.. الإعياء بدا على الجميع ففيكتور بدأ يرى أحلاما مخيفة. وأهل الصحراء يطاردونه. أما هيلينا فقد وصلت إلى درجة عالية من الإرهاق الشديد. وجابر الشخصية الوحيدة التي ما زالت متماسكة، ومحافظة على قواها.. لقد نفد كل شيء، ولم تعد الصرخات في الليل والنهار تجدي.. لقد تشققت الشفاه والألسنة ويبست الحلوق فتركوا السيارة باحثين عن الخلاص الذي أصبح سرابا.. لقد عارض جابر ترك السيارة لأنها تحميهم من الحر إلا أن إصرار فيكتور وهيلينا جعله يقبل بما يريد ان هذا فيكتور يفقد قواه، وها هي هيلينا تعاني سكرات الموت.. هذا الموقف الصعب دفع فيكتور لأن يطلب من جابر السير وحده لعله يصل إلى مكان آهل يستطيع من خلاله إنقاذهما لكن جابر يرفض الفكرة رفضا قاطعا.

تقدرقيمة المسرحية بتطورها الدرامي الذي يظهر في الأحداث. فالشخوص تمارس الفعل، وتنقل أحداث المسرحية من تطور إلى آخر، وإن انعدام التطور الدارمي أو ضعفه يفقد المسرحية رواءها، وتصبح مجرد حكاية لا يمكن تجسيدها ولذا فالكاتب المسرحي الناجح يركز على العوامل المساعدة للدراما (التعقيد ـ الصراع ـ الذروة ـ التشابك..) ليحقق هدفه في هذا التطور كما أن الكاتب المسرحي الناجح هو الذي يدرك ـ تماما ـ كيف يصوغ، وكيف يشكل، وكيف يربط لحظات الدراما من خلال الفعل ورد الفعل، والسبب لرد السبب ليعلو الحدث، وتتصاعد الدراما ولا ريب أن الاصطناع في التطور الدرامي يسيء إلى الدراما ويجعلها باهتة مسطحة وغير مقنعة فهل نجح الفقيه في تطوير الدراما في مسرحيته ـ الغزالات ـ؟ إن أول ظاهرة تتسم بها هذه المسرحية تكثيف الأفكار إذ نلحظ ذلك منذ المشهد الأول وهذا في ـ رأيي ـ ما أثر على التطور الدرامي فيها، وقلل من الفعل المسرحي ورد الفعل فيها، وجعلها أقرب إلى المسرحية الذهنية في بعض المشاهد. إن قارىء المسرحية يشعر بالأفكار المتزاحمة التي اختزنتها ذاكرة الكاتب كما يشعر أن أدواته الفنية خانته لكبح جماح هذا السيل الجارف من المعلومات..

وحتى ننصف الكاتب نقول إن بعضها جاء موظفا بشكل جميل ورائع ولكن بعضها أيضا جاء معلقا متأرجحا وغير مقنع.. وعلى الرغم من نجاح المقدمة في المسرحية ـ كما أسلفنا سابقا ـ نجد أن ما يلي المقدمة في الفصل الأول جاء فاترا باردا، ويكاد يخلو من الفعل المسرحي، ولم يتصاعد الحدث الدرامي إلا في الفصل الثاني ثم في الفصل الثالث ولكن بمقدار أيضا.. إن فكرة المسرحية ، ومرموزاتها غنية تشد القارىء، والمشاهد على السواء ولا نستطيع نكران ذكاء المؤلف في اقتناص الفكرة المناسبة، وتوظيف الكثير من القضايا من أجل خدمة النص المسرحي. فمن رموزه ـ مثلا ـ (الجمل ـ إله النيل ـ اله عزريل ـ العصا ـ أجاممنون ـ الصحراء ـ الغزالات ـ النهر ـ الطيور الخضراء ـ الجدائل الذهبية ـ بقعة الضوء ـ ... الخ...)

أما عن الأفكار فسأحاول الوقوف على أهمها:

إن الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه يريد أن يثبت في مسرحيته مقولة هامة في حياتنا وهي أن هذا التقدم العلمي الكبير الذي توصلت إليه أوربا لا يمكن أن ينجح إذا خلا من القيم كما لا يمكن أن يحقق شيئا إذا تخلت البشرية عن إنسانيتها:

«جابر: (معلقا على الدخان) إنك تفسد الهواء في صحرائنا بعادم سيارتك.

فيكتور: هيا وإلا تركتكما للصحراء وذهبت

جابر: قلبي لا يتمنى إلا هذا، اتركنا واذهب»(4)

إن ابن الصحراء - أي الأرض العربية - هو أحق الناس بأرضه، ولن ينجح تقدم أوتطور دون الاعتماد على صاحب الأرض ودون أن يكون صاحب الأرض فاعلا ومنفعلا فيها.. إن تقدما خاليا من الإنسانية، وحضارة فارغة من القيم لا يمكن أن تنجح أو يكون لها شأنها وقيمتها فالإنسان العربي قادر أن يصير ابن الحضارة الحديثة، وقادر أن يطور أرضه، وأن يكشف مكنوناتها، ومخزوناتها... وإذا كان يحمل بعض السلبيات فهي سلبيات فرضتها عادات وتقاليد بالية في زمن ما.. وإذا كان العربي في أول سلم الحضارة فإن عليه أن يغذ السير في صعود درجات السلم بسرعة ليواكب حضارات الأم، كما عليه أن يتخلص من عاداته البالية، وتقاليده المهترئة ليحقق هدفه في التقدم والإزدهار - وهو قادر على ذلك - إن فقدان فيكتور وهيلينا الأمل في العيش فوق الصحراء دليل قاطع على أن أبناءها هم المطالبون بالإرتباط بها، واستنباط ثرواتها، وحمايتها، وما السعي لقتل الغزالات إلا إشارة واضحة على وحشية الإنسان الأوروبي، وما لعنة الغزالات إلا رفضا لما يفعله الأوروبي في أرضنا، وما موت ابن جابر إلا رمز لغضب الصحراء على الإنسان العربي الذي تنكر لأرضه، وحاول أن يبدّد مكنوناتها.

الشخصيات

تتألف المسرحية من ثلاثة أشخاص (فيكتور - جابر - هيلينا) بمعنى أن المؤلف حقق النظرية القائلة: إن من سمات المسرحية الناجحة قلة عدد الشخوص.. والسؤال الملح هنا هل استطاع الكاتب أن يتبع الأنموذج الدرامي المنطقي والصحيح في شرح الشخصيات المسرحية؟ أي هل أظهر ملامحها الخاصة والعامة؟، وشرح بنيتها، ودقق في تصنيفها، وجعلها تأخذ صفتها من حيث الفعل والطباع والسلوك؟ هل تدخل في حركاتها وتفكيرها وتصرفاتها؟ أم تركها مستقلة تتصرف بموجب طبيعة الحياة ومنطقية الأحداث المتفجرة في النص المسرحي؟

ولكي ننصف المؤلف نقول إن المؤلف وصل الى حد معقول في جعل الأشخاص رموزا ذات دلالات وسمات حققت هدفه في إيصال أكبر قدر ممكن من الأفكار التي أراد طرحها والتركيز عليها في المسرحية.. ففيكتور رجل يعمل في البحث والتنقيب عن النفط في الصحراء. لقد اندفع هذا الباحث

نحو عمله وعلمه غير آبه بالمعاني الإنسانية لوجوده فوق أديم الأرض حتى حبه لهيلينا وظفه ضمن بوتقة عمله.. ولقد غره الجانب المخادع والبراق للحياة الحضارية فانغمس في وجه الحضارة الزائف وهذا أدى إلى نهاية مأساوية، وهذا أيضا جعل الصحراء تنتقم منه:

«فيكتور: إن لدي أسبابا أفضل من ذلك بكثير لعل إحداها أنني مثل الحجر المتدحرج. لم أعرف لي يوما مكانا أستقر به، وإني لست كثير الشوق إلى امرأة في البيت لا هم لها إلا أن تسأل أين؟ وكيف؟ ومن؟ ومتى؟ ولماذا؟ أما أكثر أسبابي أهمية فهو أنني لو كنت تزوجت لضاعت يا هيلينا فرصة أن ألقاك، وأن آتي معك في نزهتنا الصحراوية...»(5)

وأما هيلينا فهي المرأة الأوروبية التي تطبعت بطباع البيئة الإنكليزية ولذلك فقد حملت صفات هذه البيئة فهي لا تهتم إلا بعملها، وليس في حياتها إلا سعادة نفسها وتحقيق الربح الأكبر.. إنها ترتبط بمادية الحياة لا بقيمها ومعانيها الإنسانية. وإذا كنا نلحظ حوارا يعبر عن اخضرار قلبها ونداوته فإن ذلك ينطلق من ذكريات ذاتية، ومن دوافع غريزية لا تصب في الفعل الحياتي وانعكاساته(6) (ص 126 ـ 127)

لقد ضاعت هذه المرأة في غياهب الحضارة الحديثة وهذا ما دفعها إلى البحث عن أمل يغذي قلبها فاندفعت لتزور فيكتور الرجل الذي التقت به لقاء عاديا عابرا دون أن تكترث بموعد زواج أو بحياة أسروية سعيدة.. كل ما وعدها به اصطياد الغزالات من الصحراء.

«جابر: وهل وافق أبويك بسهولة على سفرك لزيارة أحد الغرباء؟ يا لهما من أبوين عجيبين!

هيلينا: أبواي؟ يوافقان؟ لماذا؟ ما دخلهما؟ إني أحبهما لكني منذ ثلاثة أعوام لم أذهب لزيارتهما فهما يعيشان بعيدا عن لندن ما يقرب من ساعة بالقطار، لكني رأيت أمي مرة بالمحطة فقلت لها أهلا...»(7)

«هيلينا: لا أقصد هذا النوع من الربح، أقصد ربحا آخر

جابر: رضاء الضمير

هيلينا: متى تفهم؟ أقصد الواحد بالمائة

جابر: واحد بالمائة ماذا؟

هيلينا : عمولة.

جابر : عمولة إلى أنت؟

هيلينا: طبعا

جابر: من أمك؟

هيلينا: وما الضرر من ذلك...»(8)

أما عن شخصية جابر فتعتبر - في رأيي - أدق الشخصيات في هذه المسرحية. لقد أحاط المؤلف بهذه الشخصية سلوكا، وتصرفا، وفكرا، مما جعلها تتطور، وتتفاعل مع الأحداث بأسلوب عفوي جميل وعميق..

تمثل شخصية جابر الإنسان العربي الذي يحمل نقاء الصحراء، وطهر الأرض.. إن جابر هو ذلك العربي الذي يحمل صفاء الإنسان، والذي لم يتلوث بالوجه الزائف فيها. إنه رمز الأصالة العربية التي بقدر ما تتطلع إلى الحضارة بقدر ما تحافظ على قيمها النبيلة من صدق، ووفاء، وشهامة ورجولة.. إنه رمز الإنسان العربي الذي يعشق أرضه، ويأمل بالحياة الكريمة والمستقبل الإنساني السعيد:

«جابر: لقد فكرت في العار الذي سيلحق بأولادي. عندما يعلم أهل القرية أني في لحظات الشدة تركت رفاقا كنت دليل رحلتهم في الصحراء، وذهبت أحاول أن أنجو بنفسي (صمت) ها قد جاء الليل فلا تحرمني من متعة أن أتكىء هنا، أنظر للأنجم وأسبح الله حتى يغشى عيني النوم.»(9)

إنه رمز العقيدة الصلبة التي تمرست على الصبر، وتحمل الصعاب «ليكن قلبك عامرا بالإيمان في حضرة هذه الصخور التي قد تطول عندها إقامتنا. لا أدري إن كنا سنقوى على المشي بأكثر مما مشينا..»(10)

لقد كشف الكاتب صفات هذه الشخصية من خلال الفعل ورد الفعل ومن خلال المونولوج فعرفنا على جزئيات كثيرة ودقيقة في حياتها دون تناقض أو تماثل مع الشخصيات الأخرى أو خيال يبعدها عن الواقع.. ومما يسجل للكاتب في هذا المجال اهتمامه بعنصر التشويق في رسم شخصياته وعلى الأخص شخصية جابر فهو لا يدعنا نفهم الشخصية مرة واحدة وإنما بالتدريج - وهذا هو الفن - إذ كلما توغلنا في الحوار وتصاعدت الأحداث تعرفنا على الشخصيات أكثر، واكتشفنا أشياء جديدة فيها.. لقد بدأ المؤلف - منذ الصفحات الأولى - برسم شخصية جابر وبقية الشخصيات. وظل يكشف ويعمق هذه الشخصيات حتى الصفحة الأخيرة من المسرحية:

«جابر: يختلف شكل الصحراء عندما يأتي الليل، إني أكرهها نهارا وأعشقها ليلا. كنت أجد نفسي وحيدا في الصحراء فانتظر الليل لكي يأتي، أوقد نارا في حجم القصر، أتدفأ وأبدد من حولي الوحشة، ثم أعد الشاي وأتكىء لا أفعل شيئا سوى أن أشرب أكواب الشاي وأنظر للأنجم أحاول أن أحصيها..»(11)

الحوار: لا يختلف اثنان على أهمية عنصر الحوار في العمل المسرحي إذ هو أداة التوصيل التي يستخدمها الكاتب ليوصل ما يريد إلى الجمهور من

أفكار ومشاعر وأحاسيس وقضايا كثيرة أخرى.. ويمكن حصر أهم الأخطاء التي يقع بها كتاب المسرح في صياغة الحوار بأمرين:

الأول: تحميل الشخصية حوارها أكبر منها فتحدث الهوة بين المشاهدين وبين الأحداث والشخصيات بسبب انعدام الثقة - في مثل هذه الحال - بين ما تقوله الشخصية في حوارها، وبين المعرفية المسبقة المتكونة قبلا حول الشخصية التي تمثل نمطا معينا في واقع الحياة

الثاني: عدم معرفة الوقت المناسب لاستخدام الحوار البرقي (الموجز - القصير - المركز) والحوار الطويل

لقد استخدم إبراهيم الفقيه الحوار البرقي والطويل في مسرحيته وما يؤخذ عليه أنه لم يتناسب - أحيانا - مع المواقف في المسرحية ففي حين كان فيه الحدث يتوتر ويتصاعد نجد الكاتب يميل إلى الحوار الطويل الذي يسبب - أحيانا - فتور الحدث إذا لم يكن دقيقا ومثيرا ومشوقا:

«هيلينا: «ترفع رأسها تتشبث به، وتضع ذراعيها حول عنقه وكأنها عثرت عليه فجأة، لا أريد أن أموت، لا أريد أن أموت، لا أريد أن أموت يا فيكتور - تبكي -

فيكتور: ما كان ليحدث هذا كله لولا تلك اللحظات الخارجة عن كل النواميس الهاربة من الزمان والمكان، تلك اللحظات العجيبة عندما كنت أندفع مبهورا، مسلوب العقل والإرادة خلف تلك العزالة، وكأن قوى خفية مجهولة تحركني، أذكر الآن أنني رأيت وكأنها تقودني إلى تلك الينابيع التي أتي منها الضوء، إلى أرض جديدة غريبة كأنها جزر المرجان مقرفة بسماء زاهية الألوان، يضوع فيها المسك، ويرتفع فيها الانشاد الملائكي وتشهد عرسا كبيرا يتواصل أبد الدهر، حيث تغتني الروح، ويجد القلب سلامه الدائم، ويصير الإنسان شفافا كالماء. كنت أعرف أنني أراهن بعمري للذهاب الى تلك الأرض، ولكن أنتما ما ذنبكما....»(12)

الحوار الموجز المركز يتناسب مع تصاعد الأحداث المتسارعة، والحوار الطويل يتناسب مع المونولوج الداخلي، وكل له مكانه، وكل يتناسب مع الحدث والموقف والفكرة المرادة هذا ولا يجوز الخروج بالحوار قصيرا كان أو طويلا قيد أنملة عن الفكرة في المسرحية التي يجب أن تتطور دائما وأن يوظف كل شيء من أجل التصاعد الدرامي. فالحوار في بعض المشاهد - في رأيي - يسيء لتطور الحدث ولا يضيف شيئا ذا بال سوى وصف خارج

عن دائرة الحدث الأصلي وهذا ما جعله جافا فارغا لا وظيفة له(13)..

اللغـة المسرحية لغـة صعبـة لأنهـا لغـة النظـارة بمختلف ثقـافـاتهـا، وإدراكاتها، ومعارفها ولا يمكن اعتبار اللغة الإنشائية لغـة مسرحيـة لأنهـا تسيء الى المسرحية وتضعف فنيتها ولا ننكـر أن هـذه اللغـة سيطـرت ـ في بعض الحوار ـ سيطرة واضحة:

«هيلينا: (مازالت تكتب في المفكرة) إنها رسالة واحـدة أجلس لأدقهـا على الآلة الكاتبة يوما وراء الآخر، منذ شروق الشمس ـ هـذا طبعـا إن شرقت ـ حتى مغيبها، وإلى أن صارت أحرف تلك الرسالة كأنها حبال تمتد لتكتيفي، أو قطرانا أسـود يتجمـع من حـولي ويفـرق جسمي حتى يصـل إلى عنقي، أصرخ فإذا بالساعة قـد صـارت واحـدة، أذهب لتنـاول شيء في المقهى على عجل وأعود إلى تلك الآلة، حتى إذا ما كاد قطران الملـل يغطي وجهي يـأتي موعد الإنصراف فيتأجل موعد خنقي إلى اليوم التالي:........و(14)

ويلحظ عدم تطابق الحوار مع الشخصيـة(15) وهذا يجب أن لا يقع بـه كاتب مسرحي على مستوى الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه، وليعـذرني المؤلف إذ ذكرت بعض الأخطاء النحويـة التي لا يمكن اعتبـارهـا أخطـاء مطبعيـة (إحدى حقول البحـر)(16) (واحد اثنين ثلاثـة)(17) (لوحدها)(18) (يجده مليء)(19) (حتى تجدون)(20) (ثلاث أعوام)(21) (بإحدى أركان)(22) (ثمة سريرين)(23) (ثم يطهيها ويأكلها)(24) (أيتها البحر الممتد)(25).. الخ....

كلمـة أخيرة:

تبقى مسرحية الغـزالات من المسرحيـات الجـادة والجـديـرة بـالقـراءة والعرض، وهذا يجعلني أؤكد ثانية على التواصـل الثقـافي العـربي ليكتمـل المشهد الثقافي، وليتعرف الأدباء على نتاجات بعضهم والدرجـة التي وصـل إليها المبدعون. ومن خلال ذلك يترسخ التـلاقـح الثقـافي المنشـود، وتتعمق الوحدة الفكرية، ويزول الجهل بأدبائنا العرب.

هيثم يحي الخواجة

هوامش

(1) مسرحية الغزالات ـ المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ص 8 وتقع المسرحية في 176 صفحة من القطع الصغير. وتجدر الإشارة إلى ورود كلمة (أحمقا) في النص الأصلي والصحيح أحمق.

* (2) نفس المصدر ص 25 ـ 26

(3) نفس المصدر ص 50 ـ 51 «ورد في النص الأصلي جمعة ـ ظننتك رجل عاقل ـ والصحيح ـ رجلا عاقلا ـ»

(4) نفس المصدر السابق ص 63

* (5) نفس المصدر ص 54

(6) نفس المصدر ص 126 ـ 127

(7) نفس المصدر ص 49 ـ «ورد في النص الأصلي جملة ـ وهل وافق أبويك ـ والصحيح ـ أبواك ـ»

(8) نفس المصدر ص 50 ـ 51

(9) نفس المصدر ص 164

(10) نفس المصدر ص 147

(11) نفس المصدر ص 150

(12) نفس المصدر ص 156 ـ 157

(13) نفس المصدر (الحوار من ص 85 ـ 90)

(14) نفس المصدر ص 17

(14) نفس المصدر ص 17

(15) نفس المصدر ص 44 ـ 106

(16) نفس المصدر ص 49

(17) نفس المصدر ص 22

(18) نفس المصدر ص 49

(19) نفس المصدر ص 76

(20) نفس المصدر 105

(21) نفس المصدر ص 112

(22) نفس المصدر ص 119

(23) نفس المصدر ص 7

(24) نفس المصدر ص 10

(25) نفس المصدر ص 15

قصة

زغـــاريـــد

محمد الخموسي الحناشي

الليل يمتد موغلا في الزمن، والظلام يبالغ في تسجيته حتى لتراه يحرص على جعل كل شيء يفنى فيه ويلتحم به، والسكون القلق المشحون قد احتوى في أعماقه كل حركة ونأمة وحياة. وسط الظلمة الحالكة وقف عوّاد متحفزا يدقّق النظر فيما حوله خنّاق الجنان، متيقظ الفكر، مشدود الأعصـاب لقـد طلبوا منهم أن يكونوا في أقصى حالات الاستعداد فكل الدلائل والمعلـومـات تؤكد بأن الأعداء يعتزمون الهجوم في تلك الليلة.

الأوغاد لقد تقاطروا من كل صوب وحدب شأنهم شأن الذئاب الجائعة عند اكتشافها لموقع الفريسة.

حتى أولائك التعساء الذين يموت الآلاف منهم جوعا كل عام لم يتخلفوا عن الحضور استجابة لنزعة العمودية المتـأصلـة فيهم ونـزولا عنـد إرادة مولاهم كبير رعاة البقر، سيد قراصنة القرن العشرين. حتى العرب للأسف الشديد لم يجدوا بأسا من الاشتراك في جيش العدوان.

كان كل شيء يوحي بأن ساعة الصفـر آخـذة في الاقتراب، وأن الانفجـار الرهيب صار وشيكا رغم الهدوء الظاهر الذي يسود المنطقة، وفجـأة ودون مقدمات تتردد في الفضاء أصداء انفجارات تحدث بعيـدا، وتبـع ذلك ظهـور بؤر من الضوء هنا وهناك.

أبناء الأفاعي، من أين قدموا فلم يسمع في الفضاء هـديـر أو أزيـز ولـو طائرة واحدة ؟ وكيف لم تكتشفهم أجهزة الرادار والاستكشاف عن بعد؟

ويتوالى القصف والدوي دون انقطاع، وتشتعل الأرض والسماء نارا.

تقدم عواد من مدفعـه الـرابض في صمت وهـوى عليـه بقبضتـه مـرات

متوالية وهو يصرخ في غضب جنوني:

ـ متى تنطق؟ متى؟

ويسأله رفيقه قسّام في قلق ظاهر؟

ـ أتراهم يقصفون العاصمة؟

ـ ذلك هو المرجح

ـ ماذا علينا أن نفعل؟

ـ لاشيء في الوقت الراهن على الأقل سوى الانتظار.

ـ إلى متى؟

ـ إلى أن نتلقى الأمر بالقتال.

ـ هل تعتقد أنهم سيشرعون في هجومهم البري قريبا؟

ـ لا، ليس قبل أن يتأكدوا من القضاء على أهم قواتنا ونظام دفاعنا الجوي وقواعدنا ومنشآتنا الحربية

ـ خابت أحلامهم، غدا يتّضح لهم أي شعب نحن، لقد أقسمنا على أن نجعل من أرضنا مقبرة لهم.

وتمر الساعات طويلة بطيئة متثاقلة كأنها اقتطعت من يوم الحساب، ويبدو الليل أكثر كآبة ووحشة وغموضا.

لم يتوقف القصف حتى مطلع الفجر وإن صار متقطعا. وتسارع وسائل اعلام الأعداء وتلك الدائرة في فلكها ببث أنباء الانتصار الذي حققته قواتهم، وتعم الفرحة قواتهم بالجبهة وعواصمهم ويخرجون إلى الشوارع يرقصون ويتبادلون الأنخاب احتفالا بذلك النصر المزعوم الذي حققه جنودهم على القائد العربي وجيشه.

وخيم الحزن والأسى على ربوع الوطن الكبير وتفيض النفوس مرارة وحسرة، ويغمر اليأس قلوب الجميع.

لقد خاب الأمل وانقطع الرجاء وتبخرت الأحلام الواعدة الجميلة.

هل كتب على عرب هذا العصر ألاّ يتذوقوا لذة الإنتصار وألاّ يعرفوا غير الهزائم والنكسات؟

يصاب عواد بحالة تشبه الذهول ومثله كان قسّام.

هل حقا انتهى كل شيء؟ غير ممكن، مستحيل.

يقول عواد محاولا التخفيف عن رفيقه:

ـ لاتصدّق ما يقولون، أنهم يجيدون الكذب كما تعلم حتّى على أنفسهم.

ـ إلى هذا الحد؟

ـ بل وأكثر من ذلك، هـل تشك في قـوة جيشنـا ودرة قيـادتنـا وعظمـة شعبنا؟
ـ بالطبع لا.
ـ إننا شعب لم يعرف الانحنـاء والخضـوع والاستسـلام عبر تـاريخـه الطويل، كل مواطن فيه يعرف كيف يموت بشهامة وشرف.
ـ آمل أن نسمع قريبا ما يفنّد مزاعمهم ويدحض أراجيفهم.
ـ سيحدث ذلك أن شاء الله.
ـ يارب
ولم تمض غير ساعات قليلة حتى يصدر عن قيادة الجيش الوطني بيـان يصحّح ماروّجته وتروجه وسائل الاعلام المعادية من أنباء زائفة مؤكدا بأن ما وقع تدميره في الهجوم الجوي الليلي المكثف الذي تعرضت له العـاصمـة وضواحيها الليلة الماضية أن هو الا جملة من الأهداف الوهمية التمويهية لا غير، وأن جميع القوات الوطنية سليمة تماما وتقوم بتأدية دورها في الـذود عن حرمة تراب الوطن على أكمل وجه.
ويصيح عوّاد وهو يقفز فرحا :
ـ أتسمع يا قسّام.. ألم أقل لك؟
ويتعانق الرفيقان في ابتهاج.
أخيرا انزاح الكابوس الذي ظل يكتم أنفاسهما طوال سـاعـات. ويـرتـج العالم من وقع البيان، وتضطرب وسائل الإعلام في الدول المعـاديـة وتهتـز صورتها في أعين مواطنيها وشعوب العالم قابطة وهي التي كان يقال عنهـا دائما أنها في غاية الدقة ومنتهى الصدق والموضوعية.
يصاب القرصان الأكبر وبطانته بالاحباط والانهيار ويبادر بمخاطبة قائد قواته بمنطقة العمليات مستوضحا عن حقيقة ما حدث.
ويأتيه الجواب غير مطمئن ولا باعث على الارتياح.
لقد انقلبت الأشياء، واختلطت الموازين وحدث مالم يكن في الحسبان.
وتلوذ قيادة القـوات الغـازيـة بـالصمت، وتشرع في البحث والتقّصي عن حقيقة الوضع، وتنطق أخيرا لتحاول التشكيك في صيغة مـا تضمنـه بيـان القيادة العربية من حقائق ومعلومات حـول نتـائج الهجـوم الجـوّي الـذي مايزال متواصلا على العاصمة وضواحيها، مجتهدة إخفاء ما أصيبت به من خيبة أمل واحساس بالمرارة، ثم لا تلبث أن تعترف بصورة ضمنية بفشـل ذلك الهجوم.

ورغم بشاعة ووحشية ماحدث ويحدث يعم الارتياح والتفاؤل ربوع الوطن الكبير، وتنطلق الجماهير الشعبية بالشوارع في مسيرات حاشدة منددة بالعدوان مؤيدة لأبناء عمومتهم الذين يواجهون باباء وشمم أعظم حشد عسكري عرفه تاريخ الحروب.

وينصرم اليوم الأول والثاني والثالث، يمر أسبوع والقتال مايزال دائرا دون هوادة، ويتأكد الاعداء أن الأمر بالغ الخطورة والتعقيد وليس بالبساطة التي كانوا يتصورونها، وأنهم يواجهون شعبا عظيما وجيشا قويا وقيادة واعية صلبة.

وأخذ الوهن والاضطراب يدب في صفوفهم وتأثرت روحهم المعنوية، إنهم يواجهون شعبا أسطورة لقد فعلوا معه المستحيل دون جدوى، عزلوه عن العالم، قيدوا حركته، وفرضوا عليه حصارا بريا وبحريا وجويا فلم يضعف ولم يتذمر، شدوا عليه هجوما جويا بالغ القسوة والضراوة استخدموا فيه أحدث ما حوته ترساناتهم الحربية من أسلحة الفتك والدمار فلم يخضع ولم يرفع الراية البيضاء. كان شعورا بالفخر والاعتزاز يملأ جوانح عواد وهو يستمع إلى نشرات الأنباء والبيانات العسكرية التي كانت تبثها الإذاعة الوطنية من حين لآخر.

وكان يزداد إنتشاء وهو يستمع إلى ردود فعل الأعداء التشنجة ويستشعر صدى ما أصابهم من قهر واذلال وشعور حاد بالخيبة والاحباط، لكنه كان في نفس الوقت ينزف ألما لما يكون لحق بأم المدائن من دمار وحاق بأهلها من هلاك وويلات ومتاعب.

مهما قيل ومهما يقال فان الاضرار حتما في غاية الجسامة، من الأكيد أن المئات إن لم يكن آلالاف من المواطنين الأبرياء قد اغتالهم الموت تحت الانقاض أو حرقا بنيران القذائف والصواريخ وأصيب غيرهم بتشوهات وعاهات مستديمة.

ترى ماذا حل بأهله؟ وهل خطيبته هدى ما تزال تقيم بالعاصمة أم انتقلت منها إلى مكان آخر؟ لقد أخبرته في آخر رسالة لها أنها التحقت بإحدى الكتائب الانتحارية؟ وماهي أخبار جيرانهم؟ أبوسمرة، أبو نضال، أم صابر، الحاجي خالد الشوّاف........

كان الله في عون الجميع.

وتنضم القوات البحرية الرابضة بمياه الخليج إلى السلاح الجوي في دك العاصمة، ويمتد القصف إلى أهم مدن الشمال والجنوب مستهدفا المنشآت

المدنية، الجسور والطرقات، مولدات الطاقة، صهاريج المياه، مصانع الأدوية والأغذية، المدارس والمساجد والأحياء السكنية، حتى المخابىء التي التجأ إليها الشيوخ، النسوة والأطفال لم تسلم من القصف.

وبرغم هول النيران وتوالي الغارات على امتداد ساعات الليل والنهار دون توقف يظل الجيش صامدا يقظا والشعب شامخا متحديا.

كانوا يعتقدون بما حشدوه من جيوش وعناء أنّ الهجوم سيكون خاطفا ولن يستغرق غير بضع ساعات وبعدها ينتهي كل شيء.

ويبدأ الاعداء الإستعداد لخوض المعركة البرية الفاصلة التي تحاشوها كثيرا وحرصوا على تأجيل موعدها أكثر من مرة لمعرفتهم بقوة وصلابة الجيش الذي يقف في مواجهتهم.

وأخيرا وبعد صمت طويل يرتفع صوت مدفع عوّاد في الفضاء مزمجرا متوعدا مرسلا حممه باتجاه طائرات الأعداء، وعوّاد خلفه يوجهه في هذا الاتجاه وذاك قد طغى عليه شعور بالنشوة والارتياح.

لقد انتظر تلك اللحظة طويلا.

سوف يثأر لكل شهيد، لكل أرملة وثكلى ويتيم، لكل بناء انهار وشجرة اجتثت، ونبتة احترقت، ويستمر القتال عنيفا ضاريا، تصاب القوات المعادية بخسائر فادحة، ويضرب مقر قيادتها ومراكز تجمع قواتها في العمق، وتشهد بعض المناطق من البلاد عمليات إنزال لفرق من القوات الخاصة فيتعرّض معظمها للإبادة وتحاصر البقية، وتصاب قيادة القوات المشتركة بالهلع هل ستدور الدائرة عليهم آخر الأمر؟ لقد أخذ سير المعارك منعرجا جديدا غير الذي خططوا له وأرادوه، ويبادر كبيرهم بالاتصال بقائد قواته بجبهة القتال سائلا مستفسرا عماً حدث، مسترشدا برأيه فيما يمكن عمله، فينصحه باعلان وقف القتال فورا ومن جانب واحد وإلاّ فان معظم قواتهم ستتعرض للمحق والابادة وإذا حدث ذلك فسيضطرون لامضاء صك هزيمتهم بأيديهم ويعرضون أنفسهم لنقمة ومساءلة شعبهم الذي لن يغفر لهم ذلك تحت أي مبرّر علاوة على أنهم سيفقدون هيبتهم ومركزهم بين الدول الحليفة والصديقة وكل دول العالم على حد سواء.

لقد أصبح استمرار القتال أمرا مستحيلا بالنسبة إليهم ولم يعد أمامهم من خيار غير وقف إطلاق النار وفورا وبذلك وحده يمكنهم انقاذ ما يمكن انقاذه، ويحافظون على مكانهم وهيبتهم بين دول وشعوب العالم.

يقول طبيب مستشفى الميدان وهو يتفحص إصابة عواد :

ـ هل علمت بالنّبأ ؟

ـ نعم لقد أخبرتني إحدى الممرضات بذلك منذ قليل، الحمد لله لقد إنتصرنا.

ـ نعم لقد انتصرنا رغم أنهم يرفضون الاعتراف بذلك.

ـ وهل يسعى إلى إيقاف الحرب غير المنكسر المهزوم

دعهم يقولون ما يحلو لهم فلن يصدقهم أحد بعد الآن.

ويسأل الطبيب في توجس :

ـ أصدقني القول ياحكيم هل سأشفى من إصابتي؟

ـ بإذن الله تعالى.

ـ سننقلك إلى مستشفى المحافظة وهناك سوف يكملون علاجك، وان هي الا أسابيع قليلة تعود كما كنت.

ـ يعني سيكون بامكاني العودة إلى فرقتي؟

ـ بكل تأكيد

ـ الحمد لله، أرجح أنهم سيعودون مجددا وأحب أن أكون حتى القاهم.

ـ الشعب كله لهم بالمرصاد وبانتظارهم إن هم فكروا في العودة من جديد.

ـ إن لي معهم حسابا مايزال معلّقا.

يجب أن تستريح الآن، لقد أجهدتك بالكلام أكثر مما يجب، لم يكن من حقي أن أثير معك حديث الحرب والقتال وأنت على هذه الحال.

لاعليك، أنا بخير مادام وطننا بخير.

ـ لن يغلب شعب صنع التاريخ وشيّد قواعد الحضارة، وعلّم الانسان مالم يعلم.

وتعلو باحدى خيام المستشفى القريبة زغاريد الفرح القادم تمسح عن النفوس ماعلق بها من أحزان. وتدخل إحدى الممرضات فيسألها الطبيب عن سر ذلك فتخبره باسمة الثغر بأن إحدى المجنّدات قد وضعت مولودها الأول وكانت ولادتها عسيرة، لكن الله أخذ بيدها.

ويردد قسام الراقد في طرف الخيمة:

ـ وهذا جندي آخر.

ويهمس عوّاد وهو يتطلع من باب الخيمة إلى الفضاء الرحب:

ـ لن ننتهي، وسوف يكون لنا مع اطلالة كل يوم ميلاد جديد.

قابس في 92/10/18

قصة

من أفراح الطفولة

البشير المجدوب

أفراح وأفراح... عناقيدُ من الأفراح مُـهدَّلة، قطوفها دانية في أعماق ذاكرة إنسان آخر غريب، بعيـد قـريب، هـو أنـا وليس أنـا، كُـنْـتُـهُ منـذ عشرات السنين...

ماذا أرى؟ ماذا أسمع؟

أسطوانة قديمة هجينة اللغة من ذاك العهـد السمـج البـائس، ولكننـا لم نكن، نحن الأطفال، نشعر بقُبحه وشؤمه، ولم نتجرّع بعد مرارته وأذاه، إلاّ فقط ما يثيره شبح الشرطة الفرنسية من خوف ورهبة، ودهشة وغرابـة في نفوسنا الهشة الغريرة.

قد تكون هذه الأسطوانة سخيفـة اللفـظ، تـافهـة، زريـة المضمـون، لمـا يشوبها من عجمة ورطانة، شأن بعض أغاني ذلك الجيل الذي لهج بالتقليد على نحو ركيك مضحك، والتشبه بالأجنبي الدخيل، ولكنها كـانت أوّل لقـاء لي صبّيا بروعة الموسيقى، لما في النغمة من رقة وحنان، وعذوبة ولطافة.

تُرى لماذ أحدثت هذه الأغنية بالذات تلك النشوة العجيبة والهـزّة القويـّة، والتحمت دون غيرها بالنفس التحاما؟

ألأنّ فيها شيئا من رقة الأم وحنـانهـا، ومن روح المـرأة عـامّة وفتنتهـا وبهجتها، فالطفل فـيٌّ غلام أو هو على وَشْك، يحنّ دون وعي إلى الأنـوثـة ويهفو إليها؟!

أمْ لأنّ النغمة تونسيـّة صميمة فيها طعم البلد، ونكهةُ الحيـاة بـأرْضنـا

ورونقُها، وقبس من نفسيّة القوم، ولما فيها رُبّما من تقسيم وترتيب في النغم، وحركة راقصة، وإيقاع خفيف سريع استجاب لها الطفل عفوا، كما لو كان يستشعر في عتمة النفس ما فيها من جدّة وطرافة؟!

إن هي إلا لحظات بمقياس الزّمن، ولكن الذكرى ماثلة أبدا، والحنين نابض حيّ قائم في النفس إلى اليوم.

تجربة موالية هي فتح آخر، وكشف لزاوية محجّبة من الذات عرفْتُ فيها أيضا ـ في لحظات خاطفة ـ حقيقة الطرب، وذُقت كنْهَ الفن انتشاءً بمعزوفة، أو على الأصح، «تقسيم»، كما يقال، على البيانو، ذلك النوع القديم الذي تستعمل فيه الأصابع والقدمان معا، وكان إذ ذاك شائعا كثير التّداول في الأعراس والأفراح.

ولقد استمعت كثيرا، فيما بعد، إلى البيانو الحديث «الفورتي»، منفردا أو ضمن جوق سمفوني كامل العدّة، ولكني لم أزل، على طربي للآلة الحديثة، وما فيها من قدرة بالغة على الامتاع والتعبير عن شتّى الأحاسيس والأخيلة، والمعاني الدقيقة، والتأملات العميقة، لا أزال أحنُّ لنغمة البيانو القديم، وأعجب بها أشدّ الإعجاب لما فيها من دفء وحنان يَنْدَى له القلب ريًّا إلى غاية الظمأ، يرفّ ويختلج أريحية ومراحا.

مزيج مُحيرٌ من رقة وقوّة، ولين وحماس، وخفة وطلاقة، ورصانة ووقار، وتوثب واندفاع، يَنْصبّ كالرحيق في النفس، يسري مَسْرَى الروح في الجسد، فيشعرك بالحياة الحق، تلك التي نحلم بها أبدا، ولا يُتاح لنا أن نحياها إلاّ في لحظات فريدة ممتازة كالقمم الشامخة تتحدّى رتابة الوجود، وتهزأ بسخفه وابتذاله.

ولعلّ السرّ في هذه النشوة الخارقة حلاوةُ النغم في ذاته بطابعه التونسي الأصيل، قد أُشْربته روح الصبي كأنه صيغ على مثالها... منتهى التناسب والتوافق والانسجام، وقد زاده لذاذة تفتّح النّفس في شغف وعنف لجمال الموسيقى، وعظمة سحرها وسلطانها.

لقطة أخرى... منظر الزهر.. نوع خاص من الزّهر من بين شتّى الأزهار المتسلّقة لسياج «فيلا» فخمة.. حجابا لطيفا أنيقا، كنت أمرّ بها وأنا في طريقي إلى بيت جدّتي التي كنت أهيم بها هياما، فكأن زيارتي لها عيد، غنم ما بعده غنم، ولا أعرف مثله سعادة.

زهر نُسمّيه «نّوار عشيّة»، محتشم اللون، خفيف الزرقة، ليس في حسنه إثارة ولا إغراء، ولا تبرّج ولا خيلاء، ولكنّه على تواضعه ووداعته، رائق جميل بشكله وهيئته، فقد كان كثيفا غزيرا، وأسلوبه وروحه، تفتّحت له النفس وهشّت، وأنست به إلى حدّ الألفة اللذيذة المبهجة، والعشرة المحبّبة المستملحة.

لماذا؟ لستُ أدري، ولكن القلب لا محالة يدري، والنفس لا تخْطىء. أهُوَ ضرب من الحدس الطفولي المبّكر الذي يتناول الحسن جملة وتفصيلا، في مثل طرفة العين، أسرع من لمح البصر، ومـا يُسمّيه الباحثون اليوم في تَـفَيْـهُـقـهـمْ بالنظرة التأليفية؟

مُـتَـعَ أخرى كثيرة جـدُّ متباينة لا تزال عالقة بالنفس، راسخة متأصّلة فيها، على بساطتها ويُسرَها...

منها فرحة اقتناء الثّياب الجديدة في كلّ عيد فطر، ترفّ رفيفا، جدّة ونضارة، تتهلّل لها النّفس وتسعد، ويطرب الشمّ لما في رائحة الجديد.. كلّ ثوب جديد من نكهة محبّبة خاصّة.

ويدانيها إمتاعا رائحة البرتقال، ولا سيّما في الحمّام، وكانت العادة أن يُـحْمـلَ شيء منه، تفكّها.. ريّا وشفاء للغليل، فتذْكي الحرارة نفحته، فإذا هو عطر عجيب يشيع وينتشر فيملأ أرجاء الحمّام، ليس كمثله لذاذة وطيبًا يزيد جوُّ الحمّام شاعريةً لا تخلو، عند الأطفال، على بهجتها وفتنتها، من خشية ورهبة.

ورائحة الطلاء الجديد أو «الدُّهن»، كما نقول في بلدنا، يعبق في الدّور بمناسبة الأعراس، يملأ الخياشيم حتى تفغم النفس، ومعها رائحة البخور «الوشق والدّاد» يطرب لها الطفل أيّما طرب، إذ تستفزّ عاطفته، وتدغدغ غريزته من حيث لا يشعر، فلا يَـدْري أهو حالم أم يقظان، وقد طوّح به الخيال، وامتلأت نفسه نخوة وفتوّة؛ فهاتان رائحتان، تشعّ منهما، خاصّة إذا اجتمعتا، دلالة رمزية على التّـوْ إشعاعا، فتعبثان بالقلب وتجمحان به جموحا.

ضرب آخر من المسرّات يأتي في موعده، يتجدّد كلّ سنة بانتظام. إنّها فرحة العودة إلى المدرسة، واللقاء بالأحبّة والأصدقاء، فرحة عارمة مهّد لها الشوق وأجّجها طول الانتظار. فالمدرسة بيت آخر، وأسرة ثانية كبيرة

كبيرة، لا غُـربَـةَ ولا ضيقَ بالعدد والكثرة فيهـا، بـل أُنس وارتيـاح.. أسرةٌ فيها، فضلا عن صادق الأخوّة وحرارة المودّة، وقـرابـة الـروح وانسجـام الطباع، متعـةُ الدّرس والتحصيل جماعةً، ومـا يتخلّـل ذلك من لـذة الكـدح والجَـهْـد، والسّبق والتنافس، وسعادة الحيويّـة والنشاط.

ومن أولى ذكريات الصبا وأبعدها عهدا، وأشدّها تغلغلا في النفس وتأثيرا نشوةٌ فريدة، وحيدة نوعها هي اكتشافُ منظر البحر صبـاحـا من عـل، في بيت مُـشرف عليه بجبل المنـار، ومـا أظنني تجـاوزت عـامي الخـامس، أو لَـعَـلّي أحدث سنًا، فالنفس لا تزال تلثـغ، وتلتمس سبيلهـا في دنيـا العجب والخفاء.

ماذا أقول عن تلك الدّهشة إزاء هذا العالم الجديد الذي لا عهد للنفس بـه إطلاقا، أمام هذه الزّرقة المديدة المترامية لطُفتها بـل كـادت تمتصّـهـا أشعّـة الشمس المتوهّـجة، فكأنك تشهـد مـلايين من الـذرّات النّورانيّـة المتراصّـة صفحةً واحدة تموج في هدوء وسكون، وكأنْ لا حركة البتّة، كالمـرآة الحيّـة الملتهبة المنتصبة إلى أطراف الأفق.. إلى اللاّنهاية.. خـضَمٌـا من الجمال يبهر النفس في رقّة ولطافة، وعظمة وجلال.. لوحـة مجسّمـة لنعيم الخلـد الـذي قلّما يتّفق للبشر أن يذوقه في هذه الحياة.

مرحلة أخرى في مختتم الطفولة اتّفق فيها للطفل الغلام ـ وما أبهج ومـا أجمل ما اتّفق له ـ أن يعرف البريّة بجمالها الخاص وملـذّاتهـا الكثيرة، على ما فيها ويجاورها من بساطة وخشونة أنستْ بها النفس وألفتها إلى غـايـة الحب والهيام، فإذا بالبلدي الصغير، الهشّ الطـريّ، الضيّق الأفق، المحـدود الرُّؤى يستحيل شيئا فشيئا ريفيًا أصيلا أو يكاد، لا فرق بينه وبين أبنـاء الفلاحين إلاّ شيء من القراءة والكتابة.

وأهمّ من ذلك وأبعد أثـرا فُـضـولٌ قـويّ حـادّ وتفتّح لمظـاهـر الجـمال وأسباب اللهو في هذا العالم الجديد، ممّا قد اعتادهُ الفلاّحون، وصـار أمـرا عاديًا مألوفا، قد لا يخلو عندهم من رتابة، لا تهتـزّ لـه نفـوسـهم، ولا يثير فيها مثل الذي يثيره في نفسه من لذة وطرب واستطراف...

عشقا لا مزيد عليه بالبادية... كلّ البادية... لجميع ما فيهـا... الطّبيعـة... الإحساس العارم العميق بالحرّيّـة فيها... فسحة الفضاء... طلاقـة الـريـح تهبّ مندفعـة حيث تشـاء... الطقس وقـد تجلّى على حقيقتـه دون زيف ولا

مسخ، تحسّه بجوارحك كلّها، وتهتزّ لجميع أحـوالـه، تستهـويك بـجدّتهـا وطرافتها... نكهة الهواء في نقـائه وأصـالتـه... الرّوائح... الحيـوانـات على اختلاف أنـواعهـا... المـزارع... نمـط الحيـاة... إيقـاع الـزمن في عفـويتـه وسماحته، وبساطته وغرابته...

منظر الزرع في تشكّله وتلوّنه عبر الفصول...

خضرة زاهية في الرّبيـع تمـوج وتمـوج مـع هبّات النّسيم تمتـدّ حيثـما تَلَـفّتَّ، تملأ الآفاق، تمرح فيها النّفس وترتع على هواها، خفيفةً هفّـافة تكاد تطير سرورا وابتهاجا...

صُفرة ذهبيّـة، وقد نضجت السنابـل تـزخـر بهـا الحقـول، فـازدحمت وتلاحمت صفوفـا متراصّة في انتصـاب رائع، وقـد انحنى بعضهـا، ونـاء بحمله ووَفْـر غلّته...

ها قد وفّت التربة وبرّت بوعدها بعد طول انتظار... كنوزًا حيّة متـلالئـة تحت أشعة الشمس لا حصر لها ولا عدّ، لا تني تنتظـر إليهـا.. تـرمقهـا، لا تشبع من تملّيها، وكأنّ قد أخصب كيانك عند تأمّلهـا، وازداد غنى.. جـودا وعطاء، حتّى كأنك صنو الطبيعة تحيا حياتها، وتقبس من روحها وسرّهـا، لنسْبَتك الواشجة وقربك الحميم منها، تتجاوب معهـا... نفس النبض، نفس الوَزنَ والإيقاع، تعاطفا وانسجاما إلى غاية الإتحاد...

وفوق كل ذلك عشقا للخيل بلغ حدّ الهيام...

لشدّ ما كان يُسَـرُّ الطفل ويبتهج لخوار فحول الثيران يوقظه فجـأة في فجر أيام الربيع، يملأ البريّـة بأكملها، لا يزال يتجاوب في ارجـائهـا ويتردّد برهة من الزمن، يُنْـبِىءُ بانتفاضة الطبيعة كلّها، وانبعاثها خَـلْـقًـا عبقريا.. عطاء مجددا...

وكان يعجب خاصّة بـما في مشيـة الثيران الفحـول من عظمـة وجـلال، وتحدّ وخيلاء، كأنّ عليهـا سيـماء السؤدد والجبروت، ومن قـوّة عـارمـة، هادئة ثائرة، تهدجد في كل حين بالإنفجار...

ولكن للخيل، مع ذلك، في نفس الطفل منزلة فذّة. كان ركوب الخيـل أوّل هواية عرفها في حياته، عشقا في أتمّ معنى الكلمة، تقدّم ذلك حبّ المطـالعـة والأدب، وهواية الموسيقى والفنون، إذ لم يلبث الطفل البلـدي النـاعم اللّـين أن أصبح أحسنَ ما يكون امتطاءً للخيل.

كان ذلك أعظم ما يعنيه في البادية وأقوى ما يحفزه ويشوّقه للذهاب إليها، شوقا لا يصبر عنه، فإذا كا حلّ بها فإن شغله الشاغل وهاجسه الذي لا يريم أن يعلو ظهر فرس، ويسرح ويهيم عبر الحقول، مطلقًا العنان للدّابة كأنه يريد أن يضاهي الريح خفة واندفاعا، يجدّ ويُلحُّ في سرعة الرّكض في نشوة لا توصف، وكأنما ينافس، دون وعي، رعاة البقر الأمريكان فروسية وفتوّة.

وهو لا يزال يذكر، أبين وأبهج ما تكون الذكرى، مشهدين...

رؤيته لأول مرة لفرس عربي أصيل. لقد اعتراه مزيج من الإعجاب والسرور والدّهشة والذهول أمام هذا الجمال الفائق، قد استهواه اللون وبراعة القوام، وامتياز الشكل والبنية... بنية هذا الجسد العجيب الذي لا يكاد يَسْتَقرُّ مراحا، وهو مع ذلك واقف، لا يني يتحرّك ويضطرب في مكانه، كأنه يَوشك أن يخرج من إهابه، أو يأكل بعضه بعضا... حيوّة ونشاطا... حريّة واندفاعا حتّى لترى بشرته ترفّ رفيفا، وأعصابه تختلج اختلاجا، كأن به جنّة، وليس من جنون.

أما المشهد الثاني فهو مشاهدته أوّل مرة لسباق الخيل في ميدان «قصر السعيد» واندهاشه خاصّة لنوع من الجري لم يره من قبل، ولا كان يتصوّره البتّة ولا يصدّقه لو لم يشاهده رأي العين، وهو سباق العربات تجري أفراسها هرولة عجيبة كأنها الرّكض وليست بالرّكض، وفيها من البهجة والأبهّة والعظمة ما تحرّكت له نفس الفتى فأصبح يقفز في مكانه، ينطّ إعجابا، لا يكاد يملك نفسه أمام النّظارة، يكاد يجري على حاشية الميدان ليزداد إمعانا في التأمل والتّفرّج.

ثمّ ولعلّ تلك آخر صفحة في سجلّ الصبا... ثمّ اكتشف الطفل الحب، ولم يكد يبلغ الحلم... عرفه قبل ذلك إعجابا خاصّا بفتاة بالذّات، على ما فيه من صبابيّة وغموض.. ميْلاً ناميا قاهرا إليها، وإيثارا لها دون سواها.

فكانت متعةُ الهيمان في أحلام اليقظة، ولذة الشوق والحنين، وقلق الإنتظار وإغراؤه، وبهجة اللقاء ووحشة الفراق.

ولم تلبث هذه العاطفة العذرية البكر، الساذجة الغريرة أن استحالت محبّة عاتية تمكّنت في أعماق النفس، ورافقت العمر كلّه.

البشير المجدوب
جويلية 1991

شعر

خمرة الرّوح

الهادي نعمان

سقاك من الوجد القديم مداما ... أخو صبوات يستزيد غراما
فؤاد له في الشوق قصة شاعر ... تعذب في نار الغرام هياما
وجدف في دنيا الهيام صبابة ... وتاه غريقا في الجمال وهاما
له قصة في الحب سكرا ومغنما ... فلم يفتعل يوما هناك مقاما
أقام بدنيا العاشقين محببا ... اليه هيام كم تراءى مناما
حبيب اليه ان يعيش معذبا ... بسحر غرام يستجد فطاما
لقد كبرت في النفس كل نوازع ... سوى الحب لم يكبر ولا هو داما
أعيش بقلبي ذكريات وانجما ... طلعن ضياءكم ملأن جماما
هو الحبّ خلد في النفوس وخمرة ... بها الرّوح تحيا تستلذ مداما

قصّة قصيرة

هـواجـس

ساسي حمام

سيأتـون... أكيـد أنهم سيـأتـون... كـل الـدلائل تشير على ان قـدومهم سيكون قريبا جدا... الليلة سيأتون... قـرأت أنهم لا يـأتـون الا ليـلا... في الهزيع الأخير من الليل... تنام العيون... تفرغ الأنهـج والشـوارع... تسكن الحركة... يأخذون سلاحهم... يمتطون سياراتهم ويتوجهـون نحـو المنـزل بسرعة جنونية...

لقد انتهى من الليل نصفه الأول وانقضت من نصفه الثاني ثلاث ساعات وأكثر... لقد حان وقت مجيئهم... أرفـع عني الغطـاء وأنـزل من السريـر... أتوجه نحو باب المنزل... أفتحه... أخرج الى الشـارع فيلفني الصمت المثقل بندى الليل... تسهيلا لمهمتهم... ورأفة بأوراقي وكتبي... وخوفـا على اثـاث البيت اغلق الباب واجلس امامه...

انكفأت على نفسك فاستلقى الليل على صدرك ونام... استقرت عيناك على صفحة السماء السـوداء تبحثـان عن نجم تـأويـان اليـه... انطلقت انـذاك تمسحان الدروب والشوارع والأنهج... الصمت مطبق... لا شيء غير الصمت يخيم على المنازل المحيطة بك... الظلام غلالة سوداء تلف كل شيء... العـالم يسبح في لون اسود مـوحش... تسمـع هـديـر سيـارة من بعيـد فترتجف أوصـالك وتهيء نفسك... لا بـد ان تكتب وصيتك... لن تـرعى احـدا بعـد اليوم... لم يرجـع احـد... تبحث عن ورقـة وقلم... الكلمات تـهـرب منك... تجري وراءها... تبحث عنها في كل الزوايا... تطرد عنك الكلمات العادية التي حفظتها... لا بد ان تكون الوصية غير عاديـة... تتـلاحق انفـاسك... يبتعـد هدير السيارة ثم يتلاشى في العدم... تشعر بالبرد فتجمـع اطـراف معطفك وتدفن رأسك بين كتفيك...

تقف السيارة امام المنزل... ينزلون... يتوجهون نحو الباب جريا... يخلعونه... ينتشرون في ارجاء المنزل... ينثرون ما يجدونه على الأرض... يأخذون بعض الكتب... تنتزع عني الجلبة واصوات الأواني الملقات على الأرض من السرير... أنهض شبه نائم فأرى مسدسات موجهة الى صدري... يغلق احدهم فمي... أحاول ان افهم شيئا... ان ارى وجوههم... أشعر بالعجز... يضعون عصابة سوداء على عيني ويقيدونني... يسوقونني نحو العربة ويدفعونني على مقعد... تنطلق السيارة... تقف بعد مدة طويلة من الجري... يفتح بابها... موجة من الهواء البارد تلفني... أدفع بأعقاب بنادقهم... أسمع صريرا مزعجا... أرمى في زنزانة... أقع على بعض الأجساد... أحاول الجلوس فلا اجد مكانا... أبقى واقفا... ليس هناك غير الصمت والظلام... أشعر بالتعب وبرغبة شديدة في النوم... أرمي رأسي على كتفي وأغمض عيني... تأخذني سنة من النوم... البرودة التي تتسرب من قدمي الى كامل جسدي المنهوك أيقظتني... أحاول ان أعرف كم قضيت في هذا المكان فلم استطع... لا أعرف... ربما بعض دقائق... ربما بعض ايام... ربما بعض سنوات... لقد توقف الزمن منذ ان وضعوا على عيني العصابة...

لم تعرف قبل الآن ان الليل ثقيل كالجثة والظلمة راسخة كالوتد... لا همسة او همهمة غير أصوات بعض الحيوانات الخائفة التي داهمها خطر محدق. وقد لاحظت زوجتك تقلقك وتقلبك في الفراش وشرودك وتعجبت من صمتك ومن انزوائك في البيت فعرفت انك تعاني من شيء فاقتربت منك وتوددت اليك محاولة ان تنسيك ما انت فيه، وأخيرا سألتك عن سبب هذا الحزن... هذا القلق... هذا الأرق... هذا الصمت... فطمأنتها بانك لا تعاني من مشاكل في عملك... أو مع اصدقائك... فضربت على رأسها وصاحت مولولة انها السياسة اذن... يا ويلي قد ترملت... قد تيتمت ابنائي... هذه الإيقافات أقلقتك وهذه الأخبار التي تصفع آذاننا عن حياة المعتقلين وعن التعذيب هربت من عينيك النوم... وضعت يدك على فمها حتى لا يسمعها انجيران وهدأت عن روعها وأقسمت لها انك مواطن عادي لا تعرف غير العمل.

لا بد ان اهلي الآن قد باعوا كل ما يملكونه، لا بد أنهم الآن يبحثون عن احد يتدخل لفائدتي... لا بد إنهم طرقوا أبوابا عديدة... ولكن عبثا يحاولون... هذه قضية لا يمكن لأحد ان يتدخل فيها... لو كنت سارقا... قاتلا... قاطع طريق... لتدخلوا واخرجوني... ولكن في هذه القضية لا يجرؤ احد يقترب مني او يذكر اسمي حتى لا يتهم بالتعاطف معي... لا بد انهم

قالوا لهم... نحن نخافوا على مراكزنا... على كراسينا... على مناصبنا وطردوهم ابتسمت... يفتح الباب... يمسكني احدهم من كتفي ويجرني بصعوبة.

— تبتسم... تقدم ايها... سيحقق معك الآن وبعد ذلك سننفرد بك... ستبتسم أكثر... تلفحني موجة من الهواء البارد لم تلبث ان انحسرت على ضرباتهم الموجعة... رجلاي لا تقدران على حملي... أتهاوى... أسقط على الأرض... يجذبني احدهم من ياقة قميصي... الأرض نتوءات حادة وسكاكين تمزق بطني... تجرح صدري... أختنق... أصيح... يركلني احدهم فأتدحرج يوقفني أحدهم ويحكمني فاسقط على الآخر فيسندني ويتقدم بي... يفتح باب... يرميني على كرسي... يسقط رأسي على صدري فيمسكني من ناصيتي ويرفعه... يرفع العصابة عن عيني فيمد مني ضوء ساطع انغرس في عيني دبابيس وابر وأشواك... سمعت صوتا حادا ينبعث من فج سحيق....

ـ أنت فلان...

ـ نعم...

ـ أين المنشورات التي كنت تتصل بها؟...

ـ لم أتصل بأي منشور... لقد فتشتم البيب زاوية زاوية...

ـ صحيح أننا لم نجد منشورات ولم نعثر على أسلحة ولكن يمكن أن تخبئها من مكان آخر...

ـ أقسم لكم أني لا أملك شيئا مما تذكرون... فأنا مواطن بسيط... عادي... أكره السياسة وأسعى إلى أي شيء مما تظنون...

ـ وهذه الكتب؟ ماقصتها؟

ـ لم أجلبها خلسة ولم أستعرها من أحد... لقد اشتريتها من المكتبات... إنها معروضة في كل المكتبات بل تجدها على قارعة الطريق...

ـ لماذا هذه الكتب بالذات؟

ـ في مكتبتي كتب كثيرة غيرها...

ـ نحن لم نر غير هذه... وأحاديثك... ألاترى أنك تجاوزت كل حد... وأنك تقول أشياء لايسمح بها القانون... وخاصة في الأماكن العامة...

ـ لم أقل شيئا جديدا... لقد رددت ماسمعت من أجهزتكم المرئية والسمعية...

ـ نحن نقول ذلك الكلام لأننا نعرف معناه جيدا... ونعرف ماذا نقصد بذلك الكلام.. وأنت؟

ـ لست أدري ؟

قال بامتعاض شديد

ـ لست تدري... لست تدري.. لماذا تقولا إذن؟... خذوه...

الليل صحراء مترامية الأطراف هجرها الندى وارتحل عنها الماء فيبس الزرع واكتسى غبارا وانغلقت أكمامه والعيون تنتشر في كل الأرجاء ريح صرصر تعصف بكل شيء... وأنت مازلت قابعا تحت صخور الظلمة تترقب أشخاصا يأتون أو لايأتون... تخشى أن تغمض عينيك حتى لاينفجر الرعب صياحا وصراخا وولولة... تشعر بيد توضع على كتفك فيهتز كيانك وترتعد أوصالك وتحاول قمع صرخة تحاول أن تنطلق.

ـ ماذا تفعل هنا؟ إفهم لايأتون في الهزيع الأخير من الليل فقط... يمكنهم القدوم في أي ساعة من ساعات النهار... هيا أدخل كفاك هواجس.

ساسي حمام

قصة

المدرسة السليمانية

محمود بلعيد

كنت، عندما أسمع حكايات عن الموت والموتى، لا أصدق واحدة منها، كما لا اصدق أعجوبة ولا نادرة، ولا حتى جملة واحدة، مما أقرأ على صفحات الجرائد والمجلات.

... سمعت، كما يسمع جل الناس، حكايات عديدة ومن بينها حكايات عن الذين انتشر خبرموتهم، وبكى الأهل والأقارب وتحرقوا عليهم لوعة وأسى... ولقي من لقي حتفه وهو في سفر، أو أثناء حرب من الحروب، أو في بلاد الغربة، كما يقال في أيامنا هذه.... ثم عاد، بعد سنوات، صحيحا سالما، فعم الفرح وانقلب الحزن الطويل الى حفلات واعياد وذبحت الخرفان وانطلقت الزغاريد طوال الايام والاسابيع...

فهذه كلها أحداث وقعت، وغرائب جرت يقبلها العقل ويرتضيها، أما أن يشيع انسان جنازة الى المقبرة، ويشاهد بعينيه يواري التراب الميت، او يسمع من أناس انه انتقل الى رحمة الله أو شاهد صورته في جريدة من الجرائد، ثم يعود يراه من جديد في يوم من الايام، فهذا شيء لا يصدق ولا يطاق ولا يقبله عقل ولا يصدقه انسان.

وهذا ما حدث لي بالفعل... أشاهد أحيانا رجلا، علمت علم اليقين انه توفي منذ اشهر أو أعوام!! فأقول في نفسي بعدما العن الشيطان «مستحيل...»

هذا من باب المستحيل، الرجل الذي أراه أمامي ليس فلانا؟!!..... «واقتفي أثره، وألاحقه، طول نهج أو نهجين، ثم أعود أدراجي، وأنا في حيرة وذهول عظيمين....» من مات مات فلا شك في ذلك ولا اختلاف، وشيع الى مثواه الأخير، فقد انتهى أمره في هذه الدنيا...

هكذا أحدث نفسي دائما.... وهكذا أهمس اليها قبل النوم، وعندما اصحو في الصباح الباكر...

وأثناء النهار أكرر هذه الأقوال مرات... لكن تمر أيام وأعود من جديد أشاهد أناسا، كنت علمت علم اليقين أنهم صاروا في عداد الموتى، يمرون كما يمر سائر المخلوقات في الشوارع ويقفون امام واجهات الحوانيت ويدخلون المتاجر والمغازات فلا أصدق عيني دائما وأنا اعلل نفسي وأقول «سبحان الله، له في خلقه شؤون، يخلق من كل عبد اثنين....»

.... ومررت يوما في نهج شارل دي غول، ذلك النهج الطويل المشهور، في باب البحر، الذي يعج بالخلق كامل ساعات النهار، شاهدت حذو «فندق الغلة» بل عند بابه الصغير الذي يقع في آخر بناية السوق اتجاه مركز البريد، رجلا مستندا الى الجدار، فكدت أصيح من فوري وأنادي البشير، وضعت يدي على فمي في آخر لحظة فتوقفت عن الصياح!! فالبشير مات منذ سنوات، قابلت أخاه، الذي كان يعمل معه في نفس المقاولة صدفة، وقص علي بحزن كبير قصة وفاته... اقتربت أكثر، وانا اختلس النظر اليه وأتأمله قدر جهدي، لقد كدت أفقد صوابي ذلك اليوم، البشير الذي أعرفه، المهندس المعماري الذي صمم لنا المقهى والمتجر والمخبزة، ماثل أمامي عيني!!

نفس الوجه ونفس الجبين، والحاجبين، والأنف والذقن، والفم وحتى شعر الرأس وكيفية مشطه وتنسيقه!! وكذلك اللّباس والهيئة!! شعر الرجّل باندهاشي وأنا أحملق فيه فابتسم... وضل في مكانه لا يتحرك واصلت سيري، وانا لا أصدق كالعادة ما شاهدت.. وأعود التفت اليه مرّات وهو في مكانه لا يتزحزح... ثم قلت أني في حلم... وأني في غفوة... بقيت أياما وصورته عالقة بذهني، وأنا أقول البشير بعينه لا شك في ذلك ولا ريب، وأقول لو شاهده أحد غيري يعرفه كما أعرفه لأصابه الذهول والاندهاش مثلي..... وربما أكثر منّي...

إسمي حسن : هكذا أقدم نفسي. الناس يملؤون الشوارع وهم في حركة وعجل، يتنقلون من شارع الى شارع، يترقبون الحافلات في الساحات أو المترو الخفيف في محطاته الجديدة، وانا لا اركب حافلة ولا اطيق ازدحاما، ولا اركب مترو ولا أنادي تاكسي: أسير دائما ببطء ليس لي عمل يترقبني، فلا تجارة تشدني اليها... اسعى بمهل من اول العشية... ويخف الوطء وتهدأ الحركة عند الثالثة ظهرا وتدخل المدينة في غفوة وسكون... ثم تعود تتمطط شيئا فشيئا... وتعود اليها حركتها ونشاطها من جديد.... وأنا أدبّ وانتقل في الأنهج والحارات لا يشغل بالي شغل كما قلت ولا يشدني عمل ولا متجر ولا إدارة ولا شركة ولا معمل ولا حتى مزرعة... آكل في بحبحة

من العيش واشرب وأنام، كما اود واشتهي وكما أريد، فالشيخ موجود والشيخة مازالت، والحمد لله على قيد الحياة، وأنا وحيدهما «وابنهما المدلل» أعود إليهما كلما أردت العودة واغيب عنهما كلما يحلولي الغياب، واعزب اعزل في الحقيقة كغراب تماما، أحب حياة الوحدة والانفراد، وارتدي السواد دائما، ولي لحية كثة هائجة دائما لا اتفنن في حلاقتها وتنظيفها بالمرة بل أتركها كما هي متداخلة، متنافرة، فكأني احمل خروفا أسود فوق رأسي، عندما أقف وانظر الى وجهي في المرآة انطلق ضاحكا... ثم اني قليل الكلام كثير الصمت، لا أعرف الا السير على الاقدام وسط المدينة وخارجها ثم أني

أكره النساء آه نسيت أن أقول أكره بنات حواء صراحة كلما وقعت عيني على واحدة منهن استعذت من الشيطان ومنها فكل واحدة ذكية كثعلبة، خبيثة، ماكرة مثلها تماما وانا، في الحقيقة، لا أريد ان أزعج نفسي وارهقها ثم اني عديم الذكاء، بطيء الفهم، ثقيل الدم، كسول الى حد بعيد، طويل العنق، طويل القامة، محدودب الظهر متعمدا ارتدي السواد دائما ناهزت الاربعين بلحيتي الكثة، وفي حقيقة الامر، لم ابلغ الثلاثين من عمري...

اقسمت بغليظ الأيمان ألا اقع في شراك واحدة منهن، فكلما شاهدت فتاة، تمر مكحلة العينين محمرة الشفتين مزدانة أنيقة أو متانقة محركة أردافها أو تميس بل تتهادى كانها ذكر طاووس وفي طبيعة الكون والكائنات فاناث الطواويس ليست لها جمال ولا الوان ولا بهجة ولا رونق الذكور منها، وليست لها تلك التيجان فوق الرؤوس، ولا تلك الالوان المتموجة الخلابة

ولا تلك الذيول التي تسحبها خلفها بخيلاء وعندما ترفعها ثم تفتحها وراءها فكأنها ملوك منتصبة على عروشها... حتى الملكات وكأن لا علاقة بينهما... والحكاية تطول وتتشعب وخلاصة القول، فعندما تمر الفتيات المتبرجات كالطواويس أعجل الخطى وابتعد عن طريقهن وانا اضحك في داخلي واقهقه قائلا... لو...... لو تمحى تلك الالوان... لو... لوتجرد من تلك الرياش.... وابتعد عنهن اكثر واطلقت رجليك الى الرياح... واعجل الخطى واسرع... ثم خيرني الشيخ بين الوقوف على المخبزة والسهر عليها والقيام لها فجرا او الاهتمام بالمقهى ومراقبة العملة الشياطين او دكان بيع الحلويات والمرطبات فقلت للشيخ أتركني وشأني وخل سبيلي لا تترقب منى هذه الايام شيئا.... وقبل ذلك، اراد ان يدفعني الى الزواج بطاووسة هكذا أراد ان يلقيني بين مخالبها وتحت منقارها ففررت بسرعة بدون كلام ولا جدال واختبأت وراء الفرن في المخبزة أياما آكل الخبز حال خروجه، واحيانا اتسلل الى العطار واقتني حكك السردين والتن والزيت والزيتون والهريسة والطرشي والشيخ لا يدري ولا احد من العملة يقدر يبوح

بالمخبأ... واقتني بعض قطع اللحم من عند الجزار والقيها، بعد تفويحها ونشر التوابل فوقها واعادتها الى قراطيسها في الفرن، ثم اخرجها بعد ساعة ناضجة محمرة فواحة فتسلب لي عقلي وانا التهمها التهاما واكاد التهم اصابعي معها...

هكذا اختفيت عن الشيخ والشيخة والدار اياما وليالي لم اطرق خلالها الباب ولم ادفعه لو كان مفتوحا.... وفي النهاية ترك الشيخ امري ولم يعد يحدثني عن امتلاك نصف ديني، كما كان يقول لي دائما ويكرر على اذني... ولم تعد الشيخة «تقنقن» علي وتطربق على طبلتي اذني بنصائحها وأحلامها وتمنياتها... وانطلقت ارتع حرا طليقا خفيفا رشيقا كغراب في احياء المدينة اجوبها طولا وعرضا... والشيخ شدد علي الخناق ولم ييأس أبي الا ان اصطحبه الى العمل وتفقد العملة من أول ساعات الفجر الى آخر ساعات النهار لازمته كظله قبل حكاية الزواج... ثم تقاعست، ثم تمارضت، ثم صرت أخرج من المنزل وأغيب اياما ولا آوي حتى الى الفرن ولا أحّط رحالي خلفه.... حتى مجّني ومججته وقذفني كما تقذف النواة... وفي النهاية ها إنّني اتمتع بنفسي، يقذفني نهج لسيتقبلني شارع صاعدا الى باب بنات ومن باب البنات الى باب المنارة ومن باب المنارة نازلا على باب الجديد، وباب الجزيرة، وباب البحر، وباب قرطاجنة فباب سويقة هكذا اطوف بالمدينة وأحيانا أغوص داخلها واتوغّل في اعماقها، واطل على الابواب واظهر انفي ثم اعود اختفي واندفع في انهج وشوارع اجهلها واجتاز احياء وحواري انكرها وتنكرني واندفع في ممرات ضيقة طويلة قصيرة وارسب واطفو، واصعد، واهبط واطلع، حتى تقذفني المدينة الى باب من ابوابها او ترميني في احياء وشوارع بعيدة كل البعد عن وكرنا...

هكذا أقوم كل يوم بجولة وحيدة من نوعها، ولا تشبه الواحدة الأخرى... وانطلق من الأبواب الخارجية في ايام الربيع، او الايام التي تشبه ايام الربيع، واتنقل بين باب سيدي قاسم، وباب العلوج، وباب سعدون، وباب سيدي عبد السلام، وباب العسل، وباب الخضراء، وأنا في نشوة لا توصف بل في غمرة من السعادة والانشراح رغم ثيابي الداكنة السوداء التي تبعث الحزن في حقيقة الأمر في نفس من يشاهدني عن قرب او عن بعد... لكن ليست لي حيلة ولا حل فانا احب اللون الاسود ولا يروق لي الا التشابه بالغربان الغاربة ويحدث لي ايضا ان اتجه الى المقابر ازورها...أبدأ أولا بمقبرة الفدان حيث الاجداد رحمهم الله رحمة واسعة، ثم مقبرة سيدي يحي

وهو غير بعيد عن مقبرة الفدان، ومقبرة السرولات، ومقبرة الاتراك القريبة منها، ومقبرة الزلاج البعيدة عنها المنفردة في الطرف الآخر من المدينة....
وجدت يوما الشاحنات داخل مقبرة السرولات وقالعات الأشجار والمحركات تهدر والدخان يعج ويتصاعد والآلات الحافرة تقصف كالرعد، وتبعثر القبور وتقلبها، ثم ترفعها، وترفع اللحود معها فتتساقط أشلاء من بين مخالبها... وامتلات المقبرة بالخلق، نساء ورجالا، لا ادري كيف اقبلوا، ولا كيف سمعوا الخبر... جعلو يتتبعون الآلات، ويتسابقون الى القبور، يرفعون العظام من داخلها ليحموها من سطو الآلات وهم يتصايحون ويتنادون باسمائهم ولم ينتبه احد من العملة الى صياحهم... ويبتعدون بما جمعوا من عظام خارج المقبرة... مسرعين.... يجرون اذيال الحزن... ويصعد بعضهم فوق الشاحنات يعابثون سائقيها ويبحثون في الاتربة المكمومة فوقها وبعضهم يفتّش بين الاشجار المقتلعة، وعند موقع جذورها وداخل الحفر العميقة الشبيهة بالسراديب.... وبعضهم يتعلق بمخالب الشاحنات واسنانها يخطون بأرجلهم في الفضاء وهي ترتفع الى السماء هادرة مزمجرة، ويفتكون منها، وهم يبكون وينوحون، بقايا اذرع، وارجل والواح اكتاف، وضلوع واوراك واقفاص صدور، وجماجم واشداق متدلية ضاحكة وبعضها مفككة وبقايا اسنان منغرزة فيها او متساقطة متناثرة كحبات مسبحة... انتقل وسط المقبرة... وارفع مشاهد، وأقرأ اسماء وتواريخ غابرة لعصور متعددة وقرون قريبة او بعيدة....

وطردت يوما، قام الى عامل ولوح بيد فأس مهددا... طردت وأنا الوحيد الذي طرد من بين كل الخلق...

...جلست فوق الأسوار أياما أراقب على بعد الاعمال تتواصل والحفر تتسع، صياح العملة يرتفع في كل الأرجاء والشاحنات في ذهاب واياب وهدير لا ينتهي وجولات في عرض الجبانة وطولها... الاف من البشر يؤمونه من كل جوانبها وتعمق الحفر حتى منبع المياه....

كلما زرت مقبرة سيدي يحي إلا وقادتني رجلاي الى مقبرة السرولات وانا لا أدري... اسعى بدون توقف ولا مهل.... واسرع لكي يبلغ التعب مني كل مبلغ.... ولا أفكر فيما شاهدت في ثلاث الأيام لم استطع أبدا ان ابعد عن ذاكرتي او ازيل عنها كل الذي علق بها وانا بين القبور كشيطان أسود ثم أنا فوق الأسوار كغراب من بين الغربان المعششة في المقبرة والتي ظلت مذعورة، مطرودة مثلي مضطربة وهي تشاهد كل الاشجار مستلقية وسط الجبانة وعروقها مرتفعة الى السماء... واعشاشها مبعثرة في كل مكان....

وعدت الى الشوارع والانهج أجوبها واتنقل بينها حتى ساعة المغرب واحيانا بعد ساعة العشاء وهبوط الظلام اكف عن السعي والتطواف واعود منهوكا أتصبب عرقا الى وكرنا..... بين الشيخ والشيخة، في زنقة بودية، بنهج سيدي عبد الحق، قرب ساحة المرجانية... دخلت يوما مقهى بسيطا لا يجلب الانتباه في نهج صغير يحمل اسم المدرسة السليمانية الموجودة داخله والتي كانت سابقا مأوى لطلبة جامع الزيتونة القريب منها... فبعد ما تعبت وسال العرق منى لكثرة سيري وتطوافي، قصدت هذا المقهى الصغير لأول مرة، ولأول مرة اعثر عليه في طريقي، كنت اهتديت سابقا الى المقهى الكبير غير البعيد عنه، في الطرف الآخر من النهج، فهو يلفت الانتباه لكل من دخل النهج، بضجيجه وعجيجه وكثرة رواده وكراسيه المتناثرة خارجه.... خيرت هذه المرة هذا المقهى البسيط الضيق... وهو ليس بمقهى بأتم معنى الكلمة، بل عبارة عن دكان قلب مقهى، فالمشرب يحتل نصف مساحته، وفي النصف الآخر طاولتان وكراسي اربعة لا أكثر، ووراء المشرب شيخ ناهز السبعين او ربما الثمانين، له لحية كثة بيضاء كالقطن، مستدير الوجه، متوسط القامة، ابيض البشرة، بياضا مشرب بحمرة، يرتدي بلوزة بيضاء نظيفة، يتحرك بأناة وراء المشرب....

طلبت قهوة عربي بعدما لاحظت فناجين مصطفة وززوات صفراء تلمع فوقها والجمر هاجع خامد تحت رماده في موقده في ركن.

تخامل الشيخ على نفسه وشرع في تحضيرها...

شعرت بهدوء لا يشبهه هدوء، وأنا داخل هذا المقهى، هدوء غريب... كما شعرت براحة لم اشعر بمثلها من قبل في مقهى فكأنني في عالم غير هذا العالم او في حياة غير هذه الحياة او كان الزمن توقف وكل شيء صار لا قيمة له دفعة واحدة!! وانا امام هذا الشيخ المبتسم الوديع فكأنه يرسل شحنة هائلة من الطمأنينة والسكينة فيتقبلها كل من دخل المقهى ووقف امامه او غير بعيد عنه.

سرحت نظري فقرأت بعض آيات قرآنية مكتوبة بخط ديواني، مطرزة على قماش من حرير في أطر مذهبة، بهتت الالوان من أثر القدم.... ورزنامة لسنة من السنوات الاولى لهذا القرن رغم اننا في اواخره، ونارجيلة، صغيرة الحجم، معدة للزخرفة، قديمة، منفردة في رف، بنفسجية اللون وحبلها فضي ملتوي على عنقها.... سقف المقهى ابيض وجدرانه باهتة الزرقة.... هدوء كامل شامل، وسكون مريح، يتخلله تحرك الشيخ البطيء عند الموقد وهو يدير باناة القهوة بملعقة صغيرة الحجم.... ثم يزج بالززوة في كومة الرماد....

دخل رجل قصير القامة بعجل ووقف بجانبي، فانشغل الشيخ من جديد في تحضير قهوة اخرى بعدما قدم الى الفنجان، بـدون ان يتلقى من القـادم الجديد الا كلمات بصوت مرح:

«كيف الاحوال اليوم الشيخ عثمان؟!»

انتبهت، الصوت ليس غريبا عني؟!! التفت نصف التفاتة واسترقت النظر ولم البث ان فتحت فمي بدون ان اشعر، وقد اصابتني دهشة عظيمة؟؟!!

«هذا عبد الحميد؟؟!! عبد الحميد وانفه ورأسه وجبينه، جـارنـا في زنقة بودية، عازف العود والكمنجة والضارب على الـدربـوكـة أحيـانـا؟؟!! كـان الشيطان يقيم سهرات جميلة في داره، وحفلات مـلاحـا في ديـار الافـراح!! يغني كلما دخل الزنقة ويغني كلما خرج منها الى الحي او الى المدينة....

وكان يسكن في آخر الزقاق فنسمع غناءه من أوله الى آخره...

وكان له صوت رائع يرتفع فنسمعه ونحن داخل ديارنا...

فرح مرح عبد الحميد دائما، طروب كالشحرور او كطائر المقنين، مبتسم منشرح دائما، لا يعرف الحـزن الى قلبـه طـريقـا ولا منفـذا ولا يجـد فيـه ماوى... ومرض يوما فقل غناؤه.... ثم خفت صوته وشحب لونه وانقطـع دخوله وخروجه واختفى كما تختفي الطيور الاصيلة قبل موتها.... انـزوى في داره لا يفـارقهـا.... يئن ويسعـل... ثم نقـل الى مستشفى الامـراض الصدرية بعد فوات الاوان... وبعد ايام قلائل أتانا نعيه... وعاد به اهله من المستشفى .... وتبع اهل الحي جثمانه الى مثواه الاخير... وكنت من بينهم... تسرى رعشة في كامل جسدي فاهتز لها رغما عني، التفت اليـه من جـديـد واحملق فيه وهو يترشف قهوته بتلذذ... ثم يخاطب الشيخ بانشراح قائلا:

«قهوتك دائما طيبة عطرة شذيـة لا يـوجـد أحسن منهـا في السـوق يـا عثماني!!»

يتصبب جبيني عرقا، يشعر اني ارمقه بدون ان يلتفت الي فيتغير صوته دفعة واحدة ويتعكر مزاجه ثم يكف عن مزاحه ومواصلة حـديثـه، يسـود الصمت برهة نسمع خلالها، وقد اولانا الشيخ ظهره، خـريـر المـاء، وهـو يغسل بعض الكؤوس والفناجين كان نظفها من قبل... ثم يعـود يمسحهـا وينشفها بكل عناية بمنديل ابيض ينحدر حتى ركبته... يشعر بدوره بالجو الثقيل والصمت المطبق وقد نسيت الفنجان تماما امامي وبـردت القهـوة... وعدت الى سنوات مضت بسرعة مذهلة... كيف كان عبد الحميد عندما كـان في الحي... ظريفا طريفا... سريع الخطوات والحركات طروبا لعوبا... يخرج الى فندق سيدي البحري في الصبـاح البـاكـر ويعـود عنـد منتصف النهـار ويدفع «البرويطة» وهو يغني... ويقيل ثم يعود الى الشارع من جديد ويتجه

الى مقاهي البيقة وهو دائما يغني... يحرك رأسه ويغني... بعد المغرب يرجع الى داره ويرتفع صوته طربا بعد اذان المغرب وأحيانا بعد اذان العشاء.... وليالي الحفلات يعود في ساعات متأخرة وقد ارتفع صوته فيوقظ من كان نائما وينصت اليه من كان ساهرا ويبتهج الجميع ويطربون لغنائه.... أظل أتأرجح بين الحاضر والماضي، بين تلك الايام الحلوة وهذا الايام المرتبكة... وتتقاذفني امواج الذكريات... وتعبث بي كما تشاء.... ثم يصفعني الواقع ويرجني... صوبت كل اهتمامي اليه وهو بجانبي ولم اقدر ان ابدي حركة او افوه بكلمة... كان عليّ أن أقول له :

«أهلا وسهلا عبد الحميد... كيف أنت.... أنت هنا هذا من باب المستحيل... أنت.... أنت عبد الحميد... هنا.... هنا.... عبد الحميد..... هذه صدفة رائعة....»

يشعر بذهولي واضطرابي الشديدين....يقلب بقية الفنجان في فمه بسرعة ثم يضع الثمن فوق المشرب ويخرج بعجل بعدما قال باقتضاب وصوت ابح:

ـ بالسلامة عثمانو!!

يجيبه الشيخ بمهل بعدما فارق المقهى وابتعد

ـ الله يسلمك.

ازددت اضطرابا واندهاشا.... بقيت لا اقوى على الحراك والكلام دقائق.... رفع الشيخ صوته وقال لي وهو منهمك في تنشيف فنجان عبد الحميد قبل ان يعيده الى مكانه بين الفناجين المرصفة وراء ظهره:

ـ رجل طيب.... وسكت برهة ثم تابع.... لا أدري ما به اليوم... عادة يتحدث معي بمرح.... ويقص علي بعض نوادر واخبار السوق احيانا يرفع صوته ويغني بانشراح بعض الاغاني اذا كنا وحدنا في المقهى...

بقيت صامتا جامدا هامدا كانني صنم... وتابع الشيخ عثمان حديثه مبتسما:

ـ يقول لي بعدما ينتهي فن حكاياته طولت عليك عم عثمان اليوم او يقول لي قبل ان ينصرف البقية عثماني للمرة القادمة.. فتحت فمي فلم احر جوابا فكان لساني شد او عقد او قطع.... ثم عوض ان أجيب الشيخ الذي ظل يتحرك ببطء مادا أذنه مترقبا جوابا او حتى كلمة تبدر مني.... قلت له بصعوبة كبيرة:

ـ إنه إنسان طيب على ما يظهر.

تابع حديثه بمهل فكأني بجوابي هذا البسيط اعطيته اشارة المتابعة:

ـ لا بد ان يكون له شغل هام هذا اليوم.... وتوقف لحظات ثم تابع....

ليس من عادته الاسراع ولا السكوت عندما يقبل لتناول قهوتـه.... وضعت قطعات نقدية لا أدري كم عددها بجانب الفنجان ثم فـارقت المقهى بعـدمـا ودعت الشيخ وانا لا اشعر برجلي كيف تتحركان من تحتي ولا كيف أتنقل فوق الارض، ولا كيف اسير وامشي....

لم اعد الى المقهى مدة طويلـة من الـزمن ظللت خـلالهـا اطـرد عني كـل الهواجس التي تعتريني او تتردد علي بالحـاح.... واعـرج وادخـل اي نهـج يعترض سبيلي، كلّما دفعتني قدماي، واقتربت من نهج المدرسة السليمانيـة، او نهج يدنيني منه، او يقذفني اليه اثناء جولاتي المعتبطة في العشايـا، وانـا اغوص في قاع المدينة، مبتعدا عن ابوابها او عائدا اليها....

مرت أيام وتلتها ايام ثم اسابيع وانا أهمس الى نفسي وأكـرر عليهـا لكي أقنعها فتقلع عني وتخلي سبيلي... وأحيانا أذبهّا أو اقوم اليها ثائرا زاجرا... فتغضب وتنشر علي حرب الصمت والجفاء... وهذه حكاية اخـرى وحسـاب بيني وبينها... أقول الى نفسي غاضبا زاجرا: كل... كل ماشاهـدت يـاحسن اشباح في اشباح وهواجس في هواجس ووساوس لعينة توسوس لك واعوذ بالله من الوسواس الخناس ويجب ان تنسى ياحسن كل مـا شـاهـدت ولا تعود «تنقنق وتنقنق» علي وتتجاهـل تحـاشي في جـولاتك وتنقـلاتك مقهى الشيخ.... وسوف تختفي عنك كل هذه الاشباح الماكرة، ولن تعـود تـرقص امام عينيك ، كـمـا رقص بعضهـا في ذلك الـيـوم المشـهـود.... لكن تعلقت في ذهني آخر كلمة نطق بها العجوز قبل مغادرتي مقهاه وتشبثت بـذاكـرتي ولم ترد أبدا ان تفـارق دمـاغي، فكـأنهـا ذبـابـة، تستفيق من حين لحين، تخاتلني وتقوم الي ملحة تطن وتدوّم وتئز داخلي رغم ذبي اياها ومحاولـة الاجهاز عليها لكن بدون جـدوى.... «انـه.... يـزورني ويبقى معي سـاعـة يحادثني... ويغني لي أحيانا بعض الاغاني اذا كنا وجدنا في المقهى..»

فأعود اندفع قـائلا في نفسي، هـو عبـد الحميـد، لا شك في ذلك ولا ريب، والمقهى موجود قائم، والشيخ يعمل وينشط داخله...

هو يزوره من حين لحين ويغني له بعض الاغاني فلا حلم ولا خيال ولا اشباح ولا حكايات مـلاح فـما علي الا ان اعـود مـرة اخـرى او مـرات اذا اقتضى الحال حتى التقي به ثانية واكتشف السرّ.... وعاد يدفعني فضـولي من جديد ويحرضني على الاسراع الى المقهى.... ويؤنبني على تركي كل هذه الايام تمر وتفرط دون ان التقي به ثانية.... واذكره.... لعلـه يتـذكـر لكنـه تنكر لوجودي هناك في ذلك المقهى الغريب لم يرتـح الي، ولم يـرفـع بصره ولو مرة واحدة ناحيتي وينظر الى كما نظرت اليه وحملقت فيـه. مـرارا....

اعتقد ولست ادري لماذا او شاهدني مرة ثانية وانا داخل المقهى او خارج منها، لعاد على اعقابه وفر هاربا ولو شاهدته بدوري وهو يستدير عند الباب لاقتفيت اثره وجعلت اجري وراءه، وأناديه بملء صوتي وكل جهدي «عبد الحميد يا عبد الحميد» ولا اتركه ينفلت مني كما انفلت المرة الاولى... هو يتردد على العجوز ويتناول القهوة عنده، ويحادثه ساعة، ويكاد يغني له، بل غنى له مرات بصوته الجميل، كما كان يغني لنا في الحي واستنكر وجودي في ذلك المكان.... لم يرد ان افتح عاله الجديد؟ وربما خاف ان يفتضح امره... فخيرّ الانسحاب بعجل... لو تصافحنا بحرارة.... أو تعانقنا بمحبة وشوق.... كما يحدث عادة عند لقاء صديقين بعد غياب طويل... ثم يقص علي قصته ان اراد قصها... وننطلق ضاحكين في النهاية..... وتتبخر كل التصورات وكل الهواجس والاشباح التي عششت في دماغي لارتاح وارتحت.... ففيما ذلك الصمت المطبق الثقيل الرهيب الذي لم استطع تحمله بل كدت اخرج من عقلي لشدته علي، وهو بجانبي قريب بعيد...... ثم غادر المقهى مسرعا واختفى العفريت الماكر فكأن الارض عادت فابتلعته من جديد.... وكأنّها تخرجه لشرب قهوة الصباح او العشية او القيام بجولة الصباح او المساء او حديث ممتع مع الشيخ وغيره ثم تعود تنفتح له وتضمه اليها... ثم بقيت بعد مشاهدته بجانبي وبعد مغادرته المقهى جامدا كالأبله المعتوه امام المشرب، لا أتحرك مما أدى بالعجوز الى مبادرة الحديث معي بدون سابق معرفة...

رحب بي الشيخ غاية الترحيب بعد غيابي الطويل انتصبت امام المشرب في المكان الذي تناولت فيه القهوة لاول مرة، رحب بي الشيخ بطيبته، واحمر وجهه بل ازداد احمرارا... فكأنه ترقب عودتي حسبما فهمت، ثم نسيني تماما... وها أنا افاجئه اليوم... ظلت الابتسامة عالقة بشفتيه ولحيته وجبينه اذ اختلفت بعض تجاعيد وجهه المستنير وتغيرت حركاته كذلك....

وبعد سكوت دام لحظات وبدون ان يرفع رأسه همس لي بصوته الهادىء وقد تخللته بعض ذبذبات الفرح واللوم في آن واحد:

- كنت ظننت انك ستعود في أقرب وقت لكنك ابطأت.

فأجبته في الحين بهدوء متكلف وتوتر مكبوت:

- ها أنا أعود.

فتابع وكأنه لم يسمع جوابي او لم ينتبه اليه بل بالاحرى لم يابه ولم يعبأ به، والمهم أنّني أجبت:

- من يزور المقهى مرة ويشرب قهوة لا بد له ان يعود ويعتبر من روادي...

فقلت له وانا أتكلّف الهدوء والابتسام.

ـ ها أني اعود ولم انسك وسأصير من روادك.

عاد الى سكوته.... لحظات ثم سمعته يجيب بأناة والكلمات تنبعث خافتة من بين شفتيه كأنه يخاطب بها نفسه همسا فتلقيتها بلسما على صدري:

ـ مرحبا، مرحبا...

ظلت ابتسامته عالقة بشفتيه فكأنه يبتسم لنفسه ويحادثها في داخل حديثها خاصا بها موازيا لحديثه معي.... شعرت بكلمات وجمل تتجول في عينيه وعلى صفحات وجهه وتزدحم داخل رأسه الاشيب واتيحت لي فرصة أثناء سكونه، وكذلك اثناء صمته الطويل بعد لفظتي مرحبا مرحبا لاسأله عن عبد الحميد... لكن لم أقدر.... وفاتت كل الفرص بسرعة ومرت اللحظات والدقائق وذابت كل آمالي وتلاشت من حولي... ثم واذا بالشيخ يبادرني قائلا:

ـ انت تبحث عنه، وتوقف مداريا أفكارا تملأ رأسه وتزدحم عليه، او انه ربما بصدد انتقاء ما يجب قوله او ما يجب تركه على حدة... ثم تابع بصوته اللين الساحر وهو مشغول بتنظيم بعض الكؤوس وارجاعها في اماكنها... عدت تبحث عنه هذه الايام، وتوقف عن الكلام فتابعت حركات شفتيه باقصى جهدي... وهو يهمس : لذلك عدت الى المقهى مهموما يا ولدي..

أصابني في الصميم، دخلت الموضوع فورا بدون لف ولا دوران وقد نز العرق من كل مسام جسدي سائلا بصوت ابح سمعت نبراته المتهدجة فلم ارتح اليها قطعا بل شعرت بخيبة كبيرة وأنا أقول له :

ـ في اي وقت يأتي الى المقهى؟

... وبدون ان يرفع بصره اجاب والابتسامة لا تفارق شفتيه وكامل وجهه الجميل.

ليس له وقت معين، يأتي متى شاء في الصباح....

وفي العشية....

اهتززت وعادت الى تلك الرعشة تسري في كامل جسمي بل انقلبت الى رعدة والعرق يسيل بغزارة.... ثم تابعت متقصيا بشفق لاحد له:

ـ كل يوم.

فأجاب بصوته الدافئ دائما وقد خفتت نبراته فكدت لا أتبين كل كلامه.

ـ ليس كل يوم.... مرة أو مرتين في الاسبوع..... نادرا ما يأتي ثلاث مرات.

وأخيرا الفيت نفسي القي سؤالي الهام دفعة واحدة بدون ان ادري.

ـ اسمه عبد الحميد.
فأجاب بهدوء تام.
ـ أنت تعرف اسمه هكذا عبد الحميد.... أنا اعرف الاخر صالح، صالح البلغاجي، لقبه الحقيقي لا علم لي به.... وازداد ابتسامه درجة.... اهدى الي يوما بلغة صفراء «تعمل الكيف» ظلت عندي مدة طويلة سنوات سرقت في جامع بن عروس سكت لحظات، ثم تابع كأنه يحدث نفسه : الله يهديهم في بيت الله....
ـ الحانوت داخل السوق
ـ هو معلم.... صاحب حانوت من الحوانيت.... أما أي حانوت فلا أعرف..... كل الحوانيت تشبه بعضها.
جعلت اتردد على سوق البلغاجية، أتفرّس في وجوه الباعة والصنّاع والعملة وتبتعد بي رجلاي الى نهج الجلد ونهج الشماعية او نهج السيدة عجولة او انهج اخرى، وحوانيت عديدة حيث تصنع الاحذية بانواعها، واشكالها كنهج الديوان ونهج الجبل واندفع الى الحفصية ثم نهج الباشا ونهج القلش ونهج غرنوطة.... الحوانيت نصف مغلقة تعج بالاطفال بمختلف اعمارهم، وهم في احاديث لا تنتهي وضحك وهيجان وطرق ودق وتسمير وتخييط على النعال وقطع الجلود وقيس وقص وتفصيل وادخال في القوالب والاحذية الجاهزة والاحذية نصف المكتملة في كل مكان... ولم اشاهد عبد الحميد او من يشبه عبد الحميد عن قرب او عن بعد...
.. ثم حورت كل برامجي وغيرت عاداتي وطفقت ارتاد المقهى الكبير الخامل، في الطرف الآخر من نهج المدرسة السليمانية، بعدما تملكني كالياس من العجوز، فبمرور الايام صارت إجاباته غامضة رغم طيبته كلّما جرنا الحديث عن عبد الحميد او حوله... فخيرت الابتعاد عنه اياما لكي يسترجع انفاسه وجلست في مكاني المخير الجديد، غير بعيد عن مقهاه، وكل انتباهي مشدود اليها.

مرت ايام وانا اتردد على المقهى الفسيح، كما يتردد عليها رواد يقبعون كامل اليوم على كراسيها لا يتزحزحون عنها كأنهم شدوا اليها بحبال خفية او كانهم صبوا فوقها في قوالب صبا، صرت بينهم ارقب من موقعي المقهى الصغير...
... واعود بعد ايام اليه، علني اجد خبرا جديدا في انتظاري، واستمتع بقهوة شذية كما احبها واشتهيها يحضرها لي الشيخ عثمان بكل عناية واتقان وتفنن رغم ازدياد ارتعاش يديه عند ادنى حركة يقوم بها.

وادفع الثمن بسخاء، الشيء الذي جعله، رغم تقدم سنه ورغم وقاره يعبر عن فرحه بابتسام طويل... واطلب أحيانا علبة تبغ، فيأبى الا ان يخرج مهرولا قدر طاقته قافزا على رجليه المرتعشتين وسط النهج ليأتيني بحاجتي من دكاكين مجاورة لم اكن اتوقع انها تبيع السجائر بالمرة... والشيخ في حركة ونشاط عند قدوم اي زبون، فكل قهوة يحضرها تكلفه تنظيف الفنجان من جديد ومسحه وتجفيفه والنظر داخله مرارا، وتلقيم الززوة، وصب الماء السخن بكل حذر وانتباه والتوقف عن القدر الذي حدده، ولا يحيد عنه، رغم شبه ظلام دكانه لكي لا تفيض القهوة عند غليانها فهو لها بالمرصاد رغم ضعف بصره يخرجها قبل ان تفور ويعلو دخانها بل يرفعها بيده المرتعشة وقد كونت قببها السوداء ذات الفقاقيع اللماعة الملونة كقوس قزح، ويقبلها بأناة في الفنجان الذي هيأه بالقرب منها بدون ان تندلق فوق الرخام.... اتابع دائما حركاته باهتمام كبير، وهو يعمل بصبر وعناية امام موقده، موليا للحرفاء ظهره، بعدما القى سؤاله المعهود لك واحد منهم:

«تريد قهوتك حلوة ام ناقصة؟»

وان اقبل اربعة أو خمسة، وهجموا عليه، وملؤوا له المقهى واستولوا على كامل المشرب، وكادوا يسدون له النور والهواء فلا فائدة من ازعاجه فهو في صمت وشغل وانتباه كامل الى ان ينتهي من كل الطلبات واحضار كل الفناجين وتنسيقها أحسن تنسيق فوق المشرب، لكل واحد من الرواد فنجانه امامه وكاس لماع مملوء ماءا نقيا بجانبه ونادرا ما يطلب احد الرواد قارورة قازوز وإذا طلبها فالشيخ يسمعه ولا يجيبه بل يحضر كل القهاوي ويصبها في فناجينها وفي النهاية يخرج له القازوزة من ثلاجة صغيرة منزوية وراء المشرب ويمدها له في صمت، ويمد له المفتاح معها... اما الشاي فلا كلام عليه عند الشيخ، فكأنه لا يعلم ان للشاي وجودا في هذه الدنيا... في النهاية يجلس ليسترجع واحيانا يخرج منديله الابيض من جيب بلوزته البيضاء، ويمسح العرق عن جبينه بكل بطء... ومهل...

ابتسم لي يوما، بعدما انتهى من احضار كل القهاوي وبعدما خلا المقهى من رواده، وكنت امام المشرب احتسي قهوة عطره بتلذذ كبير، وهو يمسح الكؤوس ويرتبها احسن ترتيب، ولا ثالث معنا... ظل برهة والابتسامة عالقة بشفتيه كانه يخفي افكارا او اخبارا ولا يريد أن يقدم لي الا بعضها... وانا في اشد اليقظة واقصى الشوق، احاول بكل جهدي ان اقرأ ما يخفي وراء ابتسامته تلك......

ثم قال لي برفق:

ـ قلت له إنك تريد مقابلته.... وإنّك تبحث عنه هذه الايام...

سكت برهة خلت أنها لا تنتهي وانا استحثه في داخلي وقد نفذ صبري، ثم تابع :

قال لي الله يهديك يا شيخ ..... واخبرني عن سلامية في دار احد اصحابه، في نهج الحجامين.... يعرف اني احب حفلة السلامية... واحب السماع الى المدائح والاذكار....

وتوقفت تماما عن التجول في احياء المدينة وزيارة مقابرهـا والتنقل بين ابوابها والانطلاق في شوارعها وانهجها او الغوص في حاراتها وارباضها وانتصبت في الركن الذي اخترته في المقهى الكبير.

اجلس بمفردي من الصباح... وارقب المقهى الصغير واركز كل اهتمامي عليه دون ان يتفطن الى الشيخ او يشعر بوجودي هنالك.... اتفحص وجوه الداخلين والخارجين بدون ان أجلب انتباه احد، اخترت ذلك المكان وجلست بين جملة الرواد وسط الدخان المتصاعد من الافواه والمناخر وبقبقة بطون النراجيل والاحاديث المدوية او الصاخبة والضحكات المفرقعة او المسترسلة... لا اخاطب احدا ولا انظر الى احد ولا التفت الى احد في عرض المقهى همّي الوحيد مقهى العجوز وشغلي الشاغل حرفاؤه المترددون عليه... احتسي القهوة الرديئة التي يركزها النادل امام فوق الطاولة العفنة المحروقة الزوايا من كثرة اهمال السجائر المشتعلة فوقها، بدون كلام ولا تحية ولا سلام واظل ساعات اتفرس في وجوه الغادين والرائحين وارمق بعض النساء يقبلن مثنى مثنى ممتلئات كالبراميل ومتمايلات كالدندونات او كالبط تماما، واحيانا زرافات كالاوز صائحات مدويات، ويتناولن قهوة الصباح او الضحى او قهوة الظهيرة، قبل الدخول الى الادارات او بعد دخولهن، ثم خروجهن منها....

ويطول الحديث بين بعض الرجال الثرثارين ويهيج هائجهم ويخرجون باحديثهم وقهقهاتهم الى الشارع ويجلسون الى احدى الطاولتين على جانبي الباب... وعلى الاخص زبون ماكر نحيف طويل أحدب الظهر قليلا يتردد على المقهى مرات في الصباح، ومرات في العشية يجرجر انواعا من الاصدقاء او الرفقاء او الحرفاء لا ادري له انف اعقف كمنقار غراب، بل كمنقار عقاب، وشوارب شديدة السواد يشذبها دائما.... يمرر عليها يديه بين الحين والحين بدون توقف، وكسوة سوداء لا يغيرها ابدا يحب السواد النذل كما احبه، يسعل احيانا فيهتز جسده كله وتتراقص دفتي فيسته، فكانه غراب يوم الطيران... لا اعرف لماذا اكرهه، وقد اشتد كرهي له بتقدم الايام

وبكثرة حركاته ورقصاته وشطحاتهم امام عيني طوال نهج المدرسة يضرب دائما على اكتاف اصحابه ويجرهم من ايديهم او من اذرعهم الى المقهى او يخرجهم منها كذلك جرا... الاول عند الدخول والاول عند الخروج نذل... اعتقد جازما انه نذل؟ مائة في المائة رجس رغبت مرات في سماع أحاديثه ارهفت السمع مددت اذني الى باب المقهى الصغير لكن دون جدوى.... سخافات... تكون سخفات يقشعر منها الانسان لا شك في ذلك.... يظهر العجوز عندما ينتهي من عمله، ويخلو مقهاه من رواده ويجلس على كرسي من الكراسي عند الباب طلبا للراحة.. وانا رابض في زاويتي، لا أتزحزح لا يلتفت الى ناحية المقهى الكبير، فكأنه لا يشعر بوجوده... آسف احيانا عن عدم الرجوع اليه، والحديث معه، وتناول القهوة الطيبة الشذية في تلك الفناجين النظيفة خيرت الركون، منذ ايام، الى هذا المقهى العفن، الرطب، المظلم، واحتساء القهوة الرديئة الطعم، الكريهة الرائحة، لخلو المكان الى عبد الحميد عله يعود يوما ويدخل مقهاه المفضل ويتحدث مع شيخه المحبوب.... احترت في امره....

بمرور الايام، صرت كاني فرد من سكان هذا الحي القديم، او كأني عاطل من بين عاطليه، او شيخ متقاعد من بين جملة، الذين يهوون الركون الى المقاهي واللجوء اليها من الصباح الى المساء.... اتكلف الهدوء، والاطمئنان وانا على احر من الجمر، ارقب من ركني المظلم فلا يفوتني كل ما يحدث او يطرأ في كامل النهج.... فاشاهد مختلف تجار الحوانيت والاسواق المجاورة والمشرفين بكل اصنافهم.... وسكان الاحياء المجاورة يمرون على امتداد ساعات النهار... كأني شرطي او مفتش من مفتشي الامن اترصد بكل ثبات وصبر لصا من كبار اللصوص او مجرما خطيرا... واقف حين امل الجلوس، واخرج اتمشى في الاسواق المجاورة فادخل سوق القشاشين، وادلف غالبا الى سوق القواضي الطويل، وسوق البرانسية، وانا ارنو الى الباعة او استرق اليهم النظر... واتأمل دكاكينهم المكتظة من الارضية حتى السقف باغطية واردية وبرانيس وفرامل... وبداعي مطوية ممدّة او معروضة متدلية .

.... وجبائب معلقة، عند الابواب، وعلى جنباتها... وانساق الى سوق القطن، وسوق الصوف، ثم سوق اللفة.... ولا اترك دكان اقمشة او زرابي او عطورات او ملابس خارجية او داخلية او احذية الا وألقيت نظرة سريعة على الباعة وعلى الجلاس المنتصبين، داخل الدكاكين وخارجها... دخلت الاسواق كلها، وانسقت في متاهاتها، واندفعت من سوق السراجين الى باب

المنارة، وانحزت طوال السياج الحديدي الممتد من باب المنارة الى الباب الجديد، متبعا آثار جدار المدينة القديم.... ثم عرجت يسرة عند مدخل تربة الباي، واتجهت الى سوق البلاط من جديد ثم سوق العطارين، وسوق السكاجين وسوق الترك، والبركة ثم سوق الشواشيية، وسوق الكبابجية وشاهدت عبد الحميد اخيرا في سوق البلغاجية منتصبا وسط حانوت، ومن حوله بلاغي صفراء واحذية للنساء والرجال نور قوي ساطع يبهر الابصار عند رأسه، التقت نظراتنا، فاتقدت عيناه دفعة واحدة، وبسرعة فائقة قفز قفزة واذا هو امامي وانقض علي وشدني من تلابيبي بكل قواه وانطلق صائحا:

ـ ماذا تريد؟؟ ماذا تريد مني.... تبحث عنّي في كل مكان!!!؟؟

اقتلك، انا اليوم اقتلك؟؟

شدد علي الخناق، حتى توقفت انفاسي وخلت ان روحي ستفيض في لحظة وثانية ثم انهال علي يلكمني ويصيح بكلمات لا افهمها... وانا بين حياة وموت اقول في نفسي واردد عليها واللكمات تتهاطل علي: خذ نصيبك يا حسن خذ نصيبك يا غراب النحس، فاليوم يومك، فضولك دفعك ياقنفذ الليل والنهار، واليوم تخرج روحك.... هب ارباب الدكاكين المجاورة، وفرقوا بيننا... وخرجت من السوق وقد مزق لي الشيطان ياقة قميص، وربطة عنقي القديمة، لو لم تكن قديمة ومهترئة، الربطة اللعينة، لاخرج بها روحي... ابتعدت وصيحاته المرعبة تملأ اذني كأنها نواقيس تدندن فوق رأسي ... تابعت سيري فاقد الوعي، أترنح والجدران تلطمني من الجانبين... وابتعدت اكثر وفارقت الاسواق كلها... وساقتني قدماي الى اتجاهات عديدة... بدون ان ادري... واعترضني مركز شرطة فلم ادر كيف اندفعت داخله... ثم ندمت،لكن هيهات لقد فات الاوان وبادرني احد الاعوان بالسؤال عن حاجتي، فلم ادر كيف صرحت له قائلا:

« وقع الاعتداء علي بالعنف »

هكذا فهت بكلمات قانونية، ثم ندمت عليها تماما كما ندمت على دخولي الى المركز نظرا الى العون من رأسي الى قدمي ثم من قدمي الى رأسي ثم ساقني الى مسؤول جالس وراء مكتب في غرفة بمفرده.... قصصت عليه قصة الدخول الى السوق وقصة الهجوم ومحاولة عبد الحميد الفتك بي، مما ادى الى جروح في وجهي وتمزيق ثيابي... ظل المفتش المسؤول يتصفح وجهي ويتأمل قميصي الممزق والربطة الملعونة... يبدو انه امسك ابتسامة او خيل الى ذلك، ثم سألني قائلا: اتعرف اسم المعتدي عليك؟ فأجبته على الفور عبد الحميد، ثم وضع يده على فمه وامسك ابتسامة ثانية... ثم سألني عن

مكان الخصام، فقلت له: في سوق البلغاجية وامام حانوته... ثم أردف بكل سذاجة: اتريد ان اذهب معك، او مع من تريد ارساله لأدلك عليه؟!

أجابني مبتسما هذه المرة، لا تتعب نفسك، سناتي به حالا، ترقب قليلا ونادى عونا من اعوانه، وقال له: بعدما حزم امره، وقعت معركة في سوق البلغاجية بين هذا واشار الى زو صاحب حانوت يدعى صالح او عبد الحميد، اذهب وات به ثم همس له بكلمات لم اسمعها..... لم أدرك كم طال انتظاري، وانا جالس على كرسي في قاعة من قاعات المركز... نصف ساعة... ساعة كاملة... عشية باكملها... وكل الافكار والهواجس... وصرخات الموتى... والمقبرة.... وعبد الحميد الذي انقلب وحشا ضاريا ترقص في رأسي، ظللت في مكاني الى المغرب.... اوبعد المغرب... واخيرا دخل العون الى المركز ومعه عبد الحميد، منفوش الشعر، منقلب السحنة، مخدوش الجبين، ممزق القميص... كنت بطشت به، بدوري، اثناء الخصام.... وانا لا ادري... تفرس فيه المسؤول مليا، ثم ساله بكل هدؤ عن سبب وقوع المعركة التي ادت الى الضرب واستعمال العنف فأجابه صائحا، وقد خرج من طوره، وهو يشير الي بكلتا يديه.... شهورا كاملة ويشدد علي الحراسة في الانهج والمقاهي كانني مجرم جاني فقلت له امه او اباه.... وسارعت بدوري موضحا أني لم أشاهده الا مرة واحدة في مقهى الشيخ العجوز، ولم ألاقيه مرة اخرى بعدما تركني المسؤول اتكلم حتى فرغت من كل ما عندي... ثم ساله: الاسم فأجاب: صالح، اللقب، بوعلي، اسم الاب؟ الطاهر، الام؟ بية، متزوج؟ نعم، اسم الزوجة، عايدة ماذا؟ عايدة بنت عبد الوهاب بن رجب، لك اطفال؟ ثلاثة، صحت رغما عني، لا أبدا، أبدا.... كل اجوبته واقواله كذب في كذب واسمه عبد الحميد واسم ابيه عزوز واسم امه مريم، لم يتزوج ابدا..... ابتسم المفتش ثم قال له: هات بطاقة تعريفك مدها ثم بدون ان ينظر فيها توجه الي سائلا: لماذا قلت ان كل الاسماء غالطة لم تشاهده الا مرة واحدة حسب تصريحك؟

فاجبته على الفور باني اعرفه جيدا، واعتقد جازما ان بطاقة التعريف التي قدمها مزورة، الصق عليها صورته... لم ينظر المفتش الى البطاقة بل ظل ينظر الي بابتسام.... صحت وقد عيل صبري: ميت، ميت، هذا الذي امامك حيث وانت لا تدري حضرت جنازته، وشاهدته بعيني رأسي يدخل الى القبر اندهش المفتش او خيل الي ذلك فغرفاه بدون أن يدري، ودام الصمت لحظات ثم انفجر ضاحكا مقهقها... ثم شد جنبيه بيديه من قوة الضحك... رفعت بصري الى عبد الحميد وهو واقف امامي فالفيته في هندام جميل ممشوط الشعر كما عهدته من قبل، مشرق الوجه... ضاحكا.... ثم

رفع صوته وانطلق يغني احدى الاغنيات التي كان يغنيها في الحي.... وهو يدخل الزنقة او يخرج منها في اي ساعة من الليل والنهار... بصوته الرخيم العذب... كما كان يغني في ليالي الصيف الملاح...

فارقت المركز بدون وعي.... وانا لا ادري أفي يقظة ام في حلم مزعج مرعب وجميل أخاذ رائع في آن واحد....

مضت أيام وكأنها اعوام وانا اتقلب في ارجاء المدينة مسلوب العقل.... واتنقل في شوارعها وانهجها وبطاحها كالمسحور... اسمع الغناء في كلّ زاوية ومكان...وصورة عبد الحميد عالقة بذهني... تلاحقني وهو ينظر إليّ مبتسما منشرحا تمام الإنشراح، قادتني رجلاي في النهاية الى الاسواق... ثم سوق البلغاجية... اريد العثور عليه من جديد... كلّفني ذلك، ما كلّفني... لم أجده في دكانه.... فعدت على اعقابي متجها الى حي جامع الزيتونة ثم دخلت نهج الكتبية فنهج المدرسة السليمانية قاصدا الشيخ لاسأله عنه... واذا بي امام حانوت ليس لها مشرب ولا كراسي ولا شيء يشبه مقهى عن قرب او عن بعد... وجدت دكان نقاش ورجلا منهمكا في عمله والاطباق والصواني والرمادات والفوانيس والاباريق ومختلف الاواني النحاسية معلقة على الجدران، ومعروضة في كل ركن ومكان بل وفي كل شبر من الدكان كله... والرجل ينقش باهتمام طق طق طق... ينقر بمطرقته الصغيرة.... سألته بعد تردد كبير فتوقف عن العمل وظل يستمع الي بانتباه، ثم اجابني بكل هدوء:

ـ كان هذا الدكان مقهى؟؟!! لا أبدا... انا هنا اعمل منذ اكثر من عشرين سنة!! وابي كان قبلي منذ سنوات وقبل الحرب....

القيت بصري على بعد الى آخر النهج فلا اثر للمقهى الكبير ما عدا دكانه طويلة في الجانب الايسر لباب المدرسة السليمانية....

محمود بلعيد

أصداء...

ومتابعات

ندوة

«القصة القصيرة في تـونـس» قضاياها واتجاهاتها

انعقدت بمقر إتحاد الكتاب التونسيين يومي 22 و23 ماي 1992 ندوة عنوانها «القصة القصيرة في تونس» اتجاهاتها وقضاياهـا» كـانت غـايتهـا الاساسية أن تكشف النقاب عن المسائل الكبرى التي علقت بالقصة القصيرة في تونس نشأة وتأسسا وتطورا، خصوصا وأن هذا الجنس قد أصبح لـه منزلة مرموقة في حيز الانتاج الادبي في تونس على الرغم من طراوة عـوده، إذ أن تاريخه لا يتجاوز بضع عقود من الزمان.

وقد ألقيت في هذه الندوة ثماني دراسات اندرجت في محاور ثلاثـة، اهتم أولها برصد بعض الخصائص التي وسمت الأقصوصة التونسية في طورها الأول، وفي هذا السيـاق جـاء بحث عمـر بن سـالم عن «**الجيـل الأول من القصاصين التونسيين**» وقد تحـدث فيـه عن ظهـور الانـواع القصصيـة والمصطلحات المستعملة للتعبير عنهـا، وعن صـالـح السـويسي والبـدايـات الجنينية، وعن الجذور العربية لهذه البدايات، وعن الجيل الأول من الـرواد، وختم بالحصيلة المتواضعة لهذا الجيل.

وقد اهتم محمد القاضي برائد آخـر من رواد الاقصـوصـة في تـونس في دراسة له عنوانها: «**البحث عن الهوية في أقصوصة مصطفى خـريف**».

وقد حاول في هذا العمل أن يبين التطور الذي مرت به أقصوصة خريف من محاكاة الانموذج الغربي الى محاكاة الانموذج العربي التراثي الى محاكاة الانموذج الشعبي.

أما عثمان بن طالب فقد قدم بحثا عنوانه «**استراتيجية الكتابة السردية عند محمد العروسي المطوي** «**مشروع قراءة في الابنية الدلالية من القصة القصيرة إلى السيرة الذاتية**» واستند فيه إلى بعض الاقاصيص التي نشرها المطوي، وإلى كتابه الأخير «رجع الصدى» ليقف على خصائص بنيتها السردية وصولا الى بنيتها الدلالية والرمزية.

وقد اهتم المحور الثاني بالطور الأوسط من القصة القصيرة في تونس. وتحدث فيه محمد قوبعة عن «**الطيب التريكي والاقصوصة الواقعية**»، فقام في مرحلة أولى بضبط المدونة وتقديم الاقاصيص ثم درس في مرحلة ثانية المضامين من فقر ولون محلي كالربض والعادات وغيرها. وانتقل في المرحلة الثالثة الى البناء الفني وخصائصه في أقاصيص الطيب التريكي.

وتناول حسين الواد بالدرس ما سماه «**الخروج قسرا من التاريخ: قراءة في قصص حسن نصر القصيرة**». وقد اعتمد في بحثه مجموعات نصر الثلاث: «**ليالي المطر**» و «**52 ليلة**» و «**السهر والجرح**»، وبين أن الجامع بينها هو الانخلاع من التاريخ والانسحاق بحركته والخروج قسرا من دائرة الفاعلية فيه وذلك باعتماد أسلوب التعاود واختيار المواضيع التافهة.

وفي هذا المحور تناول الطاهر الهمامي بالتمحيص «**جناح القصة في حركة الطليعة**» فقدم صورة مرفقة باحصاءات مدققة عن النصوص القصصية التي أصدرها أعلام حركة الطليعة، وما تميزت به من ناحيتي الشكل والمضمون، وما إثارته من مناقشات ومجادلات نظرية، محاولا تفسير الظاهرة وتنزيلها منزلتها من القصة الغربية والقصة العربية.

أما المحور الثالث من محاور الندوة فقد صرف همه إلى الاصغاء إلى النبض الجديد للقصة القصيرة في تونس. وقد عمل فيه عبد الله صولة على

النفاذ الى الاستراتيجية الكامنة في كتابة أحد ممثلي الجيل الجديد من القصاصين في تونس هو يوسف عبد العاطي من خلال دراسة «**المروي له في أقصوصة» «بونوارة»**. فاستخرج الإشارات الى المروي له في هذا النص، وحدد هوية المروي له وهي متعددة: عربية إسلامية تونسية، وأبان عن الحوار بين الراوي والمروي له. وأفضى من كل ذلك الى رأي لا يخلو من طرافة هو أن أقصوصة «بونوارة» مثل مضاد من الناحية الاسلوبية ومن الناحية السردية اذ هي بناء استدلالي حجاجي محكم.

وقد اختار محمد الهاشمي بلوزة موضوع «**الواقعية في القصة القصيرة في تونس: قصص ابراهيم الدرغوثي نموذجا**». ودرسه من خلال مجموعتي الدرغوثي «**النخل يموت واقفا**» و «**الخبز المر**». وقد انطلق بلوزة من رصد العناصر الخارجة عن النص والتي أسهمت في بناء وعي القاص الاجتماعي، ثم انتقل إلى تحليل النصوص متوقفا عند منطق الافعال والعلاقات بين الشخوص فيها، محاولا أن يبين التفاعل بين النص في بنيته الداخلية وما هو خارج عنه من معطيات اقتصادية واجتماعي.

وعلى هامش هذه الدراسات قدم عدد من القصاصين التونسيين شهاداتهم عما طبع تجربتهم من خصائص وما حف بها من ظروف وقد اشترك في هذه الشهادات : محمد العروسي المطوي وفاطمة سليم وجلول عزونة ومحمود بلعيد ويوسف عبد العاطي.

وقد مثلت هذه الندوة بشقيها : الدراسات والشهادات إسهاما جادا في الكشف عن جوانب هامة شهدتها القصة القصيرة في تونس خلال مختلف مراحل مسيرتها.

محمد القاضي

ندوة

«حرية الابداع في الوطن العربي»

نظم الاتحاد بمقره أيام 25 و 26 و 27 سبتمبر ندوة دولية حول «حرية الابداع في الوطن العربي». ويتضمن البرنامج المداخلات التالية:

- طاهر البكري: **ارتسامات حرة حول «حرية الابداع»**
- حسن خضر (فلسطين): **حرية الابداع بين جيلين**
- هشام القروي: **الابداع والسلطة**
- عبد الرحمان مجيد الربيعي (العراق): **كيف تتحقق حرية الابداع؟**
- محمد بن صالح: **ابداع الحرية**
- مصطفى التواتي: **ثنائية المثقف والسلطة في الوطن العربي**
- البشير بن سلامة: **لا حرية للمبدع الا مع وجود سلطة رابعة حقيقية.**
- علي شلفوح: **مفهوم الابداع في التراث العربي.**

لقد أراد الاتحاد في هذا الظرف بالذات، ان يطرح للدرس والنقاش هذه القضية الهامة، فالكتاب العرب لا يزالون يتعرضون للمحاصرة والسجن والقمع وبعضهم يعيش المنفى او المنفى الاختياري والتهميش والارهاب الفكري. وآخرون يغتالون في مصر وغير مصر لانهم دافعوا عن المجتمع المدني وقيم العقل والحرية وقاوموا بالفكر الارهاب والتطرف الديني. فدمقرطة المجتمع لا تعني بالضرورة كسبا نهائيا لرهان الحرية كقيمة أساسية للانسان. ان القوانين والدساتير والمؤسسات ومسار التحرر مطالب في حاجة دوما الى حرية الكاتب والمثقف ويقظته والتزامه بقيم التقدم.

ولعل أكبر خطر على الحرية يتمثل في غياب هذه «اليقظة» النقدية (vigilance critique)† فيسكن الغول فينا ونلغي وظيفتنا وتصبح حرية الابداع، كما يقول البكري «في غالب البلدان العربية قد قيدها مبدعون ومثقفون منا وفينا».

لقد تميزت هذه الندوة بالجدية والعمق في طرح المواضيع وكذلك بالحضور المتميز وما دار من نقاش حر وهادىء.

فالجانب العلمي للبحوث تناول اشكالية الاجهزة المفهومية ببعديها التاريخي والسوسيولوجي، متجاوزا الطرح الايديولوجي النظري الى تلمس الواقع العربي بكل أبعاده. كما تميز في غالب الاحيان بنظرة مستقبلية لا تكتفي بالتسجيل والتشاؤم، بل تفتح باب مشروع التأسيس والصراع الايجابي.

فالحرية، وان كانت من تلك «المفاهيم الملغومة معرفيا» فان طرحها اجرائيا يتطلب تحديدها من زاوية سوسيولوجية وسياسية في نفس الوقت، اذ هي قيمة انسانية وواقع سياسي وعلامة على حضارة المجتمعات.

وهي مسألة تقود الى جدلية العلاقة بين المثقف والسلطة وهي علاقة صدام/ وعلاقة غياب/ وعلاقة احتواء) من المطروح تجاوزها الى علاقة تكامل الادوار بين الحكم والابداع وتجاوز غياب سلطة المثقف وثقافة السلطة الى عقلنة السلطة وتحرير الابداع.

لا بد، في هذا الاطار من نظرية جديدة ونقدية لسوسيولوجية الثقافة العربية ببعديها التاريخي والسياسي، حتى ندخل حداثة العصر ونتصالح مع قيمنا الاصيلة وطموحات شعوبنا.

ان تعميق التناول لمفهوم «الابداع» يطرح توسيع المجال الدلالي لهذه الحركة الخلاقة في المجتمع حتى تشمل الفعل في الفكر وبالفكر، في الخيال وبالخيال، في حياة الناس، أي في تصوراتهم وعلاقتهم بالكون. فالابداع ليس هروبا الى النجوم الميتافيزيقية أو غفوة في حضن الجماليات الشكلية. لا ابداع بدون فكر نقدي تستند اليه الكتابة وكذلك مجمل الفنون.

ثم لا بد من التأكيد على الخصوصية التاريخية والقومية لتعبيرات المبدع، وكذلك توقه الى رحاب الانسانية، حتى نتجاوز ونضيف ونقتل ما ترسب فينا من مكبلات وقدسيات وهيمة وقمع مسكوت عنه وحنين الى الموت.

عثمان بن طالب

ندوة

الشعر التونسي الحديث
قضاياه وإشكالياته

نظم اتحاد الكتاب التونسيين أيام 23 و24 و25 أكتوبر 1992 ندوة شعرية كان موضوعها الرئيسي: **الشعر التونسي الحديث: قضاياه وإشكالياته**، وقد توزعت مداخلات الأساتذة المشاركين على المحاور الفرعية طيلة الجلسات الاربعة على النحو التالي:

المحور الأول: **الشعر التونسي الحديث بين الابلاغي والجمالي.**

المداخلة الأولى: بنية الخطاب الشعري التونسي، آخر زهرة الثلج لمحمد البقلوطي منطلقا، تقديم الاستاذ خالد الغريبي.

المداخلة الثانية: الصورة في الشعر التونسي المعاصر: مصادرها ووظائفها، تقديم الأستاذ عبد الله صولة.

المداخلة الثالثة: جمالية النص الشعري: قراءة في شعر محجوب العياري، تقديم الأستاذ: محمد القاضي.

المحور الثاني: **الشعر التونسي الحديث والجامعة.**

المداخلة الأولى: الشعر التونسي الحديث في الدراسات الجامعية.

تقديم الدكتور جمعة شيخة.

المداخلة الثانية : شعر الطليعة: توثيق ونظر: تقديم الطاهر الهمامي.

المحور الثالث : **الشعر التونسي الحديث والنقد.**

المداخلة الأولى: نقد الشعر التونسي المعاصر: اتجاهات وقضايا.

تقديم الأستاذ: مصطفى الكيلاني.

المداخلة الثانية: في نقد الشعر: قراءة في الاطروحات الجديدة للاستاذ محمد لطفي اليوسفي.

المحور الرابع: **مرجعية الشعر التونسي الحديث.**

المداخلة الأولى: الشعر التونسي الحديث والتراث.

تقديم : الاستاذ محمد الغزي.

المداخلة الثانية: حضور التراث في **العاب المجروح** لعزوز الجمني.

تقديم الاستاذ الازهر النفطي.

وقد عقبت هذه الدراسات نقاشات ضافية ساهمت الى حد كبير في إثارة ابرز الاشكاليات وطرح أهم الاسئلة التي يثيرها الشعر التونسي والعربي عموما وسناتي فيما يلي على أبرزها بعد هذا العرض الموجز لما جاء في المداخلات.

كانت الجلسة الافتتاحية يوم الجمعة 23 أكتوبر مخصصة لمناقشة البحوث التي دارت حول المحور الاول وتركزت ثلاثتها على الشعر التونسي الحديث من خلال دراسة نماذج تطبيقية إذ تناولت بحث الاستاذ خالد الغربي بنية الخطاب في شعر محمد البقلوطي من خلال التفكيك وإعادة التركيب لإيجاد القوانين المتحكمة في هذه البنية كما تناول بحث الأستاذ عبد الله صولة مسألة الصورة الشعرية لدى بعض الشعراء الجدد.

أما جلسة صباح السبت 24 أكتوبر فقد قدم خلالها الدكتور جمعة شيخة عملا توثيقيا مهما رصد فيه مجموعة الأبحاث الجامعية المهتمة بالشعر منذ تأسيس الجامعة التونسية. وقد امتاز بحث الاستاذ الطاهر الهمامي أيضا بجانب توثيقي يهم شعراء الطليعة، وكلا البحثين يعد مصدرا لأبرز الاعمال الجامعية وغيرها التي تناولت بالدراسة الشعر التونسي الحديث.

أما النقد فقد استحوذ على الجلسة الثالثة التي قدم خلالها الاستاذ مصطفى الكيلاني دراسة حول نقد الشعر التونسي محاولا رصد إتجاهاته المختلفة وأهم قضاياه، وقد أثارت هذه المداخلة نقاشا ثريا لأنها أشارت بشكل جليّ إلى الخلل الذي رافق النقد الأكاديمي وحاولت أن تدل على مستقبل هذا النقد. أما الدراسة الثانية لهذه الجلسة فهي عبارة عن قراءة نقدية للأطروحات الجديدة للأستاذ محمد لطفي اليوسفي قدمها الأستاذ محمد الهاشمي بلوزة. وقد حاول بعد عرض هذه الاطروحات أن يبدي بعض الملاحظات حول «لحظة المكاشفة الشعرية» مستنتجا أن ما كتبه اليوسفي يعد عملا ينتمي إلى رؤية شاملة لمشروع نقدي عربي.

هذا وقد خصصت الجلسة الأخيرة لمحور التراث في الشعر التونسي الحديث وقد عرض خلالها الاستاذ محمد الغزي قراءة لعناصر التراث في شعر كل من المنصف الوهايبي وخالد النجار ومحمد الصغير أولاد احمد، أما مداخلة الأستاذ الأزهر النفطي فقد تناولت حضور التراث في مجموعة «ألعاب المجروح» للشاعر عزوز الجمني.

وعموما فقد أثارت كل المداخلات حوارات جادة من طرف الحضور، تميزت خصوصا بتدخل كل من الأستاذ أبو يعرب المرزوقي حول اللغة كمظهر من مظاهر التراث وحول المشروع النقدي العربي مؤكدا أهمية هذا الحضور الثقافي في مقابل الجامعة كساحة بحث أكاديمي منشغلة في كثير من الأحيان برؤى قد لا تكون بالضرورة في صميم الانشغالات المعاصرة للمثقف والباحث العربي، وتدخل الاستاذ محمد لطفي اليوسفي حول المشروع الذي تنخرط فيه رؤيته النقدية التي طرحها في كتبه التي نشرت خلال هذه السنة (1992).

وقد عقبت المداخلات والنقاشات قراءات شعرية امتدت على طول الايام الثلاثة شارك فيها أكثر من ثلاثين شاعرا جاءوا من مختلف أنحاء الجمهورية.

محمد الهاشمي بلوزة

لقاء مع الشاعر سميح القاسم

«لاخوف على الثقافة العربية في الأرض المحتلة»

احتضن فضاء اتحاد الكتاب التونسيين لقاء مشهودا صبيحة يوم الخميس الموافق لـ 30 جويلية 1992، احتفل فيه الحضور بالشاعر المناضل سميح القاسم أحد الرموز الكبرى في معركة البقاء، وهي المعركة التي يخوضها ببسالة فائقة فدائيو الداخل في مواجهة المؤسسة العسكرية الصهيونية بآلياتها المدمرة لقمع ثورة عارمة انخرط فيها شعب بأسره صمم على ان يقودها حتى النصر...

وقد ذكر الاستاذ الميداني بن صالح في كلمة الترحيب بان الشاعر سميح القاسم يمثل عينة من عينات النضال بالنسبة للامة العربية، وان الجيل الذي يمثله، والذي بقى داخل أرض الوطن المحتل تحمل ما لم يتحمله الأنبياء في جميع الاساطير من مختلف انواع العذاب والالم ومن ضروب الصمود والتضحيات.

ثم انطلقت كلمات الشاعر سميح القاسم في جو من الخشوع، فأصغى لها الجميع وهو يتوجه بالتحية إلى اتحاد الكتاب التونسيين، ويشكر تونس الجميلة على هذا الاحتفاء الحميمي الصادق.. وفسح المجال للاسئلة، فتوهجت جمراتها على شفاه المثقفين ممن يحملون الهم الفلسطيني ويتابعون اطوار القضية وتحولاتها الكبرى، عربيا ودوليا. لذلك جاءت الاسئلة متنوعة وعميقة حول ابعاد المفاوضات الجارية حاليا، وحول خطر الثقافات الأخرى على الثقافة العربية في الأرض المحتلة، وعن مدى تكامل الادباء الفلسطينيين في الداخل وفي الخارج، وكذلك عن مشروعهالروائي وتطور تجربته الابداعية وعن الحداثة أيضا..

وتناغم الشاعر سميح القاسم مع هذه الاسئلة وغيرها، وامتزجت في ردوده أصوات الشاعر المثقف والمناضل الصامد الملتزم بما يمليه واجب التضحية.. قال ان رؤيتي السياسية تنسجم مع ما تطرحه منظمة التحرير الفلسطينية وبالمقابل، لا اتفق مع ما يطرحه بعض الفلسطينيين إذ أرى في طرحهم تجاهلا لجوهر الانتفاضة، ولأننا لا نستطيع مواجهة العالم بأسره كان لابد ان نفعل شيئا من اجل إيقاف النزيف وقال : لست خائفا على الثقافة العربية داخل الأرض المحتلة لانه عندما تمشي في شوارع مدن فلسطين ستستمع إلى الموسيقى العربية وأغاني أم كلثوم، ولانه لدينا حضارة غنية وقاعدة هائلة لن تنهار، وعن الأديب في الداخل أشار إلى أنه يكتب من صميم المعاناة والحرب اليومية، والكاتب في الخارج يكتب من أوجاع المنفى والحنين الى الوطن وكلاهما يتكامل ليؤكد وحدة القضية.

وعن التجربة الروائية قال انها مشروع يستهويه اقتحامه ولا يعرف ماذا ستكون النتيجة وتكلم عن الحداثة فقال بانها شيء نسبي في القصيدة العربية ويجب ان نستفيد من جميع التجارب لنثري حداثة مشروعنا الحضاري.

وكانت خاتمة اللقاء شعرا.

المؤتمر العام الثامن عشر
للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب

عمّان 11 ـ 12 و13 ديسمبر 1992

الادباء والكتاب العرب في مواجهة التحديات الراهنة.

1) محاور الندوة:

1 ـ الثقافة العربية بين الثوابت القومية والمتغيرات الدولية
أ ـ المثاقفة عربيا من الوعي بالذات الى الوعي بالآخر.
ب ـ مثاقفة المغلوب والغالب بين المحو والاثبات.
جـ ـ مناخ المثاقفة عربيا بين:
1 ـ المركزية الثقافية الغربية
2 ـ المركزية الثقافية الغربية والاصولية الدينية. (وقائع ـ مخططات ـ واحتمالات).
د ـ المثاقفة بين الأنا والآخر عربيا من الشك الى الثقة.
2 ـ الثقافة العربية: واقع وضرورات
أ ـ الثقافة والسلطة: بين التبعية والاستقلال.
ب ـ الكاتب والكتابة بين الانتماء القومي والانتساب القطري (تكامل ام تعارض).
جـ ـ الكلمة والمصداقية عربيا: 1 ـ من متغيرات الاعلام الى ثوابت الثقافة.
2 ـ من الخلافية السياسية القطرية الى الرؤية القومية وثوابتها.
د ـ الكلمة والوعي والمعرفي عربيا: بين حرية الكاتب وحرية المتلقي.

هـ ـ الكتابة والقارىء والعصر من الحماسة الى ضرورات العلم. (الـواقـع والاحتياجات في الخطاب والمنهج).
و ـ معطيات مضيئة في التراث العربي فاعلة ايجابيا في الثقافة القـومية التقدمية المعاصرة.
3 ـ الكاتب العربي والصراع العربي الصهيوني.
أ ـ الصراع العـربي الصهيـوني وتجليـاتـه في الادب العـربي: الشعـر ـ الرواية ـ المسرحية ـ القصة ـ المقالة.
ب ـ الخطاب العربي: من صراع الوجود الى نزاع الحدود
1 ـ تجليات ذلك في مضامين الابداع واساليبه.
2 ـ تجليات ذلك في الفكر العربي.
جـ ـ الكاتب العربي والتطبيع الثقافي مع العدو الصهيوني.
1 ـ صورة العـربي في الادب الصهيـوني «تجليـات التطبيـع وخطـابـه واعلامه».
2 ـ صورة (الصهيوني ـ الاسرائيلي) في الادب العربي «تجليات التطبيـع وخطابه واعلامه».
د ـ خطورة التطبيع الثقافي على القضية الفلسطينيـة ومستقبـل النضـال القومي.
هـ ـ الانتفاضة والمقاومـة ظـاهـرة مضيئـة في الحيـاة والنضـال والادب العربي.

2) مشاركة الوفد التونسي:

يشارك الاتحاد في فعاليات المؤتمر بوفد رسمي يتركب من:
ـ رئيس الوفد: الاستاذ الميداني بن صالح
ـ المشاركة في مهرجان الشعر التاسع عشر: الشاعر محمد الغزي
ـ المشاركون في ندوة المؤتمر بدراسات: الاساتذة:
ـ **محمود طرشونة**: ثقافة المركز وثقافة المحيط
ـ **عثمان بن طالب**: مشروع «الحداثة» في الفكر المعاصر: بعض الاسقاطات على الفكر العربي.
ـ **محمد لطفي اليوسفي**: المستقبل العربي ومشروع التغاير الثقافي.
ـ **مصطفى التواتي**: العرب بين نهضة الغالب ونهضة المغلوب.
ـ **جلول عزونة**: الكاتب العربي والتطبيع الثقافي مع العدو الصهيوني.

نشاط نادي الشعر

استأنف نادي الشعر باتحاد الكتاب التونسيين نشاطه يوم الجمعة 18 سبتمبر 1992 باستضافة الشاعر اللبناني انطوان أبو زيد.

وقد استهل منشط النادي الجلسة المذكورة بعرض برنامج عمل النادي للفترة القادمة ثم قام بتقديم الشاعر الضيف الذي قرأ مختارات من قصائده ثم تركز الحوار حول تجربته الشخصية وحول الشعر اللبناني الحديث.

- جلسة 2 أكتوبر 1992 خصصت للشاعر التونسي المهاجر الطاهر البكري بمناسبة حضوره للمشاركة في الندوة التي نظمها الاتحاد حول «حرية الابداع في الوطن العربي» وقد قام بتقديمه الأستاذ عثمان بن طالب.
- جلسة 9 أكتوبر 1992 : استضاف النادي خلال هذه الجلسة الشاعر محمد علي اليوسفي وقد تحدث بعد أن قرأ نماذج من أشعاره عن تجربته خارج الوطن وعن الظروف التي قادته إلى مغادرة تونس والانتقال بين مختلف العواصم والعمل مع الهياكل الثقافية للثورة الفلسطينية كما دار الحوار أيضا حول آخر الاعمال الروائية العديدة التي ترجمها في كتابته الشعرية وكذلك عن الحضور القوي للتجربة الذاتية ولمرابع الطفولة رغم الغربة الطويلة التي لم تؤثر بشكل مسطح وإنما جاء أثرها في ثراء التجربة وتنوعها.
- جلسة يوم 16 أكتوبر 1992 خصصت للشاعر عبد الله مالك القاسمي بمناسبة صدور مجموعته الجديدة «هذه الجثة لي».
- الجمعة 23 أكتوبر: ندوة الشعر التونسي الحديث: قضاياه وإشكالياته.
- الجمعة 30 أكتوبر: استضافة الشاعر الحبيب الهمامي بمناسبة صدور مجموعته الشعرية: هكذا فاتني الآتي.
- الجمعة 6 نوفمبر 1992 : خصصت هذه الجلسة لتقييم الأيام الشعرية وقد قدمت خلالها آراء عديدة مفيدة حول التنظيم والاعلام والتوثيق وكذلك حول نوعية المشاركة وضرورة تركيز الاهتمام على النصوص الشعرية.

نشاط منتدى القصاصين

استأنف منتدى القصاصين نشاطه الأسبوعي وذلك مساء كل خميس انطلاقا من الساعة السادسة مساء. والملاحظ أن تنشيط المنتدى لهذا الموسم قد انتقل إلى القاصة **مسعودة بوبكر** بعد تكليف الهيئة يوسف عبد العاطي التفرغ إلى مسؤولية الاشراف على النوادي والفروع المديرة.

وقد كان انطلاق النشاط يوم الخميس 15 أكتوبر بجلسة تناول فيها الحاضرون أهم النقاط والمقترحات لوضع برنامج المنتدى للموسم القادم.

أما الجلسة الثانية فقد خصصت للاستماع إلى قراءة قصصية للأستاذ مهدي مبروك لقصة تحمل عنوان: **الحلزون** وذلك يوم الخميس 22 أكتوبر 1992.

أما جلسة يوم الخميس 29 أكتوبر فقد خصصت للاستماع إلى قصة: **حلم عظيم** للقاصة فاطمة سليم.

- الخميس 5 نوفمبر: تقديم مجموعة: **«الرجل الضباب»** لربيعة الفرشيشي من خلال تقديم نقدي لحافظ محفوظ.

- الخميس 19 نوفمبر : لقاء مع أعضاء نادي إبداع دار الثقافة «الطيب المهيري» وقد تمت القراءات التالية:

- **ليلة في بيتها**: عبد الرزاق الجملي.
- **مسافات** : زياد العكاري
- **الصخرة** : عادل الهمامي.
- **فصول عقيمة من الذاكرة**: ماهر الوسلاتي.
- **الانتقام** : ريم قبدور.

مجلة « الكاتب العربي
في عددها التاسع والعشرون

صدر مؤخرا العدد التاسع والعشرون من مجلة **الكاتب العربي**، مجلة الاتحاد العام للادباء والكتاب العرب في طبعة أنيقة من الحجم الكبير محلاة بعديد الصور المصاحبة لمختلف الاعمال النقدية والابداعية.

وقد اهتمت افتتاحية العدد بالرواية العربية تنصيصا على موقعها الريادي في حركة تحديث الكتابة الأدبية العربية المعاصرة وتأكيدا لدورها الفعّال راهنا في التعريف بالادب العربي في المجال الكوني. الا ان وفرة الانتاج الروائي وعمق التجربة في رأي كاتب الافتتاحية تستلزمان تكثيفا للجهود النقدية بتنظيم المزيد من الندوات الباحثة في واقع الرواية العربية واتجاهاتها وقضاياها المختلفة ذلك ما نص عليه مؤتمر تونس 1990 بالدعوة الى تخصيص ندوة للرواية العربية ضمن سلسلة من الندوات تنجز قبل مؤتمر الأردن القادم.

وتضمن العدد مجموعة من الدراسات تتصدرها «**الشعر العربي: الحداثة الآن**» لشربل داغر، أثار الباحث فيها مجموعة من الاسئلة قصد الكشف عن ارتباك المفاهيم والمصطلحات والمناهج في نقد الشعر العربي المعاصر لهيمنة مسبقات مفهومية للحداثة والتحديث على قراءة النصوص الشعرية العربية وعلى دراسة التحولات الكبرى في تاريخ الحركة الشعرية منذ «الاحياء» ومحمود سامي البارودي الى التجديد الشعري في الاربعينات وبدر شاكر السياب ونازك الملائكة والاجيال الشعرية اللاحقة، وتعد هذه

الدراسة مشروع قراءة نقدية مختلفة بالفعل مع ما ساد من تنظيرات للحداثة الشعرية وخاصة ما اقترن حضوره بأدونيس.

وتعد «**أسئلة النقد**» لـ محمد الهاشمي بلوزة انخراطا في الاتجاه النقدي الهادف الى المغامرة وتجاوز السائد الذي تجسم في دراسة شربل داغر. اذ يطرح محمد الهاشمي بلوزة السؤال النقدي ارتكازا على واقع المجتمع والفكر عامة. ان السؤال النقدي الادبي وان بدا سؤلا مخصوصا مستقلا بذاته فانه يستقدم في تركيبه اللساني المتفرد وقائع المجتمع العربي، ذلك ان الحداثة الشعرية سؤال تاريخي في الماهية الاولى دون القول بنقيض الخصوصية الادبية، ويحيلنا الدارس في اثبات هذا المنهج القارائي على الناقد والمبدع الياس خوري... ويتفرع سؤال النقد بعد ربطه بسؤال الثقافة، عامة، الى قضايا ثلاث: المفاهيم والمصطلح والمنهج..

ويضاف الى الدراستين المقدّمتين مجموعة من البحوث «**حول طبيعة الخطاب التراثي المعاصر** للدكتور عبد الهادي عبد الرحمان **ونجيب محفوظ سياسيا**» لاحمد محمد عطية و«**الكتابة والكاتب والمكتوب...**» لصلاح الدين بوجاه و«**الارض في الرواية الفلسطينية**» لعلي محمد عودة و «**يصفونها بانها بلد المليون شاعر**» لعبد الله ولد محمد سالم و«**بحثا عن الحداثة والهوية**» لعبد الرحمان مجيد الربيعي و«**مصطلحات القصة العربية**» لعبد الله ابوهيف و«**قراءة في شعر رفيق القومي**» للدكتور الصيد أبوديب...

كما احتضن العدد أعمالا شعرية وقصصّية لمحمد الفقيه صالح وباسط بن حسن وعلي صدقي عبد القادر وعبد الرحمان مطر وعادل مير غني وعمر شبانة وبيري كالاهان ويوسف الشريف وسامي عودة وجميل حتمل مع حديث أجراه بشير الهاشمي مع الكريم غلاب ومتابعة مهرجان المسرح بقرطاج للدكتور نديم معلا ومهرجان دمشق السنمائي السابع دون ذكر لكاتب نص المتابعة الثانية.

مصطفى الكيلاني

سهرة العراق

انتظمت سهرة رمضانية يوم 16 مارس 1992 بمقر الاتحاد ضمّت العائدين من العراق من الأدباء والكتاب. مع جمهور غفير أتى متشوقا لأخبار العراق ولحالة العراقيين تحت الحصار الجائر المفروض عليهم.

وقد أدلى العائدون بشهاداتهم عن الوضع في العراق وكذلك بانطباعاتهم الشخصية أو التي حصلت لديهم بعد معايشتهم للاخوة العراقيين عن كثب لفترة امتدّت أحيانا لأكثر من أسبوعين طيلة شهر فيفري 1992.

وقد ذكّر جلول عزّونة في مستهل السهرة بمساهمات التونسيين التي كانت مشرفة سواء الشعرية منها في مهرجان أم المعارك الشعريّ الأوّل (من 12 إلى 17 فيفري 1992) وبالخصوص بالقصيد الذي ألقاه في جلسة الافتتاح الشاعر آدم فتحي، وقد لاقى الاعجاب والتصفيق، أو بمساهمة محمد المديوني الذي ألقى كلمة باسم المسرحيين العرب في جلسة افتتاح **مهرجان بغداد الثالث للمسرح العربي** والذي انعقد ببغداد من 10 إلى 20 فيفري 1992.

وكان الدكتور محمود طرشونة أول المتدخلين فذكر بمساهمته في نفس الفترة ببغداد في ندوة : **دور المثقف أمام التحديات** بمحاضرة عنوانها : **سلطة المثقف ومثقف السلطة** وأشار إلى **الحصار الوحشي** الذي يعيشه العراق وإلى الحرب الاقتصادية المفروضة عليه إلى الآن وكذلك الى المرارة التي يشعر بها العراقي اليوم. ووضع الندوة التي ساهم في أشغالها ضمن حملة إعادة الإعمار، لأن تواصل النشاط الفكري هو كذلك نوع من إعادة الإعمار.

ثم تناول الكلمة الشاعر الفلسطيني أحمد دحبور الذي ذكر أن العراق كله ورشة عمل بدون انقطاع مساء صباح، وأن ما وعدت به السلط من

الإعمار عند زيارته الاولى في جويلية الماضية صار الآن حقيقة إذ أعيد بناء 80 بالمائة مما هدمته الحرب، ثم قرأ دحبور بعض مقاطع كان ألقاها ببغداد.

أما **محمد المديوني** فقد نوّه بنشاط العراق المسرحي وقد شاهد 40 فرقة مسرحية خلال عروض المهرجان وهذه الحيوية متواصلة رغم الحصار وصعوبة العيش.

تدخّل **رشاد أبو شاور** الروائي الفلسطيني فقال : ما ذهبت لبغداد سائحا وإنما للاطمئنان على فلسطين وأنا أعيش بعيدا عن وطني. ودعا في كلمته الحماسية الى التصدي لعملية التشكيك التي يحاول بها بعضهم كسر العزائم وقال ان العراق كضوء يجب أن يبقى حاضرا دائما.

ثم تلا الداخلات نقاش عميق ساهم فيه كل من الطاهر الامين والميداني بن صالح والطيب بن عطية وفاطمة الكرّاي بن عبد الله عضوة الهيئة المديرة لجمعية الصحافيين ومحمد بن عبد الله وغيرهم...

وقد حضر الامسية القصاص والروائي العراقي عبد الرحمان مجيد الربيعي، والقصاص الأديب فؤاد التكرلي وزوجته وكذلك الأستاذ عبد القادر العاني مدير المركز الثقافي العراقي والشاعرة جميلة الماجري والأستاذ محمد البدوي والشاعر عامر بوعزة.

وقد عقب بعض الكتاب العائدين من العراق على ما جاء من تساؤلات الحاضرين وتواصل النقاش خارج القاعة حول هموم الحاضر وتطلعات المستقبل وما يجب على المثقف من أدوار حتى لا تعرف أمتنا العربية في قادم الايام لا الانتكاس ولا العثرات...

جلول عزونة

دار الكاتب ... فضاء ثقافي وترفيهي للمبدعين وحملة الأقلام ...

لقد تم تدشين دار الكاتب التي تعتبر مكسبا هاما لأعضاء اتحاد الكتاب التونسيين ورجال الثقافة والإبداع يوم الأحد 27 سبتمبر 1992.

وهي عبارة عن فضاء، ثقافي وترفيهي يشتمل على قاعة لعرض اللوحات الزيتية اطلق عليها اسم الفنان الراحل «علي القرماسي» كما تشتمل على قاعة لعرض آخر المنشورات الأدبية والثقافية ببلادنا أطلق عليها اسم الأديب المرحوم البشير خريف.

كما يشتمل هذا الفضاء المكسب على مطعم ومشرب مخصص أساسا لأعضاء اتحاد الكتاب ولرجال الإبداع والثقافة الذين يرغبون في الحصول على بطاقات انخراط في هذه الدار.

وقد أعد اتحاد الكتاب برنامجا ثقافيا لتنشيط هذا الفضاء مع احتضانه لعديد الأنشطة والفعاليات التي تقوم بها الهياكل الثقافية داخل العاصمة.

وقد تكونت لجنة مشتركة بين وزارة الثقافة واتحاد الكتاب التونسيين للإشراف على تسيير هذه الدار هي كالتالي:

الميداني بن صالح: رئيس

سويلمي بوجمعة: كاتب عام

عبد المجيد الفوزري: مدير

عثمان بن طالب: عضو

زبير التركي: عضو

الأعضاء الجدد

انضم الى اسرة اعضاء اتحاد الكتاب السادة:

1) ـ محمود قطاط
2) ـ محمد كمال السخيري
3) ـ عبد الحميد الأرقش
4) ـ محمد العربي صمادح
5) ـ علي السماوي
6) ـ محمد الصغير أولاد أحمد
7) ـ عبد العزيز الحاجي
8) ـ سليم دولة
9) ـ الطاهر البكري
10) ـ نورالدين كريديس
11) ـ حسن بن عثمان
12) ـ كمال مخلوف
13) ـ كمال بوعجيلة
14) ـ أحمد الخذيري
15) ـ سعيدة صديق
16) ـ هادي خليل

اتحاد الكتاب التونسيين

بيان للرأي العام والمثقفين العرب

استعرضت الهيئة المديرة لإتحاد الكتاب التونسيين في اجتماعها يوم الثلاثاء 13 أكتوبر 1992 الاوضاع العربية العامة المتردية وحالة الامبالات وموقف العجز المخيف الذي طغى على الواقع العربي وتخلي الجامعة العربية عن القيام بمسؤولياتها القومية تجاه ما يتهدد الامة العربية جمعاء من مخاطر نتيجة مآمرة «امبريالية غربية صهيونية» حاقدة تستهدف وجود الامة حاضرا ومستقبلا وتخطط للقضاء على تطلعاتها الشرعية في التحرر والتخلص من قيود التبعية وتحقيق تنمية شاملة مستقلة تقوم على التضامن والتكامل العربيين بهدف ارساء مجتمع عربي ديموقراطي عقلاني معاصر تحترم فيه الحقوق والحريات.

إزاء هذه الاوضاع المخيفة والمخاطر المرعبة التي بدأت تهدد الوجود العربي، خاصة منذ اندلاع «أزمة الخليج» والتدخل العسكري المباشر للامبريالية «الامريكية الغربية» في الخلافات العربية واستمرارها اللا مشروط في حماية ودعم الكيان الصهيوني في عدوانه المتواصل على الشعب العربي الفلسطيني والامة العربية جمعاء ومساندة سياسته العنصرية التوسعية على حساب الامة العربية وحقوقها المشروعة، زيادة على ما ظهر مجدّدا من اطماع ايرانية توسعية في الاراضي العربية بمنطقة الخليج.

وتمسكا من اتحاد الكتاب التونسيين بقيم الحرية والعدالة والمساواة والشرعية الدولية غير المغشوشة ومبادىء حقوق الانسان دون انتقائية والتعايش السلمي بين الدول والشعوب بعيدا عن كل اشكال الهيمنة.

انطلاقا من هذا الواقع الذي يهدد العرب جميعا ويستهدف ارضهم الوطنية وامنهم القومي، فان الهيئة المديرة للاتحاد ترى ان الواجب الوطني والقومي والانساني يفرض:

- توفير الحد الادنى من التضامن والتكافل بين كافة الانظمة العربية مهما كانت اختلافاتها وبين كل الاحزاب السياسية والمنظمات الوطنية والقومية على اختلاف مجالات عملها، للوقوف في وجه هذه المخاطر التي تهدد العرب جميعا من الخليج الى المحيط.

- قيام الجامعة العربية بمسؤولياتها تجاه الامة وقضاياها المصيرية حتى لا تفقد هذه المنظمة القومية مصداقيتها بل وحتى مبررات وجودها.

ومن منطلق الواجب القومي والمسؤولية الفكرية الحضارية والانسانية، فان الهيئة المديرة للاتحاد ترى ان تجسيم الحد الادنى من التضامن العربي الحقيقي يحتم وفي هذه الظروف العربية والدولية المرعبة والصعبة ما يلي:

- أولا:

1) - قيام كافة الانظمة العربية والمؤسسات الاقتصادية على ساحة الوطن العربي بكسر الحصار المفروض على العراق لاكثر من سنتين والذي أدى الى تجويع شعبه وتركه عرضة للامراض والاوبئة ومخاطر الافناء وبالتالي حرمانه من حق الحياة.

كما يطالب الاتحاد الدول العربية للعمل وبكافة الطرق القانونية لفك هذا الحصار «الظالم» دوليا لان حرمان أي شعب من الغذاء والدواء يتنافى اساسا مع مبادىء حقوق الانسان والشرعية.

2) - التمسك بوحدة العراق «أرضا وشعبا» وشجب المآمرة التي دبرت لتقسيمه على اسس طائفية وعرقية. وهي مآمرة لو قدر لها النجاح «لا قدر الله» لهبت رياحها السوداء وشملت عديد الدول العربية الاخرى من المحيط الى الخليج.

3) - استنكار عملية السطو على اموال العراق «المودعة» في البنوك او «المستحقة» على بعض الدول والتنديد بالقرصنة على ثروات شعبه وهو ما يمثل اعتداء على مبادىء ميثاق الامم المتحدة وقواعد القانون الدولي ويمس من سيادة دولة عربية مستقلة عضوة في الجامعة العربية وهيئة الامم المتحدة.

- ثانيا:

- مساندة الشعب العربي الفلسطيني وانتفاضته الصامدة لاسترداد

حقوقه الشرعية كاملة وبناء دولته المستقلة وعاصمتها «القدس الشريف» فوق ترابه الوطني والوقوف بجانب دولتي «لبنان» و «سوريا» الشقيقتين حتى تستردا أراضيهما الوطنية التي تحتلها اسرائيل ظلما وعدوانا وتحديا لابسط مبادىء الشرعية والقوانين الدولية.

ـ ثالثا:

ـ الوقوف في وجه الاطماع التوسعية الايرانية في الاراضي العربية بمنطقة الخليج ومساندة دولة «الامارات العربية المتحدة» في موقفها الشرعي لاسترداد الجزر العربية الثلاث التابعة لها «طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى» والمحتلة من طرف ايران.

ـ رابعا:

ـ دعوة كل الدول العربية الى رفع الحصار المضروب على الشعب الليبي الشقيق ورفض كل اشكال التدخل في سيادته الوطنية التي تتنافى مع كل المواثيق الدولية، خاصة وان ليبيا قد عبرت من استعدادها للتعاون مع مجلس الامن بما لا يمس من سيادتها كدولة مستقلة عضوة بالجامعة العربية وهيئة الامم المتحدة.

ـ خامسا:

ـ دعوة كل الدول العربية خاصة البترولية منها وكافة المنظمات الانسانية على اختلاف مجالات انشطتها للوقوف بجانب الشعب الصومالي ومساعدته على الخروج من مأساة الفناء التي يتعرض لها بسبب المجاعة والاوبئة والصراعات الدموية القبلية التي يتخبط فيها.

ـ وبهذه المناسبة، فان اتحاد الكتاب التونسيين يتوجه بنداء الى كافة المثقفين العرب اينما كانوا ومهما كانت مواقعهم ليتحملوا مسؤولياتهم الفكرية الحضارية والتاريخية كاملة في هذه الظروف الصعبة الاليمة والمتميزة بالتخطيط والعمل لتهميش المثقفين العرب الاحرار وتدجين واشتراء ضمائرهم... ونشر روح الهزيمة واليأس بين الجماهير العربية للقضاء على طموحات الامة العربية في التحرر والانعتاق والاصرار على شدها الى عجلات التبعية والتخلف.

يصدر العدد المقبل

من مجلة « المسار »

في اخراج جديد وأنيق

طبع شركة فنون الرسم والنشر والصحافة ـ القصبة ـ